المملكة المغربية
وزارة الثقافة

رحلة الأسير مويط

ترجمه إلى العربية

د. محمد حجي د. محمد الأخضر

مركز الدراسات والبحوث العلوية
الريصاني

المملكة المغربية
وزارة الثقافة

رحلة الأسير موييط

ترجمه إلى العربية
د. محمد حجي د. محمد الأخضر

مركز الدراسات والبحوث العلوية
الريصاني

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم

رحلة مويط

الرحلة التي نقدم ترجمتها العربية الى القراء تعد من المصادر الاجنبية التي اعتمدها الدراسون للعصر العلوي الاول، ونقلوا عنها منذ عهد المؤلف حتى الآن. وهي مكتوبة بلغة فرنسية قديمة، وطبعت في القرن السابع عشر في نحو 350 صفحة من الحجم الصغير

المؤلف

مويط فرنسي ذو موهبة في الكتابة، وذاكرة قوية تختزن الاحداث وتتذكرها بتفاصيلها في الوقت المناسب، وفضول تاريخي واجتماعي يدفعه الى التعرف على المواقع التي يمر بها، والاشخاص الذين يلاقيهم أو يخدمهم أو يسمع عنهم.

وهو ـ كمعظم الفرنسيين في عصره ـ كاثوليكي متعصب لنصرانيته عندما ينظر إلى الامور بمنظار ديني، لكنه عندما يتعرض لاحداث عامة سياسية أو عسكرية أو اجتماعية يكون موضوعيا واقعيا إلا عندما يجمح به الخيال في قضايا الجنس والحريم .

خرج مويط من باريس في آخر يوم من يوليوز 1670، أي في الفترة التي كان مولاي رشيد قد بويع وهو يمهد البلاد ويوحدها، وأبحر من ميناء دييب في 16 شتنبر قاصدا الهند الغربية على ظهر سفينة شراعية تجارية كبرى تدعي «الملكية» مسلحة بستة مدافع، الامر الذي يذكرنا بطبيعة هذه الفترة التي

انتشرت فيها القرصنة عند المسيحيين والمسلمين. وبعد قضاء شهر في البحر ومعاناة اختلاف مهاب الرياح التقت السفينة الفرنسية بسفينتين سلاويتين تحملان رايات تركية[1] وبعد مخابرات ومعارك تغلب القراصنة السلاويون وقادوا مويط ومن معه مغللين في الاصفاد إلى مدينتهم .

كان عدد الاسرى أربعين رجلا وأربع نسوة، باعوهم في سوق النخاسة المعروف حتى اليوم في الرباط بباب القنانط. وكان حظ مويط أن اشتراه أربعة أشخاص ثلاثة مسلمون ويهودي. فعمل نحو سنتين خادما في بيت أحد سادته المسلمين بسلا. ثم في اسطبل سيده حاكم القصبة. ولما بويع مولاي إسماعيل عزل هذا الحاكم واستصفى أمواله، وبذلك انتقل مويط إلى ملك السلطان والتحق بالمولى إسماعيل في فاس ثم سار في ركابه إلى مكناس وظل يعمل عنده في أشغال البناء وغيرها زهاء تسعة أعوام أخرى. وقد تعلم مويط خلال مدة إقامته بالمغرب اللغة العربية، والاسبانية السائدة فيه أيضا بسبب الاندلسيين المهاجرين، إلى أن منَّ عليه المولى إسماعيل بالسراح بعد أن افتداه جماعة الرهبان الفرنسيين، فرجع الى باريس يوم 19 يوليوز 1681، أي بعد أن تغيب عنها في الاسر أحد عشر عاما الا 12 يوما

لم تمض سنة على إقامة مويط في باريس حتى شاهد وصول سفير المولى إسماعيل الحاج محمد تميم التطواني واستقباله الفخم في بلاط لويس الرابع عشر، والمفاوضات التي دامت ثلاثة شهور وأسفرت عن إبرام معاهدة 29 يناير 1682. أثارت هذه السفارة ذكريات مويط، فأاراد أن يعرِّف قومه بالمغرب والمغاربة وكتب رحلته أو قصته هذه في السنة التالية 1683. وقد ذكر المؤلف في مقدمة الرحلة وخاتمتها كتابه الآخر في تاريخ المغرب على عهد السلطانين المولى الرشيد والمولى إسماعيل وأحال عليه، ونحن الآن بصدد ترجمة هذا الكتاب أيضا إلى اللغة العربية

الرحلـــة :

تتركب رحلة مويط من ثمانية عشر فصلا، خصص المؤلف الفصول

---

1) كذا في النص الفرنسي وهو لايعني سوى رايات اسلامية، لان الاوربيين كانوا يخلطون آنذاك بين الامرين فيسمون كل ما هو اسلامي تركيا .

العشرة الاولى لاخبار أسره وما شاهد في المغرب من مدن وأشخاص وعادات. وهذا أهم أجزاء الكتاب. وذكر في الفصول الستة التالية قصص أسرى آخرين من فرنسا واسبانيا والبرتغال تعرف عليهم أثناء وجوده بالمغرب وروى عنهم أخبار مغامراتهم التي يغلب عليها الطابع العاطفي والاسطوري، ومع ذلك لا تخلو هذه الفصول من إشارات تاريخية مفيدة عن العصر العلوي الاول

أما الفصل السابع عشر فخصصه للحركة التجارية في موانىء المغرب كتطوان وأصيلا والقصر الكبير والمعمورة، وسلا، وأزمور، والوليدية، وأسفي، وأكادير داعيا الحكومة الفرنسية إلى توثيق الصلات بهذه المراكز، وتقوية المبادلات التجارية معها، بتصدير المنتجات الفرنسية إليها، وجلب البضائع المغربية منها

ولاعطاء فكرة موجزة عن الفوائد التاريخية التي تشتمل عليها الرحلة، نشير مثلا إلى ما جاء في الفصل الثاني من وصف مدن سلا الثلاث : سلا، والرباط، والقصبة بأسوارها وأبراجها وما جدد المولى الرشيد منها، ومقام الاندلسيين المهاجرين والمطرودين فيها، واليهود وتجارهم وما لهم من صلات مع أبناء دينهم المقيمين في هولاندا

وفي الفصل الثالث وصف دور فاس البالي والجديد بما فيها من غرف وأفنية وشرفات وأعمدة وأروقة وأحواض وأشجار، وزخارف الفسيفساء والجبس والخشب والمرمر، اضافة الى الفرش والستر الحريرية المطرزة والزرابي «التركية»

ويتحدث الفصل الخامس عن تجديد مولاي اسماعيل لمدينة مكناس، واشتغال الاسرى المسيحيين، ومن ضمنهم مويط، في عمليات الهدم والتشييد، وتوقف أعمال البناء بسبب طاعون سنة 1678 الذي قضى على نصف سكان المدينة ـ حسب قوله ـ واضطرار المولى اسماعيل إلى المقام بجبال الاطلس

كما يصف نفس الفصل مدينة مراكش، لا عن مشاهدة ولكن رواية عن بعض الاسرى الذين حدثوه عنها، وبخاصة قصر البديع الشهير قبل تخريبه. وتؤكد هذه الاوصاف ما عند المؤرخين المسلمين أمثال الفشتالي وابن القاضي والافراني، ووصف كذلك اعتمادا على الرواية منطقة سوس وما فيها من مدن

وقصبات. أما القصر الكبير فقد وصفه عن مشاهدة، لانه قضى فيه ثلاثة شهور.
وفي الفصل العاشر الذي تحدث فيه عن وصول رهبان «لاميرسي» الفرنسيين لافتداء الاسرى، وكان هو من بين المحررين، عاد لوصف مدينة مكناس وما تم تشييده فيها من القصر ودور الحريم والحصون والاسوار والابراج والابواب الثلاثة :
الباب الرئيسي المسمى باب القلعة أو باب الحقول، وباب الحجر المطل على الروامزين، وباب المدينة المطل عليها. كما تحدث عن سكان مكناس وطبيعتهم وتجارتهم وما تزخر به البادية من بساتين الخضر وأشجار الفواكه وغابات الزيتون .

وفي هذا الفصل أيضا وصف دقيق للمولى اسماعيل الذي كان يومئذ في عنفوان شبابه ابن سبع وثلاثين سنة. وصف جسمه وكأنه رسام يصور بريشته تقاسيم وجهه وملاحة ملامحه وتفرع لحيته ولونه الفاتح وطول قامته، ونحافة جسمه مع سعه ملابسه. كما وصف خلقه وشجاعته العظيمة بحيث كان يسير دائما على رأس جنوده، ويصففهم بنفسه عند المعركة، ويكون دائما هو المهاجم الاول لاعدائه، ولا يفر أبدا. وعن مهارة المولى اسماعيل في ركوب الخيل ونظام حاشيته وحرسه يقول مويط : «رأيته مرارا يمسك أحد أبنائه في ذراع، والرمح في يده الاخرى، ويعدو مسافة طويلة دون أن يكبو فرسه. ويوجد دائما في حاشيته العديد من الشرفاء والقواد، ينيف عددهم على مائتين، يرتدون الزي التقليدي برشاقة، ويرافقونه على ظهور الجياد صباح مساء عندما يذهب للتفسح فضلا عن أربعة آلاف من حراسه السود الذين يعيشون في الخيام حول مدينة مكناس .

غادر مويط المغرب من مدينة تطوان، فوصف هذه المدينة وأسوارها وقصبتها، وذكر أن سكانها الاندلسيين في غاية الثراء بسبب أعمال القرصنة (الجهاد البحري) والتجارة التي يمارسونها مع سبتة وطنجة وبلاد الجزائر وأوربا، وأشار إلى كثرة عدد الاسرى واليهود فيها

أما تافيلالت فتحدث عنها مويط في الفصل الحادي عشر رواية عن أسير فرنسي يدعى بيدرو الكاسكوني، فر من طرابلس متنكرا في صورة مرابط وصحب ركب الحجاج المغاربة العائدين من مكة فسار معهم إلى تافيلالت.

وصف دخول الركب إلى حاضرة المنطقة بعد أن خرج خليفة الملك لاستقبالهم وصحبهم إلى القصر، كما وصف جودة موسم التمور في تلك السنة، حتى ظن الناس أن ذلك من بركة المرابط المزعوم القادم عليهم. وسيكتشف أمر هذا الاسير المتصلح عندما يصل الى مراكش وينقل إلى مكناس مع أسرى المولى اسماعيل الآخرين .

وعاد مويط للحديث عن تافيلالت في الفصل الثاني عشر رواية أيضا عن أسير برتغالي يدعى الدون لويس كونزاليس الذي بقي في الأسر ثلاثين سنة. وهو من حفدة فاتح طنجة، كان يقيم فيها برتبة فارس إلى أن أسره المغاربة ذات يوم عندما ابتعد عن المدينة، وسلموه إلى عامل القصر الكبير. وبعد مغامرات كثيرة حمل الأسير البرتغالي إلى المولى الشريف أمير تافيلالت فاقترع عليه أبناؤه فكان من نصيب أصغرهم المولى اسماعيل، وظل في خدمته ثلاث سنوات قبل أن ينتقل إلى خدمة المولى محمد فالمولى الرشيد فالمولى الحران، ثم لاقى مخدومه الأول المولى اسماعيل عندما تولى الملك فكان في ذلك خلاصه وتحريره .

طال مقام كونزاليس إذن بتافيلالت فعرفها عن قرب ووصف موقعها وتربتها ووفرة النخيل فيها والاقاليم التابعة لها من دير الاطلس ودرعة وتوات، كما ذكر الأنهار الرئيسية بالمنطقة وروافدها وعددا من القصور التي يقيم فيها الشرفاء وطريقة عيشة السكان وطبيعتهم، وأفاد بأن خليفة مولاي إسماعيل في تافيلالت أصبح هو مولاي محرز أكبر أبنائه

أما عن أهمية مادة مويط فان معظم الكتاب عبارة عن ارتسامات المؤلف ومشاهداته وحديثه مع الناس، أو روايات عن أسرى آخرين - قال إنه يثق بهم - ومما يلاحظ أن هذه المشاهدات والروايات لا تتناقض في معظمها لا مع منطق الأحداث ولا مع الواقع بالنسبة للثوابت، لذلك فهي في غاية الأهمية لا سيما ما انفرد بتدوينه مما لا يثير اهتمام مؤرخينا عادة .

ومن أطرف مشاهدات صاحب الرحلة

- طريقة القتال في البحر والاستيلاء على سفن الاعداء
- كيفية بيع الاسرى بواسطة الدلال والمكان الذي يباعون فيه بالرباط .

- المطامير الذي يحبس فيها الأسرى مع ذكر المقاييس وأعداد الاسرى وأجناسهم .
- دور الرهبان في افتداء الأسرى والمبالغ المقدمة .
- وصف المولى إسماعيل الدقيق .
- وصف الحياة داخل بيوت سلا وفاس والقصر الكبير
- تشدد المغاربة في عدم معاملة الأسرى ما داموا مسيحيين، ودعوتهم إلى اعتناق الاسلام عن طريق الترغيب والاغراء، لاسيما صغار الاسرى الذين ينشؤونهم على الاسلام .

وفي الرحلة شبهات لا يصعب على القارىء التنبه لها، كاستنتاجات المؤلف المتعصب للمسيحية، وتحامله أحيانا على الاسلام والمسلمين، وخلطه في بعض الأسماء والأحداث التاريخية، كخلطه بين يعقوب المنصور الموحدي وأبي جعفر المنصور العباسي، وبين محمد الحاج الدلائي والمجاهد محمد العياشي، اضافة إلى مبالغته أحيانا وانسياقه مع القصص الغرامية

وبالجملة فان رحلة مويط شهادة لها أهميتها ومادة مفيدة للباحثين في تاريخ العصر العلوي الأول .

سلا في فاتح جمادى الاولى 30/1410 نونبر 1989

محمد حجي

مقدمـــة

لما كان ذكر النكبات لا يمنح السرور فقط لمن نجا منها، وانما يعجب سردها حتى الذين يقرؤونها. وحيث إنني قد قدمت تأريخ مولاي رشيد المعروف خاصة باسم ملك تافيلالت وتاريخ مولاي اسماعيل[1] الحسني، ملك فاس ومراكش الذي شاهدنا في العام الماضي سفراءه في باريس[2] ، فإن القارىء، بعد اطلاعه على أحداث كبرى كهذه، سيكون راضيا عني اذا ما وافيته لا بأخبار استرقاقي فحسب، ولكن أيضا بمغامرات عدد من رفقاء محنتي لم أر أنها غير جديرة تماما بحب اطلاعه. وسيشاهد، كما لو رسم ذلك في لوحة، قساوة الشعوب التي عشت بين ظهرانيها أسيرا قرابة أحد عشر عاما. وكان لدي متسع من الوقت لتعلم اللغتين الاكثر استعمالا هناك، اعني العربية والاسبانية

دخلت اللغة الأولى تلك البلاد، عندما غمر يعقوب المنصور[3]افرقيا كلها

---

(1) يكتب مويط دائما اسم مولاي اسماعيل بالنون (اسماعين) كما يسمعه ولا شك من أفواه الناس، وكما ينطق به العامة حتى اليوم، لكننا كتبناه صحيحا في الكتاب كله دون أن ننبه على ذلك مرة أخرى .

(2) الاشارة الى سفارة الحاج محمد تميم التطواني الأولى سنة 1681/1092. الذي مكث في باريس ثلاثة أشهر، تم خلالها بعد استقباله من طرف لويس الرابع عشر، التفاوض بين الطرف المغربي برأسة السفير، والطرف الفرنسي برأسة الوزيرين الشهيرين كولبير وسنيلي لابرام معاهدة 20 محرم 29/1093 يناير 1682

(3) بل الخليفة الاموي هو الذي امر واليه على افريقيا موسى بن نصير بفتح الاندلس فوجه اليها جيشا بقيادة طارق بن زياد عام 711/92 كما هو معروف في التاريخ. أما تدفق القبائل العربية الهلالية على المغرب فكان على يد المستنصر الفاطمي الخليفة الشيعي بمصر (427-487هـ) الذي انتقم من المعز بن باديس الصنهاجي حاكم افريقية حين نبذ دعوة الفاطميين، فأرسل عليه قبائل الاعراب من بني هلال وسليم وزغبة ورياح وغيرهم فخربوا افريقيا ثم نقلهم يعقوب المنصور الموحدي (580/595 هـ) الى المغرب الأقصى فاستقروا في سهوله كما هو معروف. والخلط بين الأعلام البشرية والجغرافية والاحداث التاريخية الاسلامية شائع بين الكتاب المسيحيين في العصر الوسيط .

بالعرب - ان صح التعبير - عندما بعث من قلب الجزيرة العربية التي كان يحكمها مثلما كان يحكم معظم بلدان افريقيا، بقواده لفتح اسبانيا، بإيعاز من الكونت دوم يوليان، صاحب القصة الشهيرة. وبعد أن ظل هؤلاء العرب سادة اسبانيا كلها تقريبا طوال 700 إلى 800 سنة سُلبوها أخيرا وطردوا منها نهائيا من قبل فيليب الثالث. ونظرا الى أن مملكتي فاس ومراكش أقرب الى اسبانيا فان المسلمين حملوا إليها، عند انسحابهم، اللغة الاسبانية التي ما تزال حتى اليوم شائعة بينهم مثل العربية

وبعد أن تدربت على هاتين اللغتين، وكنت طبعا محبا للاطلاع استطعت بواسطتهما التعرف على كل ما بدا لي جديرا بالاهتمام. ولما كانت الملاحظات التي أبديتها يمكن استعمالها اليوم، وكان عاهلنا المنصور الراغب في أن نتعرف على شعوب افريقيا، بقدر ما تتعرف عليها شعوب أوربا، بجنوحه الى السلم وإغناء رعاياه بالتجارة، فانه أوفد سفيرا خاصا لتأكيد المعاهدة التي أبرمت هنا مع سفراء ملك مراكش وأقرها ذلك العاهل. لهذه الأسباب وجدت نفسي مدفوعا إلى مسايرة الميل الطبيعي، الذي كان لي دائما نحو وطني العزيز، والسرور يغمرني بأني استطعت أن أكون مفيدا له بشيء ما

ولو لم يكن لعملي المتواضع إلا أن يستنهض همم المسيحيين ليرحموا الأسرى المساكين الذين سأحاول تشخيص آلامهم، فانني أعتبر نفسي قد كوفئت أحسن مكافأة إن استطعت إقناعهم بأن صدقاتهم لن تصرف في أحسن من افتكاك الأسرى. إن مصائب هؤلاء البؤساء والقساوة التي يعاملون بها دائما من طرف أولئك البرابرة جعلهم لا يترددون في محاولة اتخاذ كل وسيلة والتعرض لجميع الاخطار من أجل الخلاص من أيدي ساداتهم القساة .

خبر أسر السيور مويط
في مملكتي فاس ومراكش

الفصل الاول
ركوبي البحر في دييب للتوجه الى أنتيي الاميريكية
واختطافي من طرف قرصانين من سلا

وفاء بما وعدت به من إتمام خبر فتوحات مولاي رشيد وأخيه وخليفته مولاي اسماعيل، وحتى أرضي كذلك حب استطلاع القارىء تماما بتناول الامور منذ البداية، سأقول له أني انطلقت من باريس آخر يوم من شهر يوليوز عام 1670، مع ابن عمي كلود لوايي لاكارد، وأحد أصدقائنا، للقيام برحلة الى الهند الغربية الأمريكية

ولما وصلنا إلى دييب يوم 29 غشت، أبحرنا يوم سادس عشر سبتمبر (بعد أن دفع كل واحد منا ستا وخمسين ليرة كأجرة لسفرنا) على ظهر فركاطة تدعى «الملكية» ذات حمولة مائة وعشرين طنا، بقيادة إسحاق بيليار، وهو ربان من دييب سلح سفينته بستة مدافع. وبعد أن طلعنا إلى السفينة ركبتها أيضا السيدة دولامونطاني، التي كان زوجها قائدا لقدماء سكان جزيرة سان كريسطوف، عائدة اليها مع ابنها الفارس وبعض الخدم والجواري، وصحبها صهرها حاكم لونكفيل، مع عدد من السيدات والنبلاء حتى على ظهر سفينتنا، حيث استمتعوا بتناول وجبة طعام فاخرة وحيتهم طلقات مدفعية

وجيء يومئذ كذلك الى السفينة بشاب من أهل البلاد أفلت من يدي أبيه لانه مع الاسف قتل أخاه البكر الذي كان أبوه يوثره بحبه .

وعند المساء هبت ريح شرقية، دعت ربان سفينتنا إلى الاقلاع، وعند منتصف الليل انقلبت الريح فجأة نحو الجنوب الغربي، وازدادت قوة من حين لآخر، فهاج البحر بحيث إن الأمواج المتلاحقة التي أخذت تمر فوق سطح سفينتنا بدأت ترعبنا، والنوتيون يضحكون من ذلك، وقد تعودوا على العاصفة. الا ان الزوبعة، المتزايدة باستمرار التي كانت تهددنا بالغرق، ألزمتنا أن نحيد عن مرسى فيكام التي كنا نسير إليها لنلتجىء الى شواطىء انجلترا. ذهبنا لنلقي المرساة بين رأسين يسميان رأسي بيريس ولاريك. لكن بما أننا صادفنا هنالك مركبين، كان أعلى صواريهما ما يزال ظاهرا، ورداءة الطقس متواصلة باستمرار، ارتأى رباننا أن نبحر، ونرسو في الكثائب، على بعد فرسخين وراء دوفر حيث سنكون في مأمن أكبر، لان شواطىء انجلترا الصخرية العالية ستقينا أحسن من الريح المتقلبة من الغرب

نزلنا من السفينة هناك، وأقمنا أربعة أيام باليابسة لنستريح. لا تتكون عظمة هذا المكان الا من عدد السفن التي تتجمع فيه في انتظار صفاء الجو، لأنه محمي بثلاثة معاقل. السيدات هناك في غاية الأناقة والتهذيب والجمال. إن الشاب النبيل النورماندي الذي تحدثت عنه آنفا، والذي كان مزاجه يميل الى العشق والغرام ويحسن اللغة الانجليزية، أراد أن يتعرف عليهن فتورط في قضية لم يكن ليخرج منها سالما لو لم ينقذه بعض أصحابنا

وفي فاتح أكتوبر، وقد تحولت الريح الى الشمال الشرقي، ربع الشمال، اقلع اسطول يتألف من مراكب هولاندية وهامبوركية، كان متوجها صوب الشرق، وكذلك اسطول الأميرال الازرق الانجليزي، فاندفعنا في صحبتهم طوال يومين، تمتعنا خلالهما بنغمات أبواقهم وطلقات مدافعهم المتوالية. وفارقناهم عند رؤية جزيرة ويط، وتابعنا السير في طريقنا حتى اليوم الثامن، بريح طيبة، لكنها انقلبت شطر الجنوب الغربي في اليوم التاسع، وأصبحت معاكسة لنا تماما. فهيجت البحر بشكل خطير حتى اضطررنا في اليوم الثاني عشر إلى ترك سفينتنا عرضة للريح والاعصار. وذات ليلة، عندما كنا، جميعا تحت السطح، ما عدا القائد والربان، اللذين كانا في الكوثل، مرت فوق جانب السفينة موجة قوية أرغمتها على نصف غطسة، أوشكت أن تغرقنا في قعر اليم لو لم ترسل رحمة الله على الفور موجة رفعت مقدم السفينة، ولولا ذلك لهلكنا لا محالة. وأخيرا

هدأت العاصفة في صباح ثالث عشر اكتوبر، وظهر قوس قزح فأعاد الينا الطقس الجميل. وفي اليوم الخامس عشر مساء، لقينا ثلاثة مراكب هولاندية كبيرة، كانت عائدة من شواطىء بلاد البربر، حيث أحرقوا بعض مراكب قراصنة سلا، حسب قولهم، وسألونا إن كنا لم نصادف سفينة من نوع فلييوت كانت من جملتها وأفلتت منهم، وحذرونا منها لأنها ليست بعيدة. ثم تابع كل واحد منا طريقه بعد تبادل التحيات

وفي غداة الغد، وهو السادس عشر، عندما كنا نصلي، صاح غلام من أعلى الصاري الكبير، بأنه يرى سفينتين أمام سفينتنا، غير بعيدتين عنا الا بفرسخين. ونظرا لكوننا متوجهين بعضنا نحو البعض فانه لم يمض وقت وجيز حتى أصبحنا على مرمى مدفع. كانت السفينتان تحملان رايات تركية، فرفعنا نحن رايتنا، وسألونا من نحن والى أين نذهب. ولما أجبناهم بأننا قادمون من دييب ومتوجهون الى امريكا، قالوا لنا إنهم من الجزائر ومسالمون لنا ولا نخشى شيئا، وما على قائدنا إلا أن يذهب الى سفينتهم ليريهم جوازاته، ولا يريدون أكثر من ذلك. هكذا كان أهل سلا يستولون على مراكبنا، وتلك هي الطريقة التي يتبعها اليوم أهل الجزائر، وقد عقدنا السلم مع ملك مراكش، الامر الذي يسهل عليهم جدا الاستيلاء عليها، ويسهل علينا تلافي ذلك إذا ما أجهدنا أنفسنا في التفكير فيه

لم يقبل القائد لفرط سرعة تصديقه أو جبنه اتباع رأي الربان والملاحين، الذين بينوا له ان احدى السفينتين هي من نوع «فلييوت» التي حذرهم الهولانديون منها مساء البارحة. وأن الدفاع عن النفس خير من تصديقهم. فأمر بانزال زورق الانقاذ الى البحر، وصحب معه ستة من افضل الملاحين، وفارقنا قائلا انه، اذا كانت السفينتان عدوتين فسيلقي بقبعته في البحر كأمارة للدفاع عن أنفسنا. لكن ذلك الشقي خاننا. ذلك انه (وقد أخذ تأمينات كبيرة على مركبه، بحيث انه سيصبح غنيا اذا فقده) بدلا من ان يفي بوعده، كتب رقعة الى الربان يطلب منه أن لا يخشى شيئا، وان يسمح للمسلمين بالصعود الى ظهر السفينة، لانهم لا يريدون سوى ان يروا هل يوجد عندنا اجانب مختبئون، ولما امتثل الربان للاوامر. صعد المغاربة وما كادوا ينزلون على ظهر السفينة حتى شهروا السلاح الذي اخفوه تحت ستراتهم، واخذوا يضربون اول من يلقونه. وعندما رأيت ان

الامر جد، ولا احد يقاوم، تركت بندقية كانت بيدي بعد أن اطلقت النار منها، ثم انسحبت مع الاولين. فنزلت في احد زوارقهم، حيث ان شيطانا اسود اخذ على الفور بتلابيبي، ورفع فوق رأسي سلاحا ليخيفني. الا انه اشار الي بان أمكث هادئا، وانه لا يؤذيني ان تركته يفعل ما يريد. فجردني من احسن ما كان عندي وما فوق ظهري، وبعد ذلك لم يقل لي اي شيء

كان الشجار، اثناء ذلك عنيفا على سطح المركب : فقد قتل المغاربة الذين لم يجدوا أية مقاومة، شابا هو كونيا عمره ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاما، بطلقة بندقية صوبوها الى بطنه. وتلقى فارس مالطة ابن سيدة الجبل بضع ضربات بسيف ضلع، اصيب من جرائها بجروح خفيفة. وبعد ان تمكن المغاربة منا ساقونا الى سفينتهم، حيث جردونا جميعا وفتشونا حتى في أخفى المواضع، ليروا هل عندنا نقود مخبأة ثم عدونا. كنا اربعين بين كبير وصغير، مع اربع نسوة، وقسمونا بالتساوي بين السفينتين وكذلك سائر الغنيمة، فبقى فارس الجبل والسيدة امه مع الرئيس كورت ـ باي وصرت أنا وابن عمي في عداد من نقلوا الى مركب الرئيس محمد، قائد السفينة القرصنية الاخرى، ومتمرد من الجزائر كان قد التحق بكورت ـ باي بعد أن طارده الهولانديون منذ بضعة أيام وأفلت منهم تحت جنح الظلام. وفعلا كان كورت ـ باي ممتطيا سفينة «الفليبوت» التي حذرنا الهولانديون منها.

وما ان نزلنابتلك السفينة حتى وضعوا الاغلال في أرجلنا، عشرة في نفس السلسلة. ولما رأوا ما حصلوا عليه منا ورضوا به عادوا الى سلا، التي انطلقوا منها. فشاهدنا تلك المدينة في صباح الرابع والعشرين من اكتوبر. وكان قرصان انجليزي ينتظر عودة هؤلاء، ملقيا مرساته في مصب الجرف الرملي. وبمجرد ما أبصرنا، ابحر فورا. لكن بما انه لم يكن يوجد في سفينته الا خمسون رجلا فانه اكتفى بمطاردتنا بطلقات مدفعية، محاولا ارغامنا على الاستسلام. وبالرغم من الطلقات النارية التحق قراصنتنا بالجرف الرملي محاولين اقتحامه. لكن البحر كان قد انخفض كثيرا ولم يبق هناك ماء كاف، فعادوا الى البحر ليسيروا على طول الشاطىء. فتبعهم الانتجليزي، واقترب منهم كثيرا وأصابهم في عدة مواضع، حتى ارغم المركب القرصاني الذي كنت فيه على الانقلاب جانبا مع غنيمته على الصخور، فظننا أننا سنهلك جميعا. وهرب مركب كورت ـ باي

تحت جنح الظلام، إلى ميناء فضالة الصغير، على بعد اثني عشر فرسخا من سلا. وعندما انزلونا الى اليابسة، سقطت في البحر مع جاريتها شابة نورماندية جميلة جدا، كانت قد صحبتها معها سيدة الجبل ومعها خادمتها وهب الملاحون المسيحيون على الفور لانقاذها، لكنهم لم يدركوا الا الجارية، لان الاخرى مرت تحت السفينة وغرقت. وعندما وصلنا الى الارض، وجدناها فوق الرمل وهي عارية تماما، قد جردها المغاربة من الثياب

الفصل الثاني

كيفية بيع الاسرى المسيحيين بسلا، ووصف هذه المدينة

ان القائد أحمد بن ينكورت، حاكم القصبة ومدينتي سلا[1] وصل يوم الغد، مصحوبا بالحاج عبد القادر مورينو، امين البحرية الى المكان الذي كنا فيه ليرسلنا الى المدينة التي لم تكن تبعد عنا بأكثر من فرسخين صغيرين. وقبل متابعة الحديث، اظن انني لن اخرج عن الموضوع اذا قمت بوصف موجز لمدينة سلا. انها مشيدة على ضفة واد كرو المنحدر من جبال الزوايا[2] الذي يقسمها الى شطرين شطر شمالي يسمى سلا بلغة البلاد و«صالي» بلغتنا. حيث يقيم اكبر التجار اليهود والمغاربة. تحيط بسلا أسوار متينة علوها عشرة ادرع تقريبا، وسمكها تسعة او عشرة اشبار، مبنية بالتراب والرمل الاحمر المقوى بالجير المدكوك على طريقة البلاد. هذه الاسوار مجهزة بشرفات ومحصنة ببروج مربعة متينة. وكانت كلها تقريبا خربة-قبل حكم مولاي رشيد، الذي أمر بتجديدها. ويسمى الشطر الجنوبي الرباط ومداره اكبر بكثير من الشطر الآخر. ويوجد في داخل هذه المدينة عدة بساتين وحقل كبير يمكن ان تزرع فيه حبوب لتغذية اكثر من ألف وخمسمائة شخص. اسوارها قديمة جدا، وحسب رواية البلاد، بناها طائفة من المسيحيين الاولين الذين اجازهم الى افريقيا خلفاء يعقوب المنصور (ملك الجزيرة العربية) الذين فتحوا اسبانيا. ونقلت طائفة اخرى الى مراكش لبناء قنوات الماء الشهيرة التي ما تزال تشاهد فيها اليوم[3] وفي جهة

---

(1) يعني سلا والرباط. وكانت القصبة تضاف اليهما ايضا فتسمى كلها مدن سلا الثلاث

(2) يقصد الاطلس المتوسط التي توجد فيه زاويتا الدلاء القديمة والحديثة.

(3) أخطاء تاريخية واضحة لا تحتاج إلى تعليق، الا أن الاسرى المسيحيين عملوا فعلا في بناء الرباط وقنوات الماء بمراكش .

الجنوب الشرقي، ربع الجنوب، برج عال يسمى حسان، ويستعمل لارشاد السفن التي تريد ان ترسو هناك الى معرفة الارضية. وفي سفح ذلك البرج تصنع السفن او تساق لتقضي هناك فصل الشتاء. ويصعد ركوبا على الفرس الى اعلى ذلك البرج، بنفس السهولة التي يصعد بها الى جبل، لان مرقاته بدون درجات. وقد شيده بأمر من نفس الملك مع مسجد كله خراب، نفس المعلم الذي شيد البرج الشهير لمسجد آخر يستعمل كنيسة باشبيلية في بلاد اسبانيا وللجامع الكبير بمراكش .[4]

ان هذه المدينة التي استمرت عدة سنوات كجمهورية بدأت تأخذ ذلك الشكل للحكومة بعد مدة من التجاء الاندلسيين والغرناطيين الذين طردهم ملك اسبانيا بسبب ثوراتهم المتكررة. ان هؤلاء المسلمين الذين سيعرفون كيف يحاربون ويريدون ان يعيشوا احرارا رأوا انهم اكثر عددا من البلويين. فأرغموهم على عدم الاعتراف بأي عاهل، مصممين على التملص من الطاعة التي وعدوا بها ابن بوبكر[5] عندما دخلوا الى بلاده، وحاصروا الامير عبد الله ابنه حاكم القصبة. ان هذا الامير الذي لم يكن عمره الا خمسة عشر عاما. صمد بشجاعة للحصار سنوات عديدة. وأمده بالمؤن والذخائر دوق دي ميدينا كيلي، امير ميناء سانت ماري القريب من قادس، وملك البرتغال، الذي ارسل اليه عدة سفن من نوع كرافيل محملة بجميع انواع المؤن والدخائر الحربية، لا سيما وقد طالبهما بها السفراء الذين اوفدهم اليهم ابن ابي بكر

ان سكان سلا، الذين منعوا من الدخول الى الميناء بسبب القصبة التي كان يحميها، اضافة الى أن البادية كلها كانت معادية لهم، بدأت تعوزهم جميع الاشياء. وحمل إليهم كثير من التجار المسيحيين القمح الذي كانوا ينزلونه في احد الشواطيء الواقعة بين المعمورة وسلا. وقد أثرى هؤلاء التجار، اذ انهم اخذوا معهم تقريبا (في مقابل ذلك) كل ما حمله المسلمون معهم من اسبانيا من ذهب وجوهر. ولما سئم الامير عبد الله من المكوث في سجن دائم، تفاوض ذات يوم مع قائد مركب انجليزي، قدم الى الجرف الرملي، ووعده ان يسلم اليه القصبة، ان أعطاه ملك انجلترا الف قنطار من البارود والف بندقية. فقبل الانجليزي

(4) يشير إلى الصومعات الثلاث المتشابهات : حسان، والخيرالدة، والكتبية، التي شيدها يعقوب المنصور الموحدي .

(5) يقصد محمد الحاج الدلائي حفيد الشيخ ابي بكر الذي كان يحكم سلا وبلاد الغرب .

مغتبطا حتى انه ذهب الى القصبة مع مائتي جندي، اراد ان يتركهم هناك مع المغاربة في انتظار عودته من انجلترا

لكن بعد ان اقام ذلك القائد ثمّت أربعة ايام او خمسة، ورأى أن ليس هناك مؤن كافية للاقامة حتى رجوع مركبه، قال للامير انه ذاهب الى انجلترا ليناقش القضية مع سيده. وبعد أن ركب السفينة أنذر سكان سلا الامير بأن يرد اليهم القصبة، والا فجروا لغما وضعوه في الصخرة. كان أسير ايطالي هو صاحب هذا الاختراع. واستطاع بواسطة الخل أن يلين الضخرة، وينجز هذا العمل بمهارة، آملا اطلاق سراحه الذي وعد به. فبعث الامير اثنين من أقرب خواصه ليشاهدا اللغم، فوصفاه له وكيف صنع برأي مسيحي .

وعندما رأى عبد الله أن لا مندوحة له من الخروج من القصبة أو الموت فيها، استسلم يوم الغد وحصل على كل ما طلبه. وسلموا له الايطالي فأمر بقتله والتمثيل به. ولما غادر القصبة أقام بها الاندلسيون ديوانهم فاجتمع الحاج عبد الله فنيش، ومحمد سانتياكو، بمساعدة مرينو، سكيردو، أوسارة، باتوخا، والزبدي، والتونسي، والقرطبي، والبلنسي، وبلانكو، والمنيني وآخرين كثيرين من اعيان المدينتين واستقروا بها كحكام لسائر الشعب. فأمروا بحفر خندق حول القصبة استخدموا فيه أزيد من خمسمائة رجل طوال عدة أشهر. ولكن بما أن العمل كان ينجز في الصخر ويتطلب مصاريف باهظة، تركوه ولم يتموه كما يشاهد حتى الآن. واستمر ذلك النوع من الحكم الى دولة مولاي رشيد

توجد اليوم قصبتان بسلا. قديمة تحدثت عنها منذ قليل، وهي مبنية عند مصب نهر كرو مباشرة، ترتفع بجانبه أسوارها شاهقة قائمة على صخور بحيث تجعل دار العامل المحانية لها في مأمن من المدفع. ان بناء هذه القصبة ليس له أي انتظام، فليس هو بمربع ولا بمستطيل، وانما بنوا في المواضع التي وجدوا فيها أرضية ملائمة لذلك. ان جل الاسوار المطلة على النهر من الحجر المنحوت، مع عدة أبراج جدد بناءها مولاي اسماعيل وتمتد حتى الى القنانيط الآنفة الذكر وفي هذه القصبة أمام المدخل الرئيسي الذي لا يغلق الا بباب من خشب يكاد يكون كله نخرا، برج عال صففت فوقه مدافع لقصف المدينة. ويوجد في الجانب الاسفل من ناحية البحر على رأس صخرة محانية للجرف الرملي، بستيون نصبت فيه خمس قطع من المدفعية، لحماية المراكب الراسية في المرسى،

وتسهيل انسحاب القراصنة المطاردين من طرف المراكب المسيحية. ان الاسوار بجانب البحر ليست عالية جدا، بحيث يمكن تسلقها في يسر، لاسيما أن التراب يملؤها في الداخل حتى الاعلى تقريبا، وان الارض في الخارج كومت فيها الازبال وأكداس التراب في عدة مواضع، مما يجعل دخولها سهلا جدا. وفي نفس الجانب، توجد على هذه الاسوار نحو عشرين قطعة مدفعية ذات عيار متوسط، تستعمل أيضا لحماية المرسى. كما توجد درج تحت الارض، تصل بين البستيون والقصبة. وليس هناك ماء صالح للشرب الا ما يحفظ بواسطة نطفية كبيرة تجمع ماء المطر الساقط فوق سطوح المنازل أيام الشتاء بواسطة قنوات عديدة. وهناك أيضا بئر، لكن ماءه يكاد يكون ملحا أجاجا لا يصلح الا لشرب البهائم

أما القصبة الجديدة، الواقعة في الجنوب ـ الغربي، فبناها مولاي رشيد، وهي مربعة الشكل محصنة ببروج متينة، مجهزة مثل الاسوار بشرفات مسننة وينتقل من الواحدة الى الاخرى عبر جدار مرتفع محصن ببرجين ومشيد على أقواس، يمر الناس تحت احدها للتفسح في البحر. وكان بداخلها عندما كنت في سلا، اثنتا عشرة قطعة مدفعية من البرونز مختلفة العيارات. وفي الجانب الغربي قبالة المكان الذي انقطعت فيه أسوار المدينة يوجد بستيون آخر على صخرة بشاطىء البحر قد اهمل منذ ذلك الوقت، الامر الذي يسهل جدا اقتحام سافلة سلا، سواء بسبب تلك الثغرة الكبيرة، التي يمكن أن يدخلها خمسون أو ستون رجلا معا، او لكون أبواب تلك المدينة لا تغلق ليلا أصلا. والوقت المناسب لهذه العملية هو شهر أبريل، حيث يكون جميع القراصنة في البحر، ومعهم أجود الجنود، ولا يبقى للذود عنها سوى شيوخ وأطفال ونساء لا يقدرون على المقاومة. ويمكن النزول الى فضالة، الواقعة على بعد اثني عشر فرسخا جنوب ـ غرب سلا، والطريق المؤدية الى هذه المدينة مستوية تماما. ان مزردع نواحي سلا غني جدا بالحبوب والمواشي والاشجار المثمرة. وفي داخل هذه الاسوار حقل كبير فارغ صالح للزراعة، وعدد من البساتين خارجها. فاذا وضع في هذا المكان، بعد الاستيلاء عليه، حامية من خمسمائة فارس، فسيصبح عظيما مثل مدينة وهران، التي يحتلها الاسبانيون في مملكة الجزائر (حيث ينفي النبلاء الذين استحقوا بعض العقوبة، ليخدموا هناك على حسابهم طوال بضع سنوات)

لاسيما انه سيلزم بدفع الضرائب كل اقليم تامسنا، الذي ليس له اي معقل، ويعد من اجود أقاليم مملكة فاس. واذا اقتحم البلد للقيام فيه بغارات فلابد من الشروع في الحرب ابتداء من شهر مارس لارغام الاعراب على الانسجاب نحو الجبال، وترك الحبوب التي يشرعون في حصدها حوالي شهر ماي،ويختزنونها في الارض ويحرثون فوقها. لانه اذا وقع التوجه اليها بعد الحصاد هلك فيها الجيش جوعا، سواء الرجال والخيل لانهم لا يدخرون اي شيء من الكلأ اليابس الذي تتلفه الشمس في الصيف بحرارتها المفرطة. وللحفاظ على نتائج الغزو، ينبغي ألا يترك في الخلف أي عدو من شأنه ان يشوش علينا هناك، لان المغاربة الذين هم دائما في انتظار قدوم المسيحيين والاتراك الى بلادهم يقولون انهم يفضلون ان يكون القادمون مسيحيين، لانهم اكثر انسانية ويبقون على حياتهم. وبعد ذلك سيتمكن المغاربة من الاستيلاء عليهم وطردهم، وذلك ما لا يؤملونه من الاتراك [6]

ولنعد الى حديثنا فنقول: انه بمجرد وصولنا الى سلا، ذهبوا بنا الى رب السفينة القرصنية فاحتفظ بنا الى يوم عيد جميع القديسين قبل ان نباع. قدُم اولا قائد سفينتنا الى العامل الذي احتفظ به كمملوك. وبعد ذلك امسك الدلالون كل واحد منا بيده واخذوا يسيرون بنا ورؤوسنا عارية على طول مساحة السوق، الذي يقام تحت قباب كبيرة، تسمى قنانيط، وهي قريبة جدا من النهر، في جهة القصبة. ان الذين يساومون على الاسرى يحضرونهم امامهم، يفحصون سحنتهم واكف ايديهم، حتى يعلموا بذلك هل هم من اصحاب العمل، او من اسر ميسورة. فاذا رأوا احدا حسن اللون ناعم اليدين عرفوا انه غني وتزايدوا في ثمن ذلك البائس، على امل ان يستخرجوا منه فدية ضخمة، ان كان من نصيبهم. وهذا ما يجعل الافلات من ايديهم صعبا.

وقد بيع صاحبنا فارس مالطة والسيدة امه بالف وخمسمائة ريال. أما أنا الذي بقيت آخر الجماعة، فاشتريت بستين وثلاثمائة ريال، بعد ان طاف بي الدلال كثيرا وصاح «حراج، حراج !» ثم سُلمت الى سادتي وكان عددهم

---

(6) يتطوع المؤلف هنا بالتجسس وكشف عوارات بلاد المسلمين داعيا المسيحيين الى اغتنام الفرصة للاستيلاء عليها. وتلك كانت عادة الأسرى وحتى بعض السفراء المسيحيين الذين يزورون بلاد الاسلام .

أربعة. أخذني أحد غلمانهم الى منزل عمومي، ينزل فيه الاجانب مثل نزلاتنا بفرنسا، التي يسمونها فنادق.

جاء ثلاثة من سادتي الذين لم يكونوا يملكون مني سوى النصف، ليروني حالا، يسمى أكبرهم محمد المراكشي، وكان يستأجر غابات الملك. ويسمى الثاني محمد البيوس تاجر في الصوف والزيت، وهو رجل طيب كما عرفته فيما بعد. اما الثالث فكان يهوديا اسمه ربي يمين. فاشتروا لي بعض الاسمال، ثم ذهب بي المراكشي الى منزله ليقدمني الى زوجته. فاحضرت لي على الفور خبزاً ابيض وسمنا وعسلا وقليلا من التمر والعنب الدمشقي، وهي تقول: «كل،كل» وبما انني كنت جائعا لم آكل بعد، فسرعان ما اتيت على جميع ما قدمت لي. وارادت ان تزيدني، عندما رات انني اكلت كل شيء، لكنني اشرت اليها، برفع قبعتي، انني اكتفيت.

اعادني المراكشي بعد ذلك الى المنزل الاول، حيث التحق بي اليهودي فحياني بتحية اسبانية (لم استطع اذ ذاك ترجمتها) قائلا لي، وقد رآني كئيبا حزينا: «يا سيدي ! تمسك بالشجاعة ان الله كبير قدير وسينقذكم من المحن التي اوقعكم فيها القدر ومخاطر البحر !» ثم سالني هل لي اب وام ومال افتدي به. وحيث إن المسيحيين، الذين أسروا قبلنا في السفينة القرصنية التي وضعت فيها بعد اختطافنا، علموني كل ما ينبغي أن أقول لسادتي عندما سيسألونني، اجبت اليهودي بانه اخطأ كثيرا بمخاطبتي «بسيدي»، اذ انني افقر كل جماعتنا، وان ليس لدي ما يعادل ريالا حتى أعطيه إياه. فلم يظهر أنه صدقني وانما زاد قائلا انه رق لشبابي، وان قبلت أن أتفاوض معه، فسيحمل سادتي الآخرين على ان يحرروني بثمن متواضع جدا. فتابعت جوابي قائلا انه لو لم يجب الا دفع ريال لافتدائي لما استطعت دفعه. وكان إسلامي يقوم بدور ترجمان فأ فادني بانه يقول: ان كنت لا املك شيئا كما قلت، فلاكتب على الاقل رسالة الى أهلي طالبا منهم أن يجمعوا بعض الصدقات لتخليصي من ايديهم، فان لم افعل اثقلوني باربع سلاسل، وضربوني بالعصا بدون انقطاع، وتركوني اموت جوعا في مطمورة. ولما سمعت هذا الكلام المحزن، طلبت ورقا ومدادا وريشة فاحضرها لي الاسلامي في الحين وكتبت رسالة من ارق ما يثير الشفقة في العالم، وطلبت من اخ لي وصفته باسكاف ان يعمل على جميع صدقات قدرها اربعون او

خمسون ريالا تدفع للرهبان العاملين لافتكاك الاسرى، حتى لا ينسوني عند مجيئهم الى هذه البلاد. فقرأ الاسلامي تلك الرسالة لليهودي واخبره، وهو يظن ان ما كتبته حق، بانهم اخطؤوا حقا عندما اشتروني بهذا الثمن الغالي، ولذلك لم يعذبوني اكثر.

وفي يوم الغد، وضعوني بين يدي محمد اليبوس، فاخذني هذا الاخير معه الى منزله، حيث وجدت حماته وزوجته اللتين كانتا أندلسيتين، فأخذتا ترثيان لتعاستي، وأطعمتاني جيدا، ثم أعطتاني كيس قمح لطحنه في طاحونة يدوية كانت في مطبخهما. ذلك هو العمل العادي الاكثر بالنسبة للاسرى الموجودين في المراسي البحرية لعدم وجود طاحونات أخرى. ان هذه الحرفة الشاقة القاسية تتطلب مجهودات كبيرة. وبما انني لم يسبق لي ان عملت، فقد اخذ ذلك يزعجني منذ الحين الذي استخدمت فيه، وجعلت انجز العمل واصنع لهما دقيقا غليظا لا يمكن عجنه. فاضطرت سيدتي الى ان تسلم لي طفلا صغيرا لها، لاتجول به عبر المدينة. وقد الفني بحيث لم يعد يريد الذهاب مع آخرين، ولا ان يضطجع الا بجانبي. وسيدتي التي كانت شابة جميلة جدا تتكلم اللغة الاسبانية بطلاقة، عندما رات ما يكنه لي ابنها من محبة، رخصت لي في ان أذهب به أينما شئت، وكانت تمتعني بخبز السميد الابيض، والزبد الممزوج بالعسل، والفواكه حسب فصول السنة. وازاحت عني سلسلة تزن خمسة وعشرين رطلا كان زوجها قد غلني بها، وكانت تناشدني أن أتحمل أسري بصبر، وحمتني من ضرب زوجها وسبابه، وطلبت مني مرارا ان أسلِم لتبرهن لي اكثر عن محبتها، وتزوجني من احدى بنات اخيها، وهي في غاية الحسن والغنى كان أبوها عبد القادر أسيرا منذ خمسة عشر عاما لدى قيادة سجن الاشغال الشاقة بمالطا، وكنت أجيبها لاشكرها بسرور، بانه لو كانت هي التي سأنال منها تلك المزية لكنت فعلت ذلك بطيب خاطر، اما من اجل اية واحدة اخرى غيرها فلن ينفذ ابدا الى نفسي. ثم اقول لها ارق كلمات واشجاها في الدنيا، الشيء الذي من اجله اعفتني من الذهاب الى المطمورة لانام مع سائر الاسرى.

اما سيدة الجبل، فانها تفاوضت في فديتها وفدية ابنها الفارس بمبلغ قدره ثلاثة الاف ريال دفع نصفها نقدا سيور دو لوبيا، التاجر البايوني، فركبت متن سفينة هولاندية كانت بصدد الابحار، أنزلتها في شواطيء انجلترا. ومن هناك

اجتازت الى فرنسا للبحث عن المال والمفاوضة في شان رجوع ابنها وغلمانها الذين بقوا هناك. لكن بعد ذهابها ببضعة ايام علم مولاي رشيد، الذي كان يحكم آنذاك فاس، بنبإ وجود ذلك الشاب الفارس المالطي اسيرا بسلا، فامر بنقله الى فاس، على ان لا يطلق سراحه ابدا، وكذلك الذين كانوا بين يديه. بل انتزع من سيده الخمسمائة ريال التي كان قد استلمها وجلده مائتي جلدة لاطلاقه سراح امه. كان ذلك الفارس الكريم معرضا دائما لاقسى العقوبات التي ينالها الاسرى، طوال حكم ذلك السلطان، لكن، بعد موته باعه خلفه مولاي اسماعيل الحسني لبعض يهود فاس بالفي ريال. وحتى يفتدي بثلاثة الاف، استخدموه مدة ثمانية عشر شهرا في أرذل اشغال حيهم، فالزموه بان يحمل اقذار بيوتهم، وان ينظف كنائفهم، موجهين اليه الف شتيمة كل يوم فتحمل ذلك بصبر عجيب طوال تلك المدة. الا انه رزح تحت عبء مثل هذه الآلام والاغلال، فأصابه مرض خطير اشرف معه على الموت، واضطر هؤلاء القوم عندما نقه، ان يطلقوا سراحه مقابل ألفين وخمسمائة ريال. وكان ذلك عام 1674.

وفي هذه الاثناء، كنت اقضي وقتي بهدوء عند لليبوس، طوال العام الذي مكثت عنده. لم يطلب مني بتاتا ان اعطيه مالا، لان الاسلامي الذي تحدثت عنه كان قد اوصاه لصالحي. لكن القائد احمد بنيوكورت، حاكم القصبة، الذي كان رابع سادتي، ويملك نصف شخصي. سال الثلاثة الآخرين بعد هذه المدة، إن كنت لم اتفاوض معهم حول ثمن فديتي فردوا بالنفي قائلين انهم اخطؤوا فعلا عندما اشتروني. فقال لهم: «اتريدون ما لكم وتتركون لي حصتكم، لانني سارغمه حقا على الكلام؟» فقبلوا بطيب خاطر، ورافقوني الى القصبة، حيث تركونـي اعمل في الاصطبل. وبدات منذئذ ارى الفرق بين الحاكم والبيوس، اذ عند هذا الاخير كنت اكل من طعامه المعتاد، وعند الاخر لم يكن لي سوى الخبز الاسود والماء. وكان علي ان انام في مطمورة قذرة عفنة مليئة بالهوام لدرجة انني كنت مضطرا الى ان اضع فيها كل مساء تبنا جديدا، علاوة على ان ذلك المكان كان يستعمل كسجن لحوالي ثلاثين من الاعراب، فكنت لقذارتهم مضطرا لقضاء الليالي مع باقي الاسرى، طوال مدة اقامتنا هناك.

قصة مسيح مزعوم

واثناء مقامي بسلا، وصلت سفينة هولاندية من امستردام، حملت الى يهود

تلك المدينة بعض التكهنات التي ارسلها يهود هولاندا اليهم، مفادها ان المسيح الذي كانوا ينتظرونه منذ عدة قرون، سيولد بهولاندا في بداية السنة الموالية، التي كانت هي سنة 1672. وعندما سمع اليهود بمثل هذه الاخبار السارة، اقاموا عيدا ثانيا للمظال، ولم يفتؤوا خلال ثمانية ايام كاملة مقبلين على التسليات والمادبات.

واجتمع ذات يوم اكابرهم عند يعقوب بونيو دي مسكتة، احد اغنى من يلبسون الزي الافرنجي (وكان قد فر من اسبانيا ليفلت من متابعات المحكمة العسكرية)، والتحق بهم السنيور دو لوبيا، التاجر البايوني، لتهنئتهم. وبينما كان يشرب نخبهم، ونخب مجيء مسيحهم المزعوم، رأى مسكته انه انما كان يفعل ذلك استهراء بهم، فقال له باللغة الاسبانية، ما معناه: «هلا ياسيد لوبيا، تريد ان تراهن معي باربعمائة درهم على انه سيولد بهولاندا، قبل مرور سنة، الملك المسيح الذي ننتظره ؟» مد لوبيا يده، وهو لا يريد احسن من ذلك، امام سائر اليهود الى مسكتة، الذي امسكها كدليل على انه قبل الرهان وانه يلتزم امامهم باداء الاربعمائة ريال، ان لم يولد الملك المسيح بهولاندا في التاريخ الذي ذكره. واقسم مسكتة امام الجميع بانه لن يرجع عن كلامه، ثم دعا لوبيا ليشاركهم في باقي الاحتفال. وبعد لن مرت سنة، ومر الاجل الذي انتهى في يوليوز، ذهب لوبيا عند مسكتة ليسأله هل ولد المسيح، وان ياتي في هذه الحالة ليستلم الاربعمائة ريال التي تراهنا عليها. فاستغرب مسكتة لهذه الزيارة، ظانا ان ذلك الرهان انما كان هزؤا ولعبا، وجعل ينكر الرهان. لكن لوبيا صعد الى القصر، دون ان يضيع الوقت، وصرح للعامل بكل ما جرى في السنة الماضية بينه وبين مسكتة، ذاكرا له اسماء جميع اليهود الاخرين الذين كانوا حاضرين، فاستدعاهم القائد، وبعد ان علم منهم كيف جرت الاشياء حكم على مسكتة بان يدفع على الفور اربعمائة ريال التي خسرها، ولا يمكن اعفاؤه منها رغم ما قام به من توسلات. وبعد ان انسحب اليهود، اقتسم العامل ولوبيا الاربعمائة ريال.

وقبل ذلك بقليل كان القائد قد طلب مني ألف ريال كفدية، فأجبته بما أجبت الآخرين، لكن بما أنه كان فظا ذا سيطرة كاملة، لا يكتفي بنفس الاسباب، ولم يكن لي حظ السيدة لتدافع عني ضده، فانه أرسلني لأشتغل كعامل يدوي عند بعض البنائين الذين كانوا يرممون أسوار القصر. فظلوا طوال شهرين ونصف يوجهون إلي أقوى الضربات بمسحاتهم. دون أن يقدموا الي أي تعليل آخر عندما

كنت اشتكي من قوستهم، سوى أن علي أداء ألف ريال الى سيدي، ثم لا أشتغل البتة. واخيرا وقد أضناني الضرب والعمل الشاق، وعدت القائد بخمسمائة ريال، فأجابني بأنه غير محتاج للمال، وان الامراء الكبار مثله لا يحررون عبيدهم الا مقابل فديات كبيرة، وأن هؤلاء، ولو حصلوا على حريتهم بذلك الثمن، يجب أن يكونوا مدينين لهم. ومرت أيام كذلك في تلك الاشغال، ولكن عندما تبين لي أنني لم أعد أطيق أكثر. قلت لرئيس مائدته انني لن أستطيع أن أدفع سوى ستمائة ريال، وأنه ان خلصني بذلك الثمن فسأعطيه عشرين. قبل ذلك الرجل اقتراحي. وذهبنا عند السنيور ياراسول، قنصل بلادنا اذ ذاك لتحرير العقد. فنلت بعد ذلك شيئا من الراحة طوال بضعة أشهر. ولما انتهت طلب مني سيدي هل وصلت الستمائة ريال أم لا. فقلت له إني قمت بعدة إجراءات، ولكن السفن التجارية لم تعد تغامر بتاتا بالمجيء الى شواطيء هذه البلاد، بسبب حروب أمراء أوروبا. فانتظر شهرا اخر. ولكن عندما رأى أن أي شيء لم يأت، زاد في محني بأن غلني بسلسلة تزن خمسة وعشرين رطلا، ودفعني الى العمل للمرة الثانية.

وفي هذه الاثناء، اعتلى مولاي اسماعيل العرش بسبب موت أخيه مولاي رشيد، الذي كان عائدا منتصرا من مراكش وغضب على سيدي عامل سلا (لانه كان قد احتقره في الوقت الذي كان فيه مجرد أمير) وأمره بأن يتوجه الى فاس مع جميع جنوده. وحيث إن القائد ارتاب من سوء المعاملة التي قد يعامله بها الملك. اعتراه خوف شديد حتى صار كالمسعور. وفي ليلة انصرافه، لم يدر على من يصب غضبه، فكنت أنا ورفاقي الضحايا الذين انتقم منهم، فبأول ضربة وجهها لاسباني هشم رأسه وأرداه على الارض شبه قتيل ولم يتخلص منه روماني بسهولة أكثر. وكنت آخر من صادف بين يديه، وهو مازال يحقد علي فأصبت في رأسي وجسمي كله بضربات، ولم استعمل مع ذلك لشفائي سوى بيض وعنكبوت. وانطلق يوم الغد متوجها الى فاس، ولما وصل هم الملك بقطع رأسه، لكن بعض الشرفاء والقواد من أصدقائه تشفعوا فيه، فاكتفى الملك، بعد العفو عنه، بتجريده من الحكم وجنوده، وأمره بأن يعيش بفاس القديم كرجل عادي، لذلك فإنه أوفد الى سلا ابن عمه احمد ابن عبد الله لنقل جميع ما يملكه الى فاس، فخرجنا اليها في أواخر يوليوز. ومن بين الاسرى المسيحيين السبعة، كنت الوحيد الذي يحمل قيود الحديد في رجليه، وعلي أن أمشي بها حافي القدمين على الرمال الحارة التي كانت الطرق مليئة بها.

وبعد خمسة عشر يوما من وصولي الى فاس القديم، المدعو عاميا بفاس البالي، ثارت المدينة ضد مولاي اسماعيل، للاسباب التي ذكرتها في أخباره. وحيث إنها استنجدت بابن اخيه مولاي احمد بن محرز، الذي كان مقيما بتازة، وهي مدينة صغيرة لا تبعد عن فاس الا بثمانية عشر فرسخا، أرسل اليها 500 1 فارس و000 5 راجل، عين سيدي من بين قوادهم. فتركنا تحت حراسة أسود لم يعطنا خلال الحصار الذي دام أربعة عشر شهرا، سوى خبز النخالة وبعض البقول المطبوخة لغذائنا. بحيث إننا كنا سنموت جوعا، لولا اغاثة المسيحيين الآخرين الذين كانوا يعطوننا الخبز وقليلا من النقود التي بعث بها الي من سلا القنصل السيور ريموند.

الفصل الثالث

في أمور أكثر خطورة وقعت بفاس الجديد الى أن نقلت الى مكناس مع باقي الاسرى

لما عاد فاس البالي مرة ثانية الى طاعة مولاي اسماعيل، سيق جميع عبيد القواد والخواص الآخرين الذين انضموا لابن اخيه مولاي احمد، وكنت من بينهم الى فاس الجديد لينضموا لعبيد الملك. قد تكون هذه مناسبة لوصف مدينتي فاس. ولكن بما أنني وصفتهما باسهاب في تاريخ مولاي رشيد ومولاي اسماعيل، فلن أعيد ذلك هنا، وإنما سأكتفي بذكر ما نسيته بخصوص هيكل المباني وبعض الخاصيات الاخرى.

وصف دور المغاربة

إن جميع دور كل من فاس البالي وفاس الجديد، كسائر دور بلاد البربر، مبنية على شكل مربع ومغطاة بسطح وليس في الجدرات التي تفضي الى الازقة او الى الجيران أي نافذة. وفيها عادة أربع غرف منحدرة، عرضها من ثمانية الى

عشرة أقدام، وطولها من خمسة وعشرين الى ثلاثين قدما، وبعضها أكثر من ذلك أو أقل. أبواب هذه الغرف مفتوحة مباشرة في الوسط، حتى يصل الضوء الداخل منها الى طرفي كل غرفة. ويوجد الفناء في الوسط، حيث يكون بئر عادة، وإذا كانت دور أمراء، وهي دائما فسيحة جدا، توجد «خصات» من المرمر تقذف الماء، وشبه حوض سمك، تحيط به اشجار البرتقال والليمون التي تحمل الثمار طوال السنة. وان تركبت الدور من طابقين كانت لها أروقة قائمة على أعمدة من رخام، أو حجر منحوت، أو آجر، مع درابزين من الخشب المفتول، المصبوغ بمختلف الالوان. إن جوائز الغرف مصبوغة ايضا، وتحتها حزام من جبس دائر حول الغرفة كلها، علوه ثلاثة أشبار، نقشت تحته كمية من الازهار بالفسيفساء. ويوضع في الاسفل على علو قامة رجل حزام آخر من المربعات الصغيرة المعدة والمصبوغة بمختلف الالوان، تمثل كل أنواع الأزهار. تفتح أبواب الغرف مقسومة الى شطرين، وتبقى دائما مفتوحة تقريبا، لانه توضع أمامها ستُر حريرية مطرزة. وفي طرف كل منها منصات من خشب الصنوبر مصبوغة، ترتفع عن الارضية بشبرين. وفوق هذه المنصات تهيأ فرش الأمراء، وهي مؤلفة من حصير اسل مصبوغ، وعدة زرابي كبيرة على شكل زرابي تركيا. وتوضع على هذه الزرابي حشيات من الصوف لا يزيد سمكها عن أصبعين، ومبطنة من أحد الجانبين بثوب حرير مقطع بأشرطة مختلفة الالوان، ومن الجانب الاخر بقماش قطن، مع وسائد مملوءة صوفا. يكون معدا فوقها أغطية من قماش هولاندي أو بريطاني. وهي جوخات يلتفون بها عند النوم، بعد أن يتجردوا من ثيابهم كلها عدا القمصان. ولكي يرتاحوا اكثر، يضعون فراش زوجاتهم في الطرف الاخر من نفس الغرفة، حيث يقصدونهن عند الحاجة. ان البورجوازيين لا يستعملون إلا هذه الزرابي، وقليلا ما يلجؤون الى الحشيات. وأما الفقراء الذين لا تصنع جل دورهم سوى من قصب على نمط الأكواخ، فانهم ينامون فوق حصير مغطى بجلود غنم، وكسائهم الصوفية العادية. ليس لدورهم نوافذ أصلا، وإنما هي شبه حجيرة لا يمكن للضوء أن يدخل إليها الا من الباب. وليس لمطابخهم مدخنات يجعلون فيها عدة كوانين من الآجر او الحجر، تحت أيِّ مكان يتركونه عمدا مفتوحا على السطح ليخرج منه الدخان. ان مداخل الدور تسير دوما بانحراف الى اليمين والى الشمال. ومن الزقاق، قبل الدخول الى الفناء، يوجد في غالب الأحيان ثلاثة أبواب أو أربعة لابد من اجتيازها،

ونفس العدد من الممرات الحالكة الظلام. بين هذه الابواب يتسلى الامراء المغاربة مع أصدقائهم أو في بعض الغرف الواقعة في اصطبلاتهم. لن أتحدث هنا عن كيفية أكلهم، لانني تعرضت في مكان آخر لكيفية اكل الملك، التي هي نفس الشيء تقريبا. ولكن بما ان الكسكسو هو طعامهم المعتاد أكثر، فان القارىء سيسره أن يعرف ما هو، وكيف يهيأ.

تهييء الكسكسو

يأخذون قصعة كبيرة من الخشب أو الطين، يضعونها أمامهم مع جفنة مملوءة بالدقيق وأخرى بالماء الصافي، وغربال ومغرفة. يرفعون حفنتين أو ثلاثا من ذلك الدقيق ويضعونها في القصعة ويصبون عليها من ذلك الماء. يحرك الدقيق جيدا بالأصابع، ثم يسقى من حين لاخر بالماء، الى أن يتحول الى شبه حبات الجلبان الدقيقة ، ذلك ما يسمى الكسكسو. وكلما تكون شيء منه أخذ من القصعة ووضع في الغربال، ليفرز من الدقيق الذي يمكن أن يبقى دون فتل. ومن النساء الماهرات في صنعه من يفتلنه دقيقا جيدا بحيث لا تكون حباته أغلظ من دقيق الرصاص، وأجود منه بكثير. وفي هذه الاثناء، تطهى كمية من اللحم الجيد، كالدجاج، والبقر والغنم، في قدر لا يتعدى عرض مدخلها شبرا. وهناك وعاء آخر من نحاس (كساس) معد خصيصا لذلك واسع جدا من اعلى ضيق الى حد من أسفل، ليدخل في فم القدر بقدر أصبعين، وقعره متقب كمقلاة القسطل. يوضع الكسكسو في هذا الوعاء الاخير، فوق القدر التي يطبخ فيها اللحم عندما يوشك أن ينضج. ويترك عليه مدة ثلاثة أرباع الساعة. وهو مغطى بمنديل، بعد أن يحاط فم القدر المحتوي على اللحم بخرقة مبللة مع قليل من الدقيق، لمنع خروج البخار او الدخان من ذلك المكان، حتى يخترق الكسكو لطبخه. ويسحب بعد ذلك ليصب في طبق ويحرك لتفتيته، ثم يدهن بالسمن قدر الكفاية، ويصب عليه مرق الاناء مع كامل اللحم.

ولنعد إلي، فنظرا الى أنه لم يكن لي أي معرفة بفاس الجديد، وكنت مضطرا لأنام على الأرض، فإن الأب المحترم گريگوار ريبِّير، من جماعة سان فرانسوا، وهو رجل دين ذو تقى واحسان عجيبين، يعمل اليوم حارس دير الرهبان

الفرنسيسكانيين لسان ريمي في بروفانس، وكان آنذاك أسيرا، مع السيور كاسطيل الجراح، الذي كان ذا فضيلة تامة، أعطياني كل ما رأيا أنني محتاج اليه، لأتخذ فراشا من قصب مثل الآخرين. وفي اليوم التالي لقدومي، استُخدمت في الاشغال العادية التي يقوم بها سائر الأسرى. وكانت تلك الاشغال هي البناء، أتعب ما يمكن أن يتصور، لأن طريقة تشييدهم الأسوار مختلفة تماما عن طريقة أوروبا. فبالرغم عن علوها الشامخ لا تشيد الا بالتراب المقوى بالجير الذي يصعب رفعه لدرجة أنني اتعجب كيف يمكن الصمود لهذا العمل طويلا، بالاضافة الى أنه لابد من الاتيان بالماء بالايدي من مكان بعيد لجعل الطين أحسن وأوثق. ومن الصعوبة أيضا حمله الى أعلى، لاسيما وأنهم لا يستعملون المنصات ولا السلاليم، الامر الذي يستلزم تصعيده بواسطة بكرة وحبل صغير يحرق أصابع الذين يجذبونه ويقطعها. واذا توقف الذين يعملون في الاعلى لحظة عن الدك بمدكات ضخمة لذلك التراب الذي يوضع بين لوحات خشب، فإن المراقبين الذين هم بمثابة ناظري العمال بفرنسا، والذين تدرب سمعهم على ذلك، يقذفونهم بالحجر ليرغموهم على استئناف تلك الحركة الدائبة، التي لا يستطيعون قطعها ولو لتناول قليل من الخبز، فيضطرون الى تناول الخبز بيد والعمل باليد الاخرى. كنا نشتغل هكذا النهار كله حتى الليل ! وعندما تأخذ النجوم في الظهور، يعاد العبيد الى سجنهم، حيث يزج بهم فيه بعد عدهم وعدهم مرارا. وفي الغد، عند مطلع النهار، يلزم الرجوع الى العمل. وبعد ذلك بقليل، استخدمت في سحق الوان تحت مراقبة رسام كان أيضا طالبا او متفقها في القرآن وقد علمني ذلك الطالب، الذي يدعى بوجيمون، عدة اشياء تتعلق بعادات أهل البلاد وديانتهم، وقد وصفتها في غير هذا المكان. وفي ذلك الوقت أيضا رويت لي القساوة التي استعملها مولاي رشيد ضد الاسرى المسيحيين. ولما كان غرضي الاهم هو التعريف بمحن أسرى هذه البلاد المساكين، فقد رأيت ألا أغفل ذكر المعاملات القاسية التي كان يعاملهم بها هذا السلطان، وألا أضعها في أحسن من الفصل التالي.

الفصل الرابع

في الشدائد التي حدثت في عهد مولاي رشيد

إذا كان هذا الامير قد بدا لطيفا الى حد ما ازاء الاسرى المسيحيين في

بداية دولته، فإنه صار بعد ذلك قاسيا جدا للسبب الاتي

إن الجنود المقيمين في المواقع المحتلة من طرف ملك اسبانيا على شواطىء مملكة فاس، الذين كانوا يعاملون بقساوة فظيعة، جاؤوا أفواجا مستسلمين لمولاي رشيد. وما كادوا يصلون الى فاس، حتى تسببوا في اضطرابات كثيرة غيرت على الفور نظرة الملك اليهم، وحولت اللطف الذي كان قد أبداه من قبل لجميع الاسرى المسيحيين الى غضب وهيجان، بحيث إنه أمر ابن اسلامي اسباني يدعى رضوان، أن يقيدهم جميعا بالسلاسل ويعين لهم حراسا لا يتركونهم يذهبون الى أي مكان، وإنما يشغلونهم على الدوام. وهكذا فإنهم تلقوا بصفة عامة العقوبة التي استحقها بعضهم، وذلك ما يحدث عادة في هذه البلاد.

محنة دون فرانسيسكو كريون

لقد اتهم يوما شابا اسبانيا، اسمه فرانسيسكو كريون، بارتكاب خطإ طفيف الى حد ما، ورغم جميع الاسباب التي قدمها الأسير لتبرير عمله، فان الملك أمر بتطويفه عبر جميع أزقة فاس بكيفية مخجلة متعرضا لسخرية الاطفال الذين كانوا يتبارون في نخسه بقصبات حادة، فتحمل ذلك بثقة مسيحية حقيقية، وحمل شبه ميت وطريح أمام باب القصر، فأمر الملك الجزارين بقتله، وحمل رأسه اليه ليراه، ومزقت جثته الى أربع عشرة قطعة، ثم القي به الى الكلاب.

وفي مرة أخرى، التمس منه أهل مدينة تطوان أن يخلص من سجن الاشغال الشاقة بجنوة أحد أشهر قراصنتهم يدعى السيد ابن حدو، فبعث اليهم يهوديا يقترح عليهم استبداله بجميع مواطنيهم الاسرى المعتقلين في مملكته. لكن الجنويين، الذين كانوا يعلمون جيدا أنهم كانوا قليلين جدا. طلبوا منه أن يرسل إليهم كلبا مقابل اطلاق سراح القرصان، مظهرين بذلك أنهم لا يعتبرون مسلما أكثر من كلب.

أثار ذلك التصرف غضب الملك، الى درجة أنه أقسم ألا يحرر أي مسيحي اطلاقا، مهما كان الثمن. وبعث في الحين بأمره الى سكان سلا وتطوان باستئناف غاراتهم البحرية على المسيحيين بأكثر ما يمكن من الحدة والحمية.

وأمر بصنع سفينتين لنفس الغرض، كما أمر عاملي هاتين المدينتين بأن يرسلا إليه بفاس جميع رياس السفن وضباطها مع أهم المسافرين والتجار الذين سيأسرونهم، حتى يتركهم يموتون في سجونه بفاس في الاشغال التي ينوي استخدامهم فيها.

كيف هم مولاي رشيد باحراق عبيده

وبعد ذلك بقليل هم مولاي رشيد باحراق عبيده، وقد وقع ذلك بسبب ما يلي :

تقدم اليه ذات يوم مغربي، يطلب منه الصدقة، قائلا انه عبد مسكين، هرب من يد المسيحيين، وقاسي باسبانيا، التي أقام بها طويلا أصنافا لا تحصى من التعسفات اخترعها لاثارة غضبه. تأثر الملك لتلك الاضطهادات وصاح قائلا «أيجوز أن يعامل إخواني هكذا بأوروبا، ويكون هؤلاء الكلاب المسيحيون في عيشة راضية معي الى هذا الحد ؟» فأجاب ذلك الرجل الشرير «ان ما أقوله حق، حتى انهم لما كانوا يعرفون أيضا أننا نكره لحم الخنزير الذي يحرمه ديننا، فإنهم يكرهوننا على أكله وشرب لبنه والنوم في حظيرة هذه الحيوانات. صدق الملك بسهولة هذا الكلام، وفي غمرة غضبه استدعى حرسه السود وأمرهم بحشد جميع العبيد في ساحة كبيرة خلف قصره تسمى المشور، وبأن يحمّلوا كلهم بالحطب قبل أن يساقوا الى هذا المكان. رأى جميع هؤلاء الضحايا الابرياء أنفسهم مجمعين هنا ومشدودين بالوثاق مثنى مثنى، والنار توشك ان تضرم في الحطب الذي حملوه، لم يكونوا ينتظرون الا اللحظة التي سيمرون فيها من هذه الحياة المملة الى أخرى أسعد منها ممجدين الله الذي يناديهم في ذلك اليوم الى تاج الاستشهاد. بينما كان بعضهم، وهم الاكثر تمسكا بالحياة، وان كانت عيشة ضنكا تعسة، يتأسفون على موتهم وهم في عنفوان الشباب. ولكنهم رغم ذلك، لايمانهم بالقضاء الرباني، صمموا على احتمال الموت من أجل دينهم. وكنت ترى شيوخا وقورين يشجعون هؤلاء الشبان، مبينين لهم ما قاساه المسيح من أجلنا، وضاربين لهم كذلك المثل بعدد لا يحصى من شهداء القديسين لتقويتهم. ولما طال انتظارهم للقرار القاسي لاعدامهم، انقذهم

الله منه بالوسيلة التالية : ان شريفا، أو أميرا مغربيا، عندما سمع بهذا الخبر ذهب عند الملك في قصره ليبين له أن الامر بهذا الاعدام ظلم وبغي، وأنه قضى أكثر من عشرين سنة أسيرا باسبانيا، دون أن يتعرض لاي معاملة تعسفية، بل بالعكس رأى العديد من المسلمين هناك يعتبرون أن اعتقالهم مما يمكن احتماله بسهولة، وانه، اذا اراد حججا أوضح، فليتعرف على جميع الذين كانوا مقيمين هناك حتى يتضح له مكر ذلك الرجل الذي لم يقصد سوى أن يسلبه أكبر مبلغ من المال. اطمأن الملك لهذا الكلام قليلا، وأمر في نفس الوقت بأن يبحث عن ذلك المشعوذ لمقابلته مع الشريف. لكن كان من المستحيل العثور عليه، رغم المجهودات المبذولة. ولم يفت الملك أن يحضر جميع الذين أقاموا باسبانيا ليسألهم عن الكيفية التي عوملوا بها، فأكدوا له صحة تقرير الشريف، حتى انه اعترف باستسلامه السريع للغضب، بعد أن جعل يفتح عينيه. لذلك أمر فورا برد المسيحيين إلى أماكنهم وبدأ أسرهم يتحسن قليلا منذ ذلك الحين.

موت دون بيدرو لوبيس في يناير 1671

لا شيء يستحق الذكر أكثر في شدة مولاي رشيد من الميتة المفجعة والمجيدة لفارس اسباني يدعى دُن بيدرو لوبيس. كان قائدا عاما لفرسان مليلية مركز السلاح، التي يحتلها الملك الكاثوليكي على حدود قلعية الواقعة عند مصب نهر ملوية الفاصل بين مملكتي فاس وتلمسان. ولما كان هذا القائد في أغلب الاحيان يشن الغارات على بربر ذلك الاقليم ويأسرهم جماعات، فانه ارغمهم على الانسحاب الى قمم الجبال ليكونوا في مأمن، لكنهم نصبوا له في الأخير كمينا، بمساعدة اهل الريف، وهو اقليم مجاور، وأسروه مع أخيه الذي كان خليفته، بعد أن بالغا المجهود في الدفاع بشجاعة مدة طويلة. وكان في استطاعته ان يفر لو أراد ذلك، كما فعل كثير من رجاله الذين ارتقوا بمزية، لكنه لم ير ترك اخيه الذي كان جريحا، ويحبه أكثر من نفسه. أراد البربر أن يفتكوا به للاخذ بثأرهم، لكن عامل الريف أوقفهم. ونظرا إلى إعجابه بدون بيدرو، أواه في خيمته وأمر أن تضمد جروح أخيه بكامل العناية. ومنذ يوم الغد، سار بهما في طريق فاس ليقدمهما الى الملك.

أظهر مولاي الرشيد سرورا كبيرا بوجود ذلك القائد الذائع الصيت تحت سلطته. وبدأ يقدره الى درجة أنه قدم اليه عدة عروض لطيفة، ووعده حتى أن يتبناه ان قبل تبديل دينه. لكن، بعد أن أبقاه أياما كثيرة ورأى أنه لا يستطيع التغلب على فكره، أرسله الى سجن الاسرى ليشتغل في الاعمال العادية، على أمل أن يمل ويغير لهجته، الا ان آلام الاسترقاق لم تزده الا تشبثا بدينه وصبرا على بلائه. تظاهر الملك بتقدير شجاعته، وبعد أن أبدى امارات جديدة لعطفه عليه، عينه قائدا لجميع الاسرى، وهي مهمة لم يستطع دون بيدرو الامتناع عن قبولها.

لقد اعطى دون بيدرو، خلال مدة أسره التي دامت ست سنوات، أمثلة عديدة للكرم والاحسان، ونظرا الى أن المال لم يعوزه اطلاقا، اما باستلامه من الملك أو من بيته، فانه كان يوفر الثياب لأفقر الاسرى، وكانت صدقاته سرية الى درجة ان من كان يقبضها لم يكن يعرف مصدرها طوال عدة أيام أحيانا. وكان هو وأخوه يغيثان العجزة باحسان عجيب، لانهما لا يدخران اي شيء من مالهما لمواساتهم. لكنه تأثر لفقد أخيه من جراء مرض أليم أكثر من تأثره بجميع آلام الاسترقاق.

وفي نفس الوقت، خشي البربر أن يسترجع هذا الأسير حريته ويسيء إليهم في يوم من الايام أكثر من ذي قبل، فأرسلوا الى الملك يلتمسون منه أن يسلمه اليهم مقابل مبلغ هام من المال. فاستغرب الملك من خوفهم، ومن كون ذلك الرجل وحده يثير فيهم الرعب أكثر من اسبانيا كلها. إلا أنه رغبة في طمأنينتهم وعدهم بازالة قلقهم وأنهم سيرون عما قليل لوبيس ميتا أو معتنقا للاسلام. ومنذ ذلك الوقت، لم يعد ينتظر سوى فرصة سانحة لتنفيذ خطته مع التظاهر أكثر ما يمكن بالعدل.

ولما صادف الملك يوما أحد حرس مخازنه سكران بماء الحياة، أرسل في الحين الى أخيه مولاي اسماعيل يأمره بالذهاب الى سجننا لمعاقبة الاثني عشر أسيراً الأولين الذين سيجدهم فيه وأن يأتي بهم اليه مصحوبين بلوبيس. قام الامير بما أمر به، وبعد أن انهال بالضرب على من وقع تحت يده، سلمهم الى حرس ليسوقوهم معه الى القصر. وعندما وصل قال له مولاي رشيد إنه سيقتل لوبيس إن تقدم أمامه كمسيحي. وكان الامير يحبه فخرج الى باب القصر ليخبر

ذلك النبيل. الا أن هذا الاخير، وقد أقصى عنه كل خوف، رفع عينيه الى السماء، متوسلا الى الله والى سيدتنا حامية أسرى افريقيا، واكتفى بأن شكر الامير بانحناء كبير، ثم تابع سيره دون أن ينصت اليه اكثر، على رأس أصحابه. وبمجرد ما رأى الملك أولئك المشوهين المساكين الذين لا يكادون يطيقون المشي بسبب ما تلقوه من الضرب، زأر كالاسد، وأمر بربطهم الى أشجار البرتقال التي كانت في فناء القصر، باستثناء لوبيس الذي ناداه. ولما علم من أخيه أنه لا ينوي العدول عن دينه، سأله لماذا يسمح للاسرى، وقد منحه السلطة عليهم جميعا، بأن يبيعوا ماء الحياة للمغاربة. عندئذ ودون أن ينتظر جوابه، انهال عليه بعدة ضربات بسيف ضلع، فأراده قتيلا عند رجليه، وتوجه بعد ذلك نحو الآخرين ليشفي غضبه وحمل عليهم بشدة حتى كاد يمزقهم سريعا لولا أن منعه صهره الشيخ اللواتي الذي كان أعز عنده من غيره، والذي علم بالخبر فجاء يعانقه وينزع السيف من يديه، مبينا له أن صدى هذا التقتيل، اذا بلغ الاسبانيين الذين يعتقلون ثلاثين مغربيا مقابل كل مسيحي أسير في بلاد البربر، لن يفوتهم أن يعاملوهم عما قريب بما عومل به لوبيس وأصحابه.

هدأ غضب الملك بهذا الكلام، وأمكن دفن لوبيس في مقبرة المسيحيين، ورجوع أصحابه مع الآخرين لتضمد جروحهم الخطيرة لدرجة أن كثيرين منهم ماتوا من جرائها بعد أيام قلائل.

رحلة الملك الى سلا

وبعد خمسة عشر يوما من هذا الحدث، ذهب مولاي رشيد ليزور مدينته سلا، ويقضي بها شهر رمضان أو الصيام. ولما لاحظ عند وصوله العديد من الشبان المسيحيين في الازقة، أمر أحمد بنينكور، عامل المدينة انذاك، وسيدي، أن يحضرهم اليه. ولما رآهم الملك في حالة حسنة، وعددهم تسعة عشر، أرسلهم بعد أيام الى فاس، وامر باعتقالهم الى حين عودته. فحبسوا في القصر بعناية كبيرة، ونفذت أوامره بدقة، حتى إن أي أسير لم يقدر أن يتكلم معهم أصلا. وعند انتهاء رمضان عاد الملك الى فاس ليحتفل فيها بعيد الفطر. وفي يوم العيد، أحضرهم جميعا بين يديه وحدثهم عن مزايا دينه وقال لهم انهم سيكونون ملعونين

لا محالة ان امتنعوا عن اتباع شريعة محمد (عليه السلام) ووعدهم بعد ذلك أنهم، عندما يتعلمون القرآن واللغة العربية جيدا، سيعينهم جميعا عمالا للمدن وقادة للجنود وأنه سيحسن تزويجهم، ويكسوهم ثيابا فاخرة ويعطيهم جيادا وذهبا وفضة وكل ما يريدون. وبالتالي سيعاملهم كأبنائه الذين هم من صلبه. استمع اولائك الشبان، الذين كانوا كلهم تقريبا خدما وغلمانا يعملون في السفن وبالتالي كانوا قليلي الاطلاع على الدين الكاثوليكي، بل جلهم زنادقة، استجابوا الى هذا الامير، وأسلموا جميعا ما عدا اثنين منهم.

أمر الملك في الحين بالباسهم ثيابا فاخرة واعطى كل واحد منهم سيفا ضلعا وفرسا، وطافوا بهم في هذا الزي على جميع المساجد مصحوبين بأعيان المملكة تتبعهم الموسيقى وجميع فرنسان الملك، الذين كانوا يسيرون وأعلامهم منشورة.

كانت جميع الجماهير المحتشدة في الطرق والأزقة لمشاهدة هؤلاء المسلمين الجدد، يهنئونهم ويباركون لهم. وأعد لهم الملك في قصره مأدبة فاخرة لضيافتهم، وأشركهم في الاكل على مائدته وخدمهم أكبر الامراء. ثم اعطاهم مبلغا من المال وزوّج بأبهة من كان منهم في سن الزواج، بعد أن برئوا من الختان. لكن حظهم لم يدم طويلا، اذ رأينا جل أولئك الاسلاميين يموتون وهم فقراء في دولة الملك الحاكم الآن.

وأما الاثنان اللذان امتنعا من مفارقة دينهما، أحدهما انجليزي بدعي[1] والاخر فرنسي كاثوليكي من مواليد مدينة دييب، كان قد أبحر معنا ليتعلم الملاحة، فان الملك استعمل ضدهما كل ما أملاه عليه غضبه. ولما رأى عدم تأثير كل ذلك في شجاعتهما، أرسلهما ليشتغلا في اصطبله، وأمر القائد أو المكلف بالخيل ألا يترك لهما أية راحة. لكن اشغال الاصطبل لم تلبث أن تسببت لهما في مرض خطير، لذلك أرسلهما الملك الى السجن مع سائر الأسرى، ولم يفكر فيهما بعد ذلك، وقضيا ما تبقى من أسرهم بشيء من اللين، حتى استرجعا حريتهما سنة 1676. وعلمت أن بيير سيفو الفرنسي قدم الى باريس ليشكر رهبان لامرسي على الاجراءات التي قاموا بها لافتدائه.

لم يكتف ذلك العدو اللذوذ للمسيحيين بتعذيب الرجال الذين يمتنعون من

---

(1) في نظر المؤلف الكاثوليكي كل البروتستانيين بدعيون مارقون .

التنكر لديانتهم بل كان العديد من الفتيات والنساء اللاتي أسرن للاسف في البحر أو في منازلهن ذاتها على شواطىء اسبانيا والبرتغال، محبوسات في حريمه، حيث كن يستخدمن في أرذل الاشغال تحت سلطة جلادات زنجيات ينيف عددهن على ألف. وهن إماء الملكات، كما أن الزنوج هم عبيد الملك. كان على أولائك الأسيرات أن يخدمن جميع النساء، وقد أمر الملك أن يعاملن معاملة سيئة ان لم يستطعن القيام بكل ما يؤمرن به. وعندما كن يشتكين اليه بالمعاملة السيئة، لم يكن يقول لهن سوى انهن ان أردن التخلص من تلك المحن، فما عليهن إلا ان يعتنقن الاسلام. وكان يعد الجميلات منهن اللائي يستهوينه بأنه سيغمرهن مالا إن أسلمن، ويجعلهن في عداد حظاياه. الا انه لم تقتنع أية واحدة بتلك الوسيلة وفضلن العذاب مع المحافظة على دينهن على كسب المال والتمتع بجميع ألوان الملذات مع اعتناق الديانة المحمدية.

الفصل الخامس
في المحن والاشغال التي قاسيناها بمكناس التي جدد الملك بناءها ليقيم بها بلاطه

عندما منح مولاي رشيد مكناس لاخيه مولاي اسماعيل اقطاعا له، كان هذا الامير الشاب كثيرا ما يقضي فيها اقامته العادية، ولو أنه كان يملك بفاس الجديد أجمل قصر في المدينة، ومع ذلك فانه عندما بويع ملكا استهوته هذه المدينة الواقعة في سهل جميل مغطى بعدد من أشجار الزيتون، وأوحت اليه بنقل بلاطه اليها. ولكن بما أنها لم تكن تحتوي الا على بنايات قديمة، فانه اراد أن يجددها قبل ان ينتقل اليها، وأمر بارسال الاسرى اليها ليشتغلوا فيها، بعد أن أنهى بفاس الاعمال التي كان قد بدأها. وعند قدومنا، تلقانا بباب القصر اسود طويل القامة، مرعب النظر، صوته يشبه هدير سيربيروس (ذي الثلاثة رؤوس) يحمل بيده عصا تناسب طوله وضخامته، فاستقبلنا بتحية من الضرب لم يعف منها أي واحد من الجماعة. ثم ذهب بنا الى المخازن لنختار معاول ذات أوزان خارقة للعادة. وبعد أن أعطى كل واحد منا معولا، قادنا الى أسوار قديمة لهدمها.

كان ذلك هو اول عملنا الذي يستمر من طلوع الفجر الى سواد الليل. واذا

توقفنا عنه تلقينا جزاءه فورا. لم يكن ذلك الاسود يمهلنا حتى الوقت لتناول الطعام ولا يغادر الأشغال ابدا الا وترك من يخلفه في المكان. ولم تكن هذه الاستنابة الا لتضربنا، اذ ان هؤلاء النواب الجدد لا يكتفون بسوء معاملتنا، ولكن كانوا يخبرونه، عند ايابه، بالذين لم يشتغلوا كما ارادوا. وتبعا لتقريرهم، كان يضاعف ضربهم، حريصا على اصابة المواضع المتأثرة أكثر من الجسم، وحيث يظن أنه يؤلم أكثر. كان الرأس هو المكان المفضل للضرب عنده، واذا هشم رأسا تظاهر بالجرّاح المشفق وألصق الجير الساخن عليه، من اجل ايقاف الدم المنبثق منه. واذا رأى احدا لم يعد يستطيع المشي من كثرة الضرب الذي تلقاه، كان عنده سر رهيب لاعطائه وسيلة لذلك، وهو مضاعفة الضرب حتى ينسي الأخير الأول.

وذات يوم، جاء الملك لافتتاح أسس الحريم، فجثا بعض الأسرى بين رجليه وهم ما يزالون ملطخين بدم جروحهم وقدموا اليه شكواهم بأرق كيفية يمكن ان تثير شفقته، فنظر اليهم جيدا، لكنه لم يأتنا بأي انفراج.

صار ذلك الاسود الجلاد أقسى من ذي قبل، بعد خروج الملك في حركة استغرقت ثلاث سنوات لمحاربة ابن اخيه مولاي أحمد، الذي بويع ملكا على مراكش. وازداد غضب الاسود ولم يهدأ حتى أرسل حوالي عشرين أسيرا الى القبر. ولم يكن يسمع كل ليلة في حبسنا الا صيحات محزنة من جراء ما كنا نحس به من آلام ضرباته. وكان مجرد حضوره يجعلنا نرتعد، وأصبح صوته يجعلنا متعجلين مثابرين حتى اننا عندما كنا نسمعه يصيح صباحا عند الباب «ايوا يالله، اخرجوا !» كان كل واحد يسرع ليكون أول الخارجين، لأن الأخيرين كانوا دائما يتلقون ضرباته. ولما رأينا أنفسنا قد وصلنا الى هذا الحد من القسوة عزمنا على التخلص منه ولو بالمخاطرة بحياتنا. وبما أنه كان متعودا أن يجيء ليلا الى مأوانا ليعربد بماء الحياة على حسابنا، فاننا عزمنا على التخلص منه اول ليلة يجيء فيها وحده. ولكن عندما كان لابد من القيام بالتنفيذ لم يوجد أحد يريد أن يضرب هو الاول، ومع ذلك، تهيأنا للتنفيذ، وكان الاسبانيون، هم أول من طلبوا من الاجناس الآخرين أن يتناولوا سكاكين لتمزيقه. وحيث إنه كان يفهم لغتهم بعض الشيء فانه استل خنجره وفر ولم يعد بعد قط ليلا. ولما فشلت هذه الوسيلة بحثنا عن أخرى، وهي تهييء الزرنيخ

لاعطائه اياه مع ماء الحياة. لم نعلم هل أخبر بذلك، لكنه منذ ذلك الحين لم يعد يتناول شربه قبل أن يجربه فيمن يناوله اياه.

لم يكن لهذه الاعتداءات على حياته من أثر إلاّ أن جعلت منه عدوا أكبر لنا. وضاعفت من تعسفاته إضافة الى أنه كان يطالب بها من طرف رئيس الاشغال ويجازى عنها من طرف عامل الموقع الذين كانا يرغبان في أن تتقدم الاعمال.

قدمنا شكاية الى الملك الذي كان اذ ذاك في مملكة مراكش، بواسطة رسالة. وحتى يتسلمها بيده بعثنا بها عن طريق بريد سريع مع المسيحيين المدربين بالمدفعية الذين سلموها له. لم يكن لها كبير تأثير، وان كنا بعد عودته مازلنا نطالب بالحق حتى وعدنا بأخذه لنا. كانت محاولتنا باطلة، إذ أنه بالعكس قتل بيده بعد بضعة ايام شابا اسبانيا اسمه بارطولي تيو. كان قد عينه رئيس اعوان الاصطبل، لانه لم يناوله في الحين دلو ماء طلبه من احد اصحابه، فقطع رأسه.

طاعون سنة 1679

اذا كان الملك لم يرد أن ينتقم من أسودنا، فان الله فعل ذلك بعد قليل، وخلصنا منه بسبب الطاعون الذي سلطه على البلاد كلها، والذي بدأ عام 1678، وأهلك نصف أولئك البرابرة .

لم ينج بعضنا أيضا من ذلك الداء وأصيب من بين المائتي أسير نحو خمسين لم ينج منهم الا الثلث. ذلك أننا وان كنا محبوسين جميعا فإن الآخرين لم يصابوا بأي أذى، خلافا للمرض اذا دخل دار مغربي فانه لا يبقى فيها احدا. وهذا دليل قاطع على اللطف الرباني بالمومنين به. ضاعفنا في ذلك الوقت اذكارنا العادية. وبدلا من القسم الثالث من الورد الذي كان من عادتنا تلاوته لدى عودتنا من الأشغال أخذنا نتلوه كله طوال ثمانية أيام. بالاضافة الى تسبيحة «نجم السماء..» وتسبيحتي سان روك وسان سيباستيان اللتين واصلنا ترتيلهما طوال فترة العدوى التي دامت ثلاث سنوات. وخلال السنة الاولى من ذلك الوباء، انتخبت امين الجمعية الدينية التي انشئت تحت اسم «سيدتنا للرحمة».

إنشاء جمعية لاسعاف المرضى

كان الغرض من هذه الجمعية اسعاف المرضى. وكان المال يجبى إليها من واجب يستخلص عن كل مرجل من مراجل ماء الحياة التي كنا نصنعها ونبيعها سريا الى المغاربة، ومن التبرعات التي كان الزملاء يجمعونها كل مساء بالتناوب في المربط أو في البيت بعد الصلاة. كما أن أنوار معبدنا ينفق عليها من دخل هذه الجمعية التي كانت مؤلفة من أمين صندوق، وكاتب، واثني عشر عضوا يجددون كل سنة، وامين الصندوق يقدم الحساب لخلفه. بدأت هذه الجمعية الدينية تعمل في دولة مولاي رشيد، على الشكل الاتي :

عندما جاء ذلك الامير يوما ليرى هدم الاسوار القديمة، تعجب من كون المسيحيين يتابعون العمل ببطء كبير، فسأل من كان معه عن السبب فقال له القائد زيدان ان المسيحيين تعودوا في بلادهم على شرب الخمر وماء الحياة. وبما أنهم الآن لا يشربون إلا الماء، ولا يأكلون الا الخبز، ارتخت أعضاؤهم وأصبحوا غير قادرين على القيام بعمل شاق. فاذا أراد أن تسره رؤيتهم وهم يعملون جيدا، فما عليه الا أن يأمر باعطائهم ملء ثلاث أو اربع طاسات من الخمر لكل واحد، وسيرى أنهم جميعا يعملون بكيفية أخرى. بدأ الملك يضحك وأرسل في طلب شيخ اليهود وأمره باحضار أربع جرات كبيرات من الخمر. وبعد ان وزعت على الأسرى ذهب الملك يتفسح. ولما رجع اندهش لرؤية المسيحيين تقدموا في العمل اثناء الساعتين اللتين قضوهما قبل عودته أكثر مما عملوه طيلة ثلاثة أرباع النهار.

لذلك امر الملك اليهود بتزويد المسيحيين كل أسبوع بعشرة قناطير من الزبيب ومثلها من التين ليصنعوا ماء الحياة،إلا أنه حظر عليهم بيعها او إعطائها للمسلمين، تحت طائلة عقوبات شديدة. كان ذلك هو الوقت الذي عين فيه دون بيدرو رئيسا للاسرى، وقتله بدعوى انهم خالفوا أوامره.

امتثل اليهود أوامر الملك طالما بقي بفاس، لكنه بمجرد ما خرج في حركة تخلوا عنها، وأعطوا رضوان، قائد المسيحيين، مبلغا من المال. وبالرغم من ذلك فان بعض قواد الأسرى الفرنسيين والانجليزيين ودَن بيدرو لوبيس، بعد ان أعطوا المال لشراء الزبيب والتين، توبع صنع ماء الحياة، بانتداب عدد من الاشخاص

لذلك. وسمح كل من الحرس ورضوان ببيعه للمسلمين مقابل مبلغ من المال بالرغم على نهي الملك. ولما كان الربح المحصل عليه من ذلك عظيما فقد انشئت الجمعية التي ذكرت آنفا. ولتكثير عدد افرادها فان الاسبانيين الذين كانوا يفوقون الآخرين عددا ويدبرون كل شيء، احدثوا طاولة للعبة النرد واخرى للعب الورق اثناء الليل، وفرضوا على الرابحين دفع العشر الى الجمعية، فاستفاد المعطوبون، منذ ذلك الوقت، اسعافات كبيرة اضافة الى ما حصلوا عليه بعد قليل بواسطة راهب ارسلته اليهم العناية الربانية بالمناسبة التالية.

هدية الى مولاي رشيد
من الرهبان المتأملين بمراكش

قام ذات يوم بعض الرهبان المتأملين (اتباع القديس فرنسيس) المقيمين بمراكش من طرف ملوك البرتغال وذهبوا الى مولاي رشيد للسلام عليه عندما كان في هذه المدينة. وقدموا اليه آلة أرغن صغير متنقل. فتسلمه الملك من غير أن يتحقق ما هو. ولما عاد الى فاس، أراد أن يطلع على تلك الهدية. وبعد أن اكتشف بأنها أرغن ولم يجد احدا يحسن العزف عليه، طلب من نبيل اسباني أسير يدعى دُن رافاييل دي سيراس ان كان له المام بهذه الالة لانه كان يعزف جيدا على القيثار والعود. فأجابه بالنفي وانه لا يحسن العزف عليه في بلاده سوى رجال الكنيسة. وعندما سمع بعضُ حرس الملك الذين وفدوا منذ بضعة أيام من تطوان كلمة رجال الكنيسة قالوا انهم رأوا فيها راهبا اسيرا. ودون مزيد انتظار، أمرهم مولاي رشيد بالانصراف فورا ليأتوا به. وعادوا بعد ثمانية أيام مع الأب گريگوار ريبِّير، وهو راهب فرنسيسكاني. فسأله الملك هل يحسن العزف على الارغن ؟ ولما اجابه الاب بالنفي، ارسله ليشتغل مع الاخرين بسلسلة غليظة أمر بوضعها في رجله. ولما خرج الملك الى الحركة أعفي الراهب من ذلك العمل مقابل ريالين كانا يعطيان كل شهر لرضوان. أخذ گريگوار يتلو القداس كل ليلة، ووجد الذين أرادوا ان يعيشوا مسيحيين مخلصين الوسيلة للاعتراف بذنوبهم وبقي اسيرا حتى سنة 1674، وهو تأريخ قدوم رهبان مِرسي الى سلا. فأدوا قسطا من فديته التي كانت عظيمة جدا، بينما أرسل ديره باقي الفدية. وقبل ان يحرر گريگوار بسنتين، جاء الرهبان المتأملون من مراكش الى فاس ليقيموا

في حبسنا. وخدمنا أحدهم بمكناس، عندما نقلونا اليها. وبقي الامر هكذا حتى عام 1676، حيث قام مقامهم رهبان الثالوث الاقدس القادمون من مدريد. فعاد المتأملون الى اسبانيا، واختلوا منذ ذلك العهد في ألمين سبتة. وهكذا، منذ قدوم الاب گريگوار، الى وقت انصرافي عام 1681، لم نفتقد قط رهبانا لتقديم الاسرار الدينية.

استيلاء الملك على أسرى الخواص بسلا وتطوان

وفي شهر ماي من عام 1678. خرج الملك مع زوجته وأولاده الى الجبال العالية المحيطة بنهر ملوية، التي تشكل قسما من الاطلس، فرارا من العدوى. وهناك قرر أخذ جميع أسرى الخواص، لما سمع بقرب قدوم الرهبان لافتدائهم . وبالفعل اخذ منهم زهاء مائتي أسير، استعملهم في خدمة خيامه واصطبله ومدافعه. كما استعملهم كرواد في غالب الاحيان لتحطيم معاقل البربر التي كان يستعد لاخذها. ولما قرب ذات يوم من جبل أطاطا (وهو من اعلى جبال الاطلس) أرسل في طلب اربعين مسيحيا كانوا مكلفين بالخيام لاعدامهم، ومن جملتهم ابن عمي كلود لوايي لاكارد، لان خيمته العادية لم تنصب كالمعتاد. كان هؤلاء قد وصلوا الى مكان الاعدام، والزنوج يعمرون بندقياتهم استعدادا لاطلاق النار، اذا ببعض القواد يجثون بين قدمي الملك طالبين العفو عنهم. أمر الملك باحضارهم، ولكي يطفىء غضبه - ان صح التعبير - تناول مطرقة تستعمل لغرز أوتاد خيامه، وأصابهم كلهم بجروح في رأسهم وفي عدة مواضع من جسمهم. وتفادى ابن عمي الضرب باقترابه من اسير ملطخ كله بالدم غمس فيه يديه ولوث به وجهه، بحيث ان الملك لم يمسسه عندما راه مطليا بالدم. وبعد ذلك ارسل الملك اولائك المسيحيين الاربعين والآخرين الذين أخذهم من الخواص الى تجار فاس البالي، الذين أبقوهم عندهم سنة، أذاقوهم خلالها ألوانا من العذاب. وحيث ان معظم هؤلاء التجار كانوا من اليهود الاسلاميين، فانهم لم يفتهم اي نكال لم يخترعوه لايلام المسيحيين. ثم ان مولاي اسماعيل سار في الطريق، عائدا الى فاس، ثم الى مكناس. وعرج على مراكش، لكن لم يدخلها بسبب الطاعون الذي افنى جل سكانها، وكانت اجمل مدن جميع هذه المناطق واكبرها. وان لم اكن زرتها، فقد وصفها لي اشخاص ثقات وكذلك سائر المملكة كما سأثبته فيما يلي.

وصـف مراكـش

ان مدينة مراكش، التي تسمى بها المملكة كلها مثل مملكة فاس، واقعة في سهل كبير مغطى بنخيل ينتج تمرا ممتازا جدا. ويعتقد المغاربة ان مؤسسها هو مولاي يعقوب المنصور أمير المومنين ملك اليمن وفاتح اسبانيا بواسطة خلفائه[1] . نطاقها أكبر من نطاق فاس بنسبة الثلثين، وفيها ستة عشر بابا. لكنها ليست آهلة بما يناسب كبرها، بسبب الحرب والطاعون الذي أهلك أكبر قسم من سكانها. وهناك قصر جميل يحتوي على مساكن نساء الملك، وهو أفخم ما في افريقيا بأسرها. خصص له مولاي أحمد الذهبي كل ما كان يملك من ذهب. جعله صفائح تغطي جميع جدران القاعات، وحائطياتها. ان المسامير والمحاور والمساحيق والمزالج والاقفال كلها من الفضة المموهة بالذهب، وفي أعلى البرج الكبير ثلاث تفاحات من ذهب في غاية الضخامة، مثقبة في عدة مواضع بطلقات بندقيات، تعتبر مرصودة. وفي مساكن الحريم قاعات طويلة فسيحة حتى إنها تتسع لأحواض كبيرة من الماء الصافي المليء بالاسماك، يمكن رؤيتها كذلك وهي تسبح في مرايا كبيرة مركبة في سقف القاعة

وفي احدى تلك القاعات مثلت جميع بروج السماء بمهارة حتى ليتوهم المرء انه يرى القبة الزرقاء. ويعتقد المغاربة أن الله قضى على مولاي أحمد، صانع ذلك العمل، بعذاب الجحيم الى يوم القيامة، لكونه أراد ان يقلده في هيئة السماء. وذلك القصر البديع مزدان بكمية من السواري واحواض المرمر الابيض، مع عدة زخارف جميلة من الجبس، ومربعات صغيرة مصبوغة ومنقوشة بالمطرقة. وقد اضيف الى القصر اجمل بساتين الدنيا، بممرات من شجر البرتقال والسرو، وتحيط بكل من الصرح والقصر والبساتين اسوار جيدة محصنة ببروج جميلة وقلاع لكن بدون مدفعية. وتمر تلك القنوات الشهيرة التي تحمل الماء الى المدينة من مسيرة يوم كامل بجانب ذلك الصرح لتزوده بالماء كما تزود المدينة بأسرها.

لا تتكون هذه المملكة إلا من خمسة أقاليم، هي مراكش، وتادلا، ودكالة، وحاحة وقسم من جبال الاطلس. هذه البلاد غنية بالحبوب والمواشي، وأكثر حرارة

---

(1) هذا من الخلط الفاحش عند المؤلف بين الاشخاص والاماكن واحداث تاريخ الاسلام. ومن المعلوم أن تاسيس مراكش كان على يد يوسف بن تاشفين عام 1062/454 .

من مملكة فاس، لتوغلها أكثر في الجنوب. ومدنها، فضلا عن مراكش، هي ازمور والوليدية، وأسفي. وهناك عدة حصون يعيش فيها الاعراب مجتمعين، كما يفعل البربر في أماكن اخرى. ان نهري كودث يستقبلان في مجاريهما وادي راس العين والواديين المارين شمال شرق مراكش، مع واد نفيس ومال، ولكيرة ومسناس، التي تصب في النهر الاول. واما اودية فشتالة او تادلا، وتساوت، ودرنة، وأومانة، وواد العبيد وسرو فانها تصب في الثاني[2]

يحتل البرتغاليون على شواطىء هذه المملكة مدينة مازغان أو البريجة، التي لا تبعد عن أزمور الا بفرسخين.

وصـف سـوس

كانت امارة سوس في القديم تابعة لنفس المملكة (مراكش)، التي لا يفصلها عنها الا سلسلة طويلة من الجبال الممتدة من ساحل البحر الى تخوم الاطلس[3] ويحدها اقليم درعة من الجنوب الشرقي، ومملكة السودان من الجنوب الشرقي/جنوب غربي، والبحر من الغرب والشمال الغربي، ومملكة مراكش من الشمال الى الشرق. وليس فيها سوى اقليمين هما سوس والساحل ومدنهما هي تارودانت واكادير وإغير او سانت كروا[4] واليغ التي كانت عاصمة البلاد لما كان سيدي علي[5] أميرها. اما الآن فالعاصمة تارودانت التي يقيم فيها عادة مولاي احمد بن محرز كأمير لها ان واد سوس الذي سميت به البلاد كلها لا يوجد معه إلا نهر اخر يدعى ماسة. ان منطقة سوس مليئة بقصبات جيدة، وسكانها مشهورون بأنهم جنود ممتازون وأكثر حذقا في استعمال الاسلحة من جميع المغاربة. وجبالها مليئة بالحبوب والثمار والشمع. وهناك مناجم غنية بالنحاس واخرى بالذهب، ولا ينقصها الا الصوف. ويوجد في تلك الجبال عدد كثير من

---

(2) معظم اسماء الاودية محرفة لم نهتد الى المراد بها فكتبناها كما وردت في النص الفرنسي. اما ما سماه بنهري كودث فالظاهر انه يقصد بالاول واد تنسيفت الذي يسقي حوز مراكش ويصب في المحيط بين اسفي والصويرة، ويقصد بالثاني واد ام الربيع الذي يصب بجوار مدينة ازمور

(3) من المعلوم ان الجبال الفاصلة بين اقليمي مراكش وسوس هي من الاطلس الكبير.

(4) أغير أو سانت كروا هو الاسم القديم لاكادير قبل ان تحرر وتجدد.

(5) يقصد الامير ابا حسون السملالي.

الاسد، تلتجىء ليلا في العُرُن ولا تخرج منها الا ليلا للبحث عن قوتها. ولما كان البربر يعرفون بالتقريب المواضع التي تمر منها فانهم ينصبون لها مصائد ليأخذوها حية، وذلك بالطريقة التالية:

كيفيـة اصطياد الاسـد

يحفرون مطمورة عميقة، ويضعون على فمها فخا مربوطا في محور يبقى دائما متأرجحا، ويضعون على ذلك المحور كبشا ميتا. فإذا نزل الأسد من الجبل، وشم رائحة اللحم، اقترب منه ليأكله. لكن عندما يضع رجليه الاماميتين على الفخ، ينقلب في المطمورة على رأسه. وتوجد بجانب تلك المطمورة، مطمورة اخرى مهيأة كخندق فيها صندوق كبير مصنوع على شكل مصيدة، وضع في داخله قطعة من لحم الضأن. وبما ان هناك اتصالا بين المطمورتين بواسطة ثقب أعد عمدا، فانه يوضع طرف ذلك الصندوق الذي يبقى مفتوحا دائما امام تلك الفتحة، حتى اذا جاع الاسد دخل فيه وسجن مثلما يسجن فأر في مصيدة. وتوجد كذلك حلقات كبيرة من حديد في جوانب الصندوق الاربعة لامساك الحبال التي يرفع بها الى الاعلى، وتوثيقه بعد ذلك فوق دابة، وحمله الى أول قائد ليتسلى بمشاهدة قتله. وان ارادوا قتلَه فورا، طعنوه بالرماح في المطمورة الاولى التي سقط فيها.

الفصـل السـادس
اضطهـاد القصــر

لما عاد الملك الى مكناس، ولاحظ أن عدوى الوباء مازالت منتشرة، خشي أن يفقد أسراه ومعهم الفديات التي كان يأمل الحصول عليها. فاستدعانا جميعا ذات يوم وقال لنا انه يريد أن يطلق سراح من يستطيعون ايجاد المال. وحيث انني علمت من الاب يوحنا مسيح مريم، الراهب الاسباني المقيم بين أظهرنا ان التاجر الفرنسي السيور ميسونيي المقيم بقادس (والذي يتجر بالقصر) قال له بأنه توصل من الدون بيدرو كاطلان، القنصل الفرنسي بقادس، بأمر ليدفع مبلغ

مائتي ريال، تفضل السيور كاطلان بتقديمها لفديتي. لذلك مثلت بين يدي الملك، مع خمسة وثلاثين آخرين، كان من بينهم ابن عمي. فوعده بعضهم بمائتي ريال، والبعض الاخر بثلاثمائة أو بثلاثمائة وخمسين. فأرسلنا الى القصر، عند عمرو حدو الحمياني عامل السلطان وخليفته بغرب افريقيا، للقيام بمهمة استلام المال منا. وصلنا اليه في 15 يونيو 1680 ولكن عمرو حدو، وقد اراد أن يستفيد منا، لم يقبل بتاتا أن يطلق سراحنا في مقابل المبالغ التي وعدنا بها الملك وطالب كل واحد منا بألف ريال. ولما رأى ذلك البربري امتناعنا من دفعها قيدنا بسلسلتين غليظتين، زنة كل واحدة منهما من ثمانية عشر الى عشرين رطلا، وربطنا مثنى بواسطة سلسلة أخرى. وأرسلنا على تلك الحالة نشتغل في مجار تحت الارض كان قد شرع فيها لتصريف كنف جميع المنازل الى النهر.

لم يكن يعطينا، خلال ما يقرب من ثلاثة أشهر، سوى أربع أواق من خبز الشعير لكل واحد منا أثناء أربع وعشرين ساعة. وكلف بنا اثنى عشر حارسا او بالاحرى جلادا، كانوا يوسعوننا ضربا ويقولون لنا من اجل التخفيف عنا إننا إن لم ندفع الألف ريال المطلوبة، سنهلك جميعنا على حالة يرثى لها تحت عصيهم. وبعد انتهاء المجاري، أمرونا بتنظيف جميع كُنف المدينة ومزابلها، كنا نحمل أقذارها في سلال من أسل، يسيل الكل من خلالها تقريبا ويتدفق علينا. كان حراسنا يلزموننا بالذهاب عاري الرؤوس في أغلب الاحيان، ولا يفتؤون ينهالون علينا ضربا بمجرد ما نتوقف عن العمل هنينة. وحتى لا يتركوا لنا أية فرصة للراحة، كانوا يبتعدون بعضهم عن بعض مسافة عشرين خطوة حاملين عصيا لدنة من عود شجر الرمان او السفرجل الذي هو جد ثقيل، يضربون بها سيقاننا وأكتافنا في كل لحظة. وقد فارق الحياة انجليزيان بعد بضعة ايام، وأصبح الباقون في أشقى حالة في الدنيا. وغالبا ما كان القائد عمرو يأتي ليشاهدنا ونحن نشتغل. واذا طلبنا منه الخبز قال لنا بلغته : «يا بني كلب، كلوا الحجر ! أنا ما نعطيكم شي الخبز. حتى انتما تعطيوني الف ريال».

وذات يوم، وقد بلغ بنا الجوع مداه، جثونا جميعا بين قدميه نسأله الخبز، او نزع أرواحنا اذا رفض. لكن الناطق بلساننا الذي كان اسبانيا، كسر رأسه بمجرفة بأمر من القائد، ولولا صهره حمادو الذي تشفع فيه لكان ذلك الشخص القاسي قضي عليه. كانوا في الليل ينزلوننا بسلم من الحبال في مطمورة

عميقة، حيث كنا نقاسي جميع انواع الانزعاج والضيق، ولم يكن لنا بها سوى عزاء واحد هو تمكننا من أن نشتكي بحرية. كانت عراقيبنا كلها مقطعة من ثقل السلاسل، ورأيت من كان لهم مثلي قدر أصبع من اللحم مخدوشا، لكن ذلك كله لم يثر فيهم أية شفقة.

قدوم مبعوثي فارس شاطو ـ رونو

وفي تلك الاثناء، وصل الى القصر مبعوثو فارس شاطو ـ رونو، رئيس أسطول جيوش الملك، ليفاوضوا في السلم. ولم يسمح لنا عمرو حدو قط أن نراهم، خشية ان نشتكي إليهم. ولم نتمكن من إطلاعهم على أخبارنا إلا بواسطة رسالة كتبتها أنا، وقامت أسيرة فرنسية كانت تعجن الخبز الذي يقدمه اليهود لأولئك المبعوثين، بوضع الرسالة داخل أحد الأرغفة. ولما فتحوا الرغيف وجدوا فيه تلك الرسالة التي أطلعتهم على الحالة السيئة التي نحن عليها. فاقترحوا أن يحرروا عددا مماثلا من المغاربة الذين أسروا من سلا في مقابل تحريرنا. وكانت المرأة المذكورة، واسمها جان سوليمو، قد أسرت مع زوجها الذي كان طبيبا جراحا يدعى يوحنا بريور على ظهر سفينة لا روشيل المدعوة صامويل، كانا قد ركباها سنة 1678، للتوجه الى جزر أمريكا. فبقيا بفاس أربع سنوات، نُقلا بعدها الى مكناس لمعالجة الأسرى المرضى لما ارسلنا الملك الى القصر. ورغبة في تحريرهما اقترحا دفع مبلغ ستمائة ريال لهما معا. ونظرا لعدم توفرهما على المال توسل الزوج الى الملك بأن يسمح له بالذهاب الى فرنسا للبحث عن المال. فقبل، لكن القائد عمرو رفض، بل بالعكس، أوثق الزوج معي بسلسلة. وأما الزوجة، فربطها بسلسلتين، وسلمها الى شيخ اليهود ليستخدمها في الطحن له، وكسب قوتها بهذه الوسيلة.

كان ابن عمي هو الوحيد السعيد من بيننا جميعا. لقد أخذ أثناء آخر جلسة للمبعوثين الينا ليقوم بدور الترجمان لهم، بدلا من يهودي كان قد خانهم في جميع الجلسات السابقة التي حضرها، اذ كان يبلغ عكس ما يقترحون على القائد عمرو. ولما كان من بينهم تاجر من مرسيليا لديه فديته فانه دافع عن نفسه بمهارة لدى ذلك القائد، مبينا له جيدا المدة الطويلة التي قضاها في الاسر، وانه لا

يمكنه أن يعطي الالف ريال المفروضة، حتى إن القائد رضي وأطلق سراحه في مقابل 200 ريال، دفعها التاجر نقدا. فأبحر على ظهر سفينة فارس شاطو - رونو، حيث لقي فارس مونت - لوي، ابن مراسلته التي زودته فورا بكل ما كان يحتاج اليه.

إلا أن الملك، وقد مل من انتظار المال الذي لم يأت من فديتنا، أوفد الى القصر الكاتب الأول السيد سليمان لقبضه، وأمره في حالة ما اذا كان القائد عمرو لم يستلم المال بعد، أن يأخذ من ماله الخاص أربعة عشر ألف ريال، وهو مجموع مبلغ الفدية، فاضطر عمرو الى امتثال ذلك. ولما انصرف الكاتب الى مكناس، وكنا قد أصبحنا ملكا لعمرو، قال لنا منذ الغد انه لم يبق لنا إلا أن نستعد للموت أو العزم على اعطائه الف ريال عن كل واحد منا. وأرسلنا على مسافة يوم كامل من المدينة لحفر خنادق في بواد من الرمال الدقيقة الحامية، حيث لا نطعم طوال ثمانية أيام الا بما كان يصادف اتفاقا. ولا ننام الا على الارض في قلب البادية. وبالرغم على كوننا مغلولي الارجل، مقرنين في الاصفاد مثنى، كانوا يضيفون لنا في الليل سلسلة كبيرة تربطنا جميعا من العنق.

وكان حراسنا القساة يطالبون كل يوم بعض صغار الشبان الذين كانوا معنا باعتناق الاسلام، لكن بدون جدوى. ونحن وان كنا نرى جيدا أننا لا نستطيع ان نعيش أكثر من ثلاثة أيام أخرى، لأن الدم يكاد ينفد من عروقنا، والجلد يلصق بأكتافنا، فانه لم يفتنا أن ندعو على معذبينا، وان نستسلم تماما لاوامر القضاء الرباني الذي لم يكن ليهملنا في تلك الشدة. ذلك أن الكاتب الذي كان الملك قد أوفده الي القصر، اطلعه على المحن التي كانوا يكبدوننا اياها، والاهوال التي من المتوقع أن يخصصوها لنا. غضب مولاي اسماعيل غضبا شديدا، وكان يظن أن جلنا قد أطلق سراحه، فبعث في الحين بأربعة من زنوج حرسه إلى القصر لالقاء القبض على القائد عمرو والاتيان به مقيدا في الحديد. وصلوا يوم 14 سبتمبر ولم يمهلوه سوى بقدر ما يمتطي فرسه ويأمر باحضارنا. وتوجهنا بعد ثلاثة أيام من انصرافه الى مكناس، فقدمنا الى الملك، ووجدنا في أسوإ حال، حتى إنه سأل القائد عمرو هل نحن المسيحيون الذين بعث بهم اليه. وبعد أن وبخه كثيرا قال لنا إنه لن يرسلنا من الآن فصاعدا الى عماله لاداء فدياتنا، ولكن عندما نتوفر على المال نعمل على ايصاله الى مكناس فنخرج اذ ذاك أحرارا.

وهكذا فقد عمرو حدو ماله، الأمر الذي لم يكن بالنسبة لبخيل مثله مصابا هينا، وذلك بسبب ما اذاقنا من الاضطهادات. ذلك العذاب الذي كان لي فيه نصيب كبير لم اذكره من اجل الافتخار به، اذ تغلبت عليه بفضل الله، ولكن لأبين فقط الأهوال التي جرت في وقتنا، والتي يتعرض الاسرى الذين بقوا بعدنا لتحملها يوميا، وذلك لحث القارىء على الاهتمام باسعافهم.

وصف مدينة القصر

وقبل انهاء هذا الفصل، سأقول كلمة عن مدينة القصر، التي كان لدي متسع من الوقت لمشاهدتها طوال الشهور الثلاثة التي قضيتها فيها. لانه لا يوجد مكان يدعوني إلى أن أتذكره بهذا القدر، ولا مكان تألمت فيه أكثر منه. ان هذه المدينة التي هي عاصمة الغرب، أسست في عهد سحيق من طرف راع اسمه باشاروري (كذا)[7] وتقع على الضفة الشمالية لواد اللكوس في مستنقع يبعد عن العرائش الواقعة على مصب نفس النهر بخمسة فراسخ، وعن سلا بثلاثين فرسخا، وعن مكناس بخمسة وعشرين، وعن فاس بسعبة وثلاثين، وعن تطوان بخمسة وعشرين، وعن طنجة بعشرين، وعن أصيلا بسبعة فراسخ. والمسافة من فاس الى تافيلالت هي مائة وعشرة أميال، والى مراكش 100 فرسخ، والى تازة 18 فرسخا والى مكناس 12 فرسخا، والى سلا 35 فرسخا ومن سلا الى لزمور 20 فرسخا، والى الوليدية 40 فرسخا، والى أسفي 60 فرسخا، والى اكادير اغير أو سانت كروا 90 فرسخا

وفي ضواحي القصر (الكبير) عدة مروج جميلة، وكذلك عدد من البساتين المنتشرة علي جانبي النهر، الذي يغرقها هي والمدينة في ابان الامطار الغزيرة. وكانت لها أسوار قديمة لا تغني في الدفاع عنها، وسكانها لا كياسة لهم ازاء الاجانب. وقد يكون عدد دور المدينة 000 6، وهي غير جيدة البناء مع عدد من أكواخ القصب التي يقطنها افقر السكان. وهناك عدد كبير من اليهود المقيمين حول قصر الامير غيلان الذي يستعمل اليوم كمخزن ومنزل للسيور ميسيونيي، التاجر بقادس، الذي اعتاد الاتجار بالقصر. ويكثر فيها الحبوب والسمن والصوف والعسل والجلود والشمع والثمار، وكذلك اللحم. وليس واديا

(7) ذكر الحسن الوزان في وصف افريقيا ـ وتبعه مارول ـ أن باني القصر الكبير هو يعقوب المنصور الموحدي (580 ـ 1184/595 ـ 1198)

تاكدار والمخازن ببعيدين عنها جدا. وعلى ضفاف هذا النهر الاخير الذي يصب في اللكوس في عالية العرائش، فقد دُن سيباستيان ملك البرتغال في تلك المعركة الكبرى ضد مولاي عبد الملك ملك فاس ومراكش، التي هلك فيها هذان الاميران، كما هلك فيها احسن نبلاء البرتغال الذين صحبوا الملك دُن سيباستيان

ليست مدينة القصر عظيمة إلا لأنها اتخذت دار إقامة للامير غيلان الذي استولى عليها وعلى كل الاقليم من يد ابن أبي بكر[8] ملك الزوايا الذي كان سيده. وكان قائد جيشه ضد بربر جبال تطوان، الذين ثاروا ضده. وبعد أن تغلب عليهم غيلان وجردهم من السلاح بايعوه ملكا[9]

بعد أن علم ابن ابي بكر بخيانة غيلان، انطلق من الزاوية بجيشه ليحاربه فوصل في ظرف أيام قلائل الى ضفاف نهر سبو، حيث وجد غيلان مخيما في الجانب الآخر، وهو ينتظره بثبات، فاضطر ابن ابي بكر الى العودة من غير ان يعمل شيئا. والامير غيلان هذا هو الذي قام بذلك الحصار الشهير للعرائش الذي سأتحدث عنه في مغامرات دون رفائيل دي فيراس. وقد غلب غيلان من طرف مولاي رشيد في معركة تخلى له بعدها عن الاقليم ومدن القصر وتطوان وأصيلا، منسحبا الى الجزائر حيث اقام كفرد عادي الى عام 1672، فاستدعاه فيه اهل البلاد. (كان ذلك أيام كان مولاي اسماعيل ملك فاس منشغلا بحصار تازا) فاستقبلوه بفرح كبير، لكن عندما تحرك مولاي اسماعيل بالجيش ضده، خذلوه بنذالة في المعركة التي قتل فيها بعد ان ابدى كثيرا من ضروب الشجاعة، وقتل تحته خمسة افراس، فاحتز رأسه جندي اسود وقدمه الى مولاي اسماعيل الذي بعث به على الفور الى أخيه مولاي هاشم، خليفته بفاس، كعلامة قاطعة لنصره. وهكذا مات ذلك الامير الشجاع، بعد ما قام بأعمال باهرة لا تحصى، وهو اندلسي الاصل، أي من نسل المغاربة الذين غادروا اسبانيا بعد سقوط غرناطة. كان ذا بسطة في الجسم حسن المنظر بشوشا في وجه جميع الناس، شعر شاربه طويل أشقر. وكان جنديا طيبا وقائدا كبيرا، منحدرا من الاسرة الشهيرة آل زغريس الذائعة الصيت في الحروب الاهلية بهذه المملكة من أجل الخلافات التي كانت لها مع أعدائها الالداء بني سراج[10]

(8) يقصد محمد الحاج بن محمد بن ابي بكر الدلائي الذي حكم بلاد الغرب كلها من عاصمته الزاوية الدلائية الحديثة بايت اسحاق (1046-1079 / 1636-1668) انظر كتابنا الزاوية الدلائية، الباب الرابع

(9) هذه الاخبار مخالفة للواقع لان غيلان كان من اتباع المجاهد العياشي، وثار بعد اغتياله ضد الدلائيين وتغلب عليهم في الغرب .

(10) المعروف أن الخضر غيلان مغربي صميم من بني كرفط في بلاد الهبط، وما زالت زاويتهم قائمة هناك. وصدر أخيرا كتابه عنها .

الفصل السابع

ويشتمل على قصة بيرنار بوصي، الذي ألقى بنفسه بين أربعة عشر أسدا جائعا يوم 15 فبراير 1681

بعد بضعة أشهر من عودتنا من القصر، استخدم الله سطوة مولاي إسماعيل لابراز عنايته الخاصة بعباده، وتقوية ايماننا بمعجزة عظيمة

كان من بين الأسرى الفرنسيين شاب عمره خمس وعشرون سنة يدعى بيرنار بوصي، من أسرة البوصيين، قناصل مرسيليا القدامى، ومن مواليد مدينة دوبيني في إقليم بروفانس. كان حارس ثياب غلمان الملك وأسلحتهم، مكلفا بالمخازن الملكية المجاورة لباب الحريم الاول، إضافة إلى أنه كان يعلم اللغة الاسبانية لطفلين من أبناء الملك. ولما كان هذا الامير يكن له المودة، ويريد أن يرفع مقامه الى اعلى لولا قيام حاجز الدين المسيحي، فإنه كان يبحث عن كل الوسائل لحمله على اعتناق الاسلام. ولما رأى أنه لا يستطيع التأثير على فكره عن طريق اللين فإنه كان غالبا ما يلجأ الى طريق العنف والمعاملات السيئة.

وذات يوم، وقد أغضبت مقاومته الملك إلى أقصى حد، صادف هذا الاخير في طريقه قشتين أو ثلاثا من التبن، فاتخذها تعلة لاتهام بوصي بأنه لم يأمر بكنس الزقاق الواقع بين أبواب الحريم، وأمر بتجريده من الثياب وانهال عليه بالضرب أسودان بيد كل واحد منهما قبضة من سيور الجلد وجلدوه أكثر من خمسامئة جلدة حتى صيروا جسمه أسود كالفحم. ولما غدا على هذه الحالة، أرسله مصفدا بسلسلتين ضخمتين إلى سجننا لتضميد جراحه. وبعد أن أمهله عدة أيام أرسل في طلبه، وسأله لماذا هو ماكث في البيت. (هكذا يسمون سجن الاسرى) بينما الدقيق يسرق ؟ وفعلا كان قد سرق ذلك اليوم كيس من أحد المخازن القريبة من باب الحريم. فأجابه بيرنار «مولاي لقد مكثت في هذا المكان منذ أن أرسلتني إليه. وما كنت أجرؤ على الخروج منه دون أمرك».. عندئذ طعنه الملك برمح فجرحه قليلا تحت العين اليمنى ثم أمر حرسه بالقائه في حديقة الاسود .

حديقة الاسود بمكناس

تقع تلك الحديقة بين أربعة أسوار عالية، كشبه فناء، محاذية لاسوار القصر ولا يفصلها عن بيتنا إلا جدار مشترك عرضه ثلاثة أشبار، نبشته الاسود مرة وكادت أن تدخل ليلا الى سجننا

ولما سمع الشاب ذلك الحكم القاسي، أسرع الى السلم الذي يرقى عليه، عازما على أن يرتمي هو بنفسه في الحديقة بدلا من أن يتحمل ألم القذف فيها. فنزل الملك عن فرسه وصعد فورا على إثره قائلا له أن يبدل دينه وإلا افترسته الاسود، لكن بيرنار أجابه باطمئنان أنه لا يحزن لذلك، وأن سعادته منوطة به، وان الاسود لن تتسبب له الا في ميتة شريفة، وهو يفضل أن يكون جسمه طعاما لها، من أن تصبح روحه فريسة للشياطين. عندئذ تقدم الملك على جانب الحائط ليسقطه. لكن بوصي الذي كان دائما يرقب يديه، وقد علم ما هو فاعله، ألقى بنفسه في وسط أربعة عشر أسدا ضخما. لم تأكل منذ ثلاثة أيام. قامت تلك الوحوش فورا حين رأت الفريسة، وجعلت تزأر وتستعد للانقضاض على ذلك الشاب الذي كان يذكر الله ويتوسل الى سيدتنا حامية الاسرى وإلى سانت آن. لكن تلك الحيوانات لم تلبث أن جثمت مرة أخرى وكأن قوة سرية أمسكتها. غير أن بعضها نهضت بعد قليل وقصدته توا لكنها عندما اقتربت منه جدا مرت بجانبه دون أن تمسه. وقد اقترب منه أحد الاسود سبع مرات ليفترسه لانه كان جائعا أكثر، وابتعد سبع مرات دون الاقدام على ذلك. فصار أسيرنا كأنه دانيال جديد، يحمد الله في وسط تلك الوحوش المفترسة التي لم تستطع ان تلحق به أي أذى

وحينما سقط بوصي في حديقة الأسود، انسحب الملك وأرسل مرتين لمعرفة ما اذا كان قد افتُرس، وليقترح عليه انقاذه ان رغب في الاسلام، لكنه رد على من أوفدهم بنفس الجواب، وجعلنا نصلي ونطلب له الاعانة الربانية. وبما اننا حفرنا بعض الثقوب في السور (المشترك بيننا وبين الاسود) لنراه، كنّا نحثه على التشبث بالثبات، وأن يفضل الموت على التخلي عن دينه، الشيء الذي كان يعدنا به بحماس .

وفي تلك الاثناء تقدمت أسيرة اسبانية الى الملك متوسلة اليه في انقاذ بوصي. كانت تدعى مارية دي لاكونسيبسيون، من مواليد سان لُكار دي باراميدا بالاندلس. وكانت قد وفدت الى المعمورة لاخراج زوجها الذي كان في المنفى، فأسرا معا في طريق عودتهما الى اسبانيا. وبما انها كانت حاذقة الى حد بعيد، دون خدش الامانة الزوجية، فانها اكتسبت عطف الملك الذي كان يمنحها كل ما تطلبه من العفو سواء بالنسبة للمغاربة أو المسيحيين. كانت تدعى الام المشتركة لجميع المبتلين، لانها لم تكن تألو جهدا في طلب العفو. كانت هي وزوجها، المدعو يوحنا دي كريمونا، يطعمان حمام الملك، ويرعيان الاسود. سر الملك بهذا الطلب لانه كان يحب بوصي، وامر على الفور بخلاصه. وما أن فاه بتلك الكلمة حتى تسارع الغلمان متنافسين، يرغب كل منهم في أن يصل هو الاول إليه تاركين الملك وحده تحت المدخل الأول للحريم. اغتاظ الملك وأعادهم جميعا وصرع ثمانية منهم على الارض بضربات سيف ضلع ملطخين دما وجراحا

غير أنه، عندما ذهب غضبه، عادت الاسيرة مرة ثانية تتضرع إليه بالحاح حتى إنه لم يستطع أن يردها، وأمرها أن تذهب هي وزوجها، والمدعو بريور، طبيب جراح من بواتيي ذكرته في مكان آخر، لسحب بوصي من حديقة الاسود. فتم ذلك في الحين، بعد أن مكث فيها خمس ساعات، لان الساعة لم تكن تشير إلاّ إلى الرابعة حين ارتمى في الحديقة بينما كانت الساعة تجاوز التاسعة عندما أخرج منها.

وبعد بضعة أيام، لم يكن للأسود نفس الاحترام لثلاثة فقراء أو فقهاء في الشريعة الاسلامية تعرضوا للوم الملك على قساوته، فامر بإلقائهم في نفس الحديقة ومزقت اشلاؤهم على الفور[1]

لقد تبين لي ان هذه القصة عظيمة في جميع الظروف، ولاجعل منها شهادة موثوقا بها حملت أصلها الى فرنسا، ووضعته بين أيدي الرهبان الموقرين بجماعة لا ميرسي بباريس، لاقناع الذين قد يشكون فيها. وحررت في مدينة تطوان بافريقيا في 18 أبريل 1681 وأمضاها كل من بيرنار بوصي في أوبيني من بروفانس، والاخ بيرنار مونيل، راهب من لاميرسي، والاخ إنياس بيرتيد راهب

(1) الجانب الملحمي ظاهر في هذه الاسطورة التي لا تحتاج إلى تعليق : فإن المؤلف أبى إلا أن يوثقها بتزكية رهبان لم يروا ولم يعلموا عنها شيئا، لاتخاذها كوسيلة لتضليل عقول المسيحيين المتعصبين .

من لا ميرسي ايضا، وتوسانت بوايي، تاجر بتطوان، ونيكولا بوايي، تاجر، وج. مويط نويل بينو من كانكال، وماسي بودوان من نفس البلدة، ونيكولا گايار من سان مالُو، وبيير هافار، من رُوان، وم. ميو من لا روشيل، ون. بلاكيطو من رُوان، وم. دورومينيي من نانط، وش. بينا من دوديرن، وش. لانوزيل، من بريست، وجوسلان منگار من سان مالو، وبول لوفسور من بونطواز، ويوحنا لوكومت من رُوان، وفرانسوا باسكيي من هارفلور، وجوليان فارس باريس، وكل الممضين بعدي كانوا أسرى في مكناس عندما وقع ذلك .

وبعد ثمانية أيام اخرج بوصي معنا من الأسر بواسطة الآباء الموقرين لجماعة لا ميرسي، وعلمت بعد رجوعي من الأب مونيل، أن بوصي طلب الدخول في دير تابع لجماعتهم، وأنهم وعدوه بذلك حينما يعود مع المسيو دوسان أماند، سفير الملك المسيحي الذي أخذه معه الى ملك المغرب ليكون ترجمانا له .

الفصل الثامن
في محن الاسر بصفة عامة

ان القصة السابقة ـ كسائر محتوى هذا الكتاب ـ تعرِّف بما فيه الكفاية بمحنة أسرى افرقيا المساكين والخطر الذي يتعرضون له كل يوم، أو المروق من دينهم، والموت من جراء قساوة ساداتهم وحراسهم. حقا إنه لا يمكن تصور اي شيء اخطر من الحالة التي صاروا عليها. ان ما يُحمَّل من الآلام بفرنسا لاكبر المجرمين لا يكاد يوازي العذاب الذي يلحق بهؤلاء الضحايا الابرياء. ان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة عندنا أقل تعاسة من الذين يخدمون في قصور مكناس. ومطامير سلا والقصر (الكبير) وتطوان تفوق احلك السجون وأقذرها. والعذاب الذي يعاقب به في فرنسا القتلة والمغتالون لا يضاهي ما يخترعه المغاربة، إما لحمل الاسرى على العدول عن الدين المسيحي، وإما لارضاء جنونهم فقط .

إن المريض لا يعامل أحسن من السليم. وإطعام مسيحيي الملك في كل وقت هو قصعة من الدقيق الاسود، مع قليل من زيت الزيتون. ولا يسمح لهم

بالراحة إلا إذا رأوا انهم لم يعودوا يستطيعون تحريك الأرجل ولا الأيدي. ذلك لان حراسهم القساة من لدن أنفسهم، اضافة الى أنهم محرضون من طرف رؤساء الاشغال الماجورين الذين يحرصون على تقدم أشغالهم، لا يعفونهم من الذهاب الى العمل الا بقدر ما يلزمهم ضعفهم بالاضطجاع. وبمجرد ما يبدؤون يسيرون، يرغمونهم على العمل مثل الاخرين. وكل ما يعمل معهم من المعروف هو أولا استخدامهم في الاشياء الاقل تعبا، كاطفاء الجير، وكنس الازقة، والخدمة في الاصطبلات.

واذا مات منهم أحد فانهم لا يتألمون لذلك كثيرا، فليس على المسؤولين عن الاسرى الا ان يقولوا في نهاية السنة انه مات منهم عدد كذا. والملك الذي يؤمن هو ورعاياه بالقدر يعتقدون أنهم اذا جاء أجلهم فلن يستطيعوا أن يعيشوا أكثر مهما كانت العناية المتخذة في حقهم، كذلك فمن البلاهة التفجع على موتهم.

ولا راحة طوال العام لمن يتمتع بصحة جيدة الا في سبعة أيام خالصة[1] وهي الايام الثلاثة الاولى من الاعياد الاسلامية، الاول يدعى العيد الصغير، وهو اليوم الموالي لصيامهم أو رمضان. والثاني يأتي بعد شهرين قمريين وعشرة أيام، ويدعى العيد الكبير، وفيه يضحون بالاكباش بقدر عدد الصبيان الذكور في كل أسرة[2]، تذكرة لتضحية ابراهيم. والثالث، ويدعى المولد أو مولد محمد، (عليه السلام) يأتي بعد ثلاثة أشهر قمرية ويومين وتواريخ هذه الاعياد كلها غير ثابتة وانما تدور مع العام، لان سنتهم لا تتألف الا من اثنى عشر شهرا قمرياً فحسب.

أما الايام الاربعة الاخرى، التي هي أيامنا، اعني عيد الميلاد، وعيد العنصرة، وعيد الفصح، وعيد ميلاد العذراء فكنا نطلبها لتخصيصها لدعاء الله وترتيل الزبور والاناشيد الدينية، وكانوا يعطوننا اياها[3] وفيما عدا ذلك لابد من العمل المستمر صيفا وشتاء، ما عدا اذا حال مرض خطير جدا دون ذلك كما سبقت الاشارة اليه، أو إن نزل في الشتاء مطر غزير يجعل من التراب طينا لزجا

---

(1) لعل الصواب تسعة أيام. أو أن عطلة عيد المولد ـ بالنسبة للاسرى ـ لا تجاوز يوما واحدا، لكنه لم ينبه على ذلك .

(2) هذا غير صحيح، لان الضحية الواحدة تجزىء عن كل من يعيش تحت كنف المضحي .

(3) هذا اعتراف خطير مر عليه المؤلف مرا خاطفا، يدل على تسامح المسلمين مع الاسرى المسيحيين واعفائهم من العمل في أعيادهم للقيام بشعائرهم الدينية. فاين هذا من تعصب المسيحيين مع اسراهم من المسلمين وتعمدهم معا كستهم وارغامهم على الافطار في رمضان الخ !!

لا يمكن تحريكه وقلبه، مع انه في أغلب الأحيان، اذا حدث ذلك، وحتى لا يدعوا الاسرى بدون عمل تلك الايام، فانهم يكلفونهم بتنظيف الأزقة، وحمل الاحجار، وأشياء من هذا القبيل، قائلين إنهم إذا تركوهم عاطلين فلن يفكروا إلا في الفرار. أما اذا كانوا تعبين على الدوام فلن يتمكنوا من القيام بذلك بسهولة.

وبصدد الفرار، شاهدت كل سنة أزيد من نحو عشرين أسيرا يجربون حظهم. ومن أجل ذلك، كانوا يجمعون كِسرات من الخبز يجففونها في الشمس وعندما يجمعون ما فيه الكفاية كنا ندفنهم في خنادق على طول الاسوار خارج قصر مكناس، باستثناء الرأس الذي كنا نغطيه بالكلا حتى يتمكنوا من التنفس، ونذهب لنتغوط حولهم حتى يتقزز المغاربة من الاقتراب منهم. وكانوا ينطلقون ليلا، متوسلين الى الله والى السيدة المقدسة، مهتدين بنجمة الشمال. وكانت أيام الجمعة هي الانسب لهذه العملية، لان المغاربة المكلفين بنا كانوا يتوجهون في الساعة الثانية زوالا الى المساجد للصلاة ولا يبقى معنا سوى حارس واحد يتحدث معه اثنان او ثلاثة في الوقت الذي كنا ندفن فيه الراغبين في الفرار، ويقدمون له التبغ أو يقصون عليه بعض القصص، فلا يشعر بأي شيء الا في المساء عندما كانوا يعدوننا.

وذات يوم دفن اسبانيان نفسهما هكذا حيين في مطمورة بعيدة عن الناس خلف مبنى الحريم الجديد. واغلق أحد أصحابهما، وكان الوحيد المطلع على ذلك، تلك المطمورة بخشبة رمى فوقها التراب، تاركا ثقبا لدخول الهواء. لكن نظرا لشدة الحرارة لم يكفهما الهواء واضعفهما ذلك كثيرا حتى انهما عندما أرادا الصعود الى أعلى، خانتهما قواهما فسقطا على قفاهما، واختنقا في ذلك المكان. وفي يوم الغد، ذهب صاحبهما ليرى هل انصرفا. ولما رأى الثقب الذي فتحاه جزئيا ظن أنهما فرا، ولم ينظر داخل المطمورة. لكن بعد ثمانية أيام بينما كان احد المسيحيين يبحث عن حطب لطهي طعامه، أبصر تلك الخشبة فجرها. وفي نفس الوقت صعدت الى انفه نتانة كريهة الى أقصى حد، فأراد ان يعرف مصدرها فاقترب من الثقب، ورأى تينك الجثتين مغطاتين بالدود والفئران. فسار يخبر القسيس يوحنا المسيح مريم، وهو اسباني من جماعة الثالوث المقدس لحفاة مدريد، كان مقيما معنا، فارتأى ذلك القسيس ان يتركا في مكانهما، وان يهال

عليهما التراب في الحين، حتى لا يهتدي اليهما المغاربة الذين لو انتبهوا الى ذلك، لصاروا يبحثون في التراب اذا ما فر احد.

وعندما كان يفر أحد الاسرى، يبعث العامل على الفور بفرسان يجوبون البادية ليأمروا الاعراب وقواد الحاميات الموجودة قرب مراكز المسيحيين بالتوجه اليها، وتوقيف جميع الذين يصادفونهم متوجهين الى هذه المراكز وفحصهم. وهكذا كانوا ينصبون مخافر للترصد في كل مكان، وتستمر الحراسة المشددة طوال خمسة عشر يوما في جميع الاماكن التي يمكن المرور منها، حتى انه كانت شبه معجزة ان يفلت منها احد. وغالبا ما كان السجناء يدركون على مرأى من تلك المراكز المسيحية، لاسيما وأن الحراسة تكون هناك مشددة أكثر. واذا القي القبض على هارب، اعيد فورا الى المكان الذي فر منه. ورغم ان الملك لم يكن يريد ان يعامل الذين يحاولون النجاة بقساوة، ويسمح عادة لجميع المفضلين لديه، فانه عندما يغيب، يقوم العامل المكلف بنا، الذي كان ملزما، اذا فر أحد بأن يؤدي فديته الى الملك حرصا على إرهاب الآخرين، يقوم هو نفسه أمام الجميع بجلد أولئك البؤساء مائتي جلدة، ثم يثقل أرجلهم بسلسلتين غليظتين، ويضع بين الساقين عمودا من حديد يمر بحلقتي تينك السلسلتين، الشيء الذي يعرقل المشي كثيرا حتى انه لابد من ربع ساعة لقطع عشرين خطوة، وعلى الرغم من ذلك، كانوا يكلفون بأشق الاشغال. لقد رأيت بسلا مسيحيين قطعت آذانهم لانهم هربوا، وبفاس نزع لدُن رفائيل دوفياس، ولعدد آخر قطع من حجم قبضة اليد من اللحم الميت بظهورهم بعد أن جلدوا أكثر من خمسمائة جلدة، وحتى أبين كذلك كم كان يصعب على الاسرى الاسلاميين الفرار من تلك البلدان، سأروي هنا قصة هروب اثنين منهم تعرفت عليهما في قصر سلا أيام كنت هناك، وكيف أدركا، والعقوبات التي أصابتهما.

فرار إسلاميين

كان ذانك الاسلاميان يدعيان رمضان وعبد الله، الاول اسباني، والثاني وان كان قد أسر في اسبانيا فانه من أصل مغربي، أسر وهو شاب من طرف الاسبانيين مع أبيه وأمه، وبعد أن قضى مدة باسبانيا تلقى تعليما مسيحيا وتنصر.

كان سيده بورجوازيا من جبل طارق استخدمه في ضيعة غير بعيدة عن البحر. وكان المغاربة من أهل تطوان آنذاك غالبا ما يشنون غارات ليلا على تلك الشواطىء. فقصدوا تلك الضيعة ولم يجدوا فيها سوى أربعة اسبانيين، منهم ذلك المغربي المتنصر، وامرأتين أسرتا (بعد أن قاومنا بشدة وجرحتا عدة مغاربة) وسيقوا بعد ذلك الى تطوان.

قدمت المرأتان الى مولاي رشيد، واشتري المغربي الشاب من طرف عم الملك مولاي ميمون مبارك، ولما علم ذلك الامير أنه ابن مغربي، وقد عرف ببعض العلامات الزرقاء التي كان المغاربة يسمون بها أبناءهم في طفولتهم المبكرة (الوشم) فلا تنمحي ابدا (لانها مغروزة في الجلد ومصبوغة بالنيلة. والنساء يتجملن بها خاصة في الجيد والذقن والبطن والذراعين الى المرفقين، مازجات تلك الزينة بالتي ذكرتها في مكان آخر)، لم يزل يذيقه كل ألوان العذاب حتى أرغمه على الاسلام. وبعد ذلك سلمه الى الشيخ عمار صهر مولاي رشيد الذي أرسله الى القائد الذي يملكني، ليستخدمه في سفن القرصنة فيكسب بذلك مغنما. ونظرا لكونه يتكلم اللغة العربية جيدا كالعرب أنفسهم فانه لم يلبث أن أصبح له أصدقاء. وبعد أن درس مداخل المدينة ومخارجها، حفزته رغبة العودة الى اسبانيا الى ان يفاتح في ذلك رمضان الذي كان مثله اسلاميا (والذي فر من المعمورة منذ بضعة أشهر ليسلم) وكان يأوي ليلا الى منزل اعطاه سيدي لهما، فعزما معا على الفرار الى الجديدة مركز البرتغاليين على شواطىء مراكش، على بعد فرسخين من مدينة أزمور. وبعد أن اتخذا لنفسهما زادا، وعرفا المكان الذي يمكنهما الحصول فيه على الخيل، سرقا فرسين لبعض اليهود.

سار هذان الاسلاميان أربعة أو خسمة أيام ليلا فقط، خوفا من أن يكتشف أمرهما حتى أصبحا على مرأى من أزمور، حيث كان لابد من قطع نهر أم الربيع على معدية، لان سرعته الموازية لسرعة الرون تحول دون عبوره سباحة. فتشاورا واتفقا على أن عبد الله، الذي كان يحسن التكلم بالعربية، يذهب الى ازمور لشراء المؤن التي يحتاجان اليها، وليرى في الجانب الآخر للنهر ان كانت هناك وسيلة لاجتيازه دون الصعود الى المعدية. عبر عبد الله النهر دون أن يقال له أي شيء، وبعد أن جال في المدينة، اشترى خبزا، وأرنبا مشوية، وشيئا من التمر، وعند عودته الى النهر لقي مغربيا فاقترب منه وقال له ان له

على الضفة الاخرى رفيقا من أصل تركي يريد أن يذهب ليشتكي الى ملك فاس الذي كان اذ ذاك بمراكش، ولكنه لم يجسر على أن يتقدم للعبور على المعدية لانه لا يعرف اللغة العربية ويخشى ان يلحقه سوء، فإذا قبل ان يرافقهما ويساعدهما على العبور بدون خطر، فان لهما فرسين جيدين يتركانهما له.

تظاهر المغربي بقبول كل شيء، وسار مع عبد الله عند رمضان. ولما رأى هذا الاخير ذلك المغربي دهش وقال لرفيقه انهما هالكان لا محالة ان لم يقتلاه، فهدأ عبد الله من روعه قائلا إنه أقسم بجميع حرمات القرآن أنهما لن يصابا بأي سوء. فأكلا مما اتى به عبد الله من طعام، ثم تُوجها الى المعدية لعبور النهر. لكن، ما ان طلعا فيها حتى قال المغربي للبحَّارة ان بين أيديهم الاسلاميين الذين فرا من ثغر سلا، وذلك لما أصابه من شك فيهما، لانه عندما كان أسير مسيحي أو اسلامي يفر في بلاد البربر يرسلون سعاة ليعجلوا بالاخبار به على طول الشواطىء. القي القبض عليهما في الحين وشدا بالوثاق، ثم سيقا الى ثغر أزمور، فأرسلهما العامل الى سلا. ولدى عودتهما، أمر القائد جميع جنوده بتعذيبهما، ثم أحضر مشاعل من التبن وفتائل مغمسة في الزيت، واحرق بها وجههما. وبينما هم يحرقونهما هكذا، كان رمضان الذي لا يعرف الا اللغة الاسبانية يستنجد بصوت عال بالقديسة العذراء قائلا «يا أم المسيح، ملكة السماء والارض، انجدي ضعفنا البشري ضد سعر هؤلاء الكلاب والتمسي من ابنك البار قوة نستطيع بها تحمل هذه النيران التي وقعنا فيها حتى نرجع الى دينه المقدس!» فسر بعض المسلمين الاندلسيين هذه الكلمات للعامل الذي كان يظن أنهما إنما افلتا من يديه ليكونا أسيرين لدى الملك، وعندما تحقق من عواطفهما المسيحية، ونيتهما في الرجوع الى اسبانيا، لم يكتف بالعذاب الاول الذي اذاقهما اياه، بل أمر بأن يدحرجا رفسا بالارجل على مسافة أكثر من خمسين خطوة وسلمهما بعد ذلك فريستين للاطفال يلعبون بهما. فالحقوا بهما أضرارا الى حد أنهم تركوهما على الارض كما لو كانا ميتين. ولما جاء الليل، وهما ما يزالان يتنفسان، ألقي بهما في مطمورتنا، حيث مكثا أكثر من شهرين دون أن يقدم اليهما اسعاف غير ما كنا نقدمه لهما. وكادا يموتان جوعا لولا أن أفلتا منه عندما أرسلنا سيدي الى فاس، بعد أن عزله مولاي اسماعيل من حكم سلا.

ومنذ وصولهما الى فاس، قدمهما سادتهما الى الملك، فاستخدمهما في

حامية حارسين مع آخرين في حصن يوجد في شرق الجنوب الشرقي لفاس البالي. وفرا الى القصر (الكبير) حيث كان يقيم الامير غيلان منذ عودته من الجزائر، لكن لم يمر على وصولهما الا زمن قليل حتى حاول عبد الله الالتحاق بالعرائش، وهو يحن دائما الى الرجوع الى إسبانيا أو الموت في تلك المحنة. ولما اقترب من ذلك الثغر الذي هو في يد الاسبانيين، ألقي عليه القبض من طرف مغاربة من القصر (الكبير) كانوا يحرسون الضواحي، وقدم الى غيلان فاعترف بشجاعة أمام هذا الامير، بأنه هرب الى العرائش للتدين بالمسيحية، والفرار مما جاء به محمد (عليه السلام)[4] حاول غيلان الذي علم بأن أجداد عبد الله كانوا مسلمين، وانه هو نفسه مختون، بألطف العبارات واكرمها ان يرجعه الى واجبه. لكنه عندما وجده لا يتأثر بكلامه، اخذ يهدده بعذاب اليم سلطه على جسمه ولما رآه لا يرعوي أحرق حيا على مهل فوق قنطرة امام ساحة سوق القصر (الكبير) في شهر ابريل من سنة 1673. وفر صاحبه رمضان من هناك الى تطوان، حيث وجد وسيلة للمرور الى الجزائر.

ولنعد الى الاسرى المسيحيين. ان الذين كانوا في ملك الخواص بالمدن الساحلية وهم بحارة، يستخدمون عادة في البحر على ظهر السفن القرصانية، حيث يوسعون ضربا، ويعرضون كل ساعة الى الهلاك. اذ يضطرون عند نشوب المعركة الى الصعود الى أعلى الصواري، لطي القلوع وربطها او لاعادة ربط بعض الحبال المقطوعة. واماالذين يمكثون في منازل سادتهم، فانهم يطحنون القمح باستمرار لتغذية الساكنين ويسقون الماء، ويفلحون الباستين والكروم، ويقطعون الاحجار لصنع الجير، وعادة ما يطعمون بكيفية سيئة رديئة. وقد شاهدت بسلا أسرى مربوطين الى المحراث مع حمير أو بغال، مضطرين الى أكل الشعير مع تلك البهائم بسبب الجوع، ويسجنون ليلا في مطامير تضم كل منها خمسة عشر أو عشرين معا.

في المطامير

هذه المطامير أماكن تحت الارض محفورة دائريا على عمق أربعة أو

(4) حذفنا عبارات جارحة أوردها المؤلف على لسان عبد الله في حق القرآن العظيم والرسول الكريم، وهي بلا شك مقحمة باطلة لان السياق والمقام يكذبانها

خمسة باعات(٥) بها فتحة ضيقة تغلق بشباك من حديد. وينزل اليها عادة بواسطة سلم من حبال يسحب الى اعلى كل مساء. والفرش فيها من حصر الأسل تعطيها رطوبة التراب رائحة نتنة، حتى اذا اجتمع الاسرى كلهم، وبدأ المكان يسخن فان الاقامة فيه طويلا تصبح مستحيلة. ومن ساعدهم الحظ اكثر فيكون لهم جلد ضأن او ماعز يصلح لهم كفراش. وينامون كلهم بكيفية دائرية رؤوسهم الى جوانب المطمورة، ولا تترك الارجل التي تلتقي في الوسط في أغلب الاحيان الا مكانا لوضع اناء من خزف لقضاء الحاجات يغطى بمصباح. ففي تلك الامكنة يحكي كل واحد ما يعانيه عند سيده، أو أخبار أوربا ان اطلع عليها. وتوجد بسلا، فضلا عن تلك المطامير الصغيرة الواقعة في الجهة الجنوبية، مطمورة كبرى في فندق بالجهة الشمالية، يحبس فيها جميع أسرى هذه المدينة. انها مبنية على شكل كهف، فيه صفان من أعمدة الآجر التي تدعمها. وفي هذه المطمورة، لا يستطيع المسيحيون عادة أن يضطجعوا على الارض كما يفعلون في المطامير الاخرى، لان الماء يغمرها حتى الركبتين تقريبا، طوال ستة أشهر من السنة، ويصنعون بواسطة حبال ومسامير كبيرة شبه فرش معلقة بعضها فوق بعض بحيث ان الموجودين في الاسفل تكاد ظهورهم تلامس الماء. ويتفق احيانا أن ينفك الذي يوجد في الاعلى فيسقط على من تحته، فيجر معه جميع الذين في الاسفل ويقعون جميعا في الماء، حيث يضطرون الى قضاء ما تبقى من الليل على تلك الحال. وقد ألغمت هذه المطمورة، عام 1673، من طرف الاسرى المحبوسين فيها من اجل الفرار. وكان خمسة وسبعون مسيحيا قد خرجوا من المدينة ليلتحقوا بالمعمورة، وكادوا ينجون جميعا لولا أن هولانديا لسوء الحظ كسرت رجله وهو ينزل من السور، فأخذ يصرخ ولما كان البحر قريبا جدا فقد اقبل بعض الصيادين عند سماع الصراخ، ولما علموا بما حدث انذروا المدينة، فتناول الجميع السلاح وركب بعضهم الخيل وأسرعوا في الطلب حتى لحقوا بجميع المسيحيين، باستثناء اثنى عشر سبقوا في الخروج ولحقوا بالمعمورة.

تطبيب مضحك يقدم للأسرى

ان ما يمتاز به أسرى الخواص عن أسرى الملك هو أنهم اذا مرضوا

(٥) الباع : قدر مد اليدين، أي نحو ميترين .

عولجوا بعناية أكبر، لان سادتهم الذين يشترونهم ليكسبوا ربحا وراءهم، يخشون أن يفقدوهم. الا انه لابد من الاعتراف بأنهم يستعملون أدوية مضحكة لمعالجتهم فاذا اشتكوا من ألم في أجسادهم، تناولوا قضبانا من حديد في رأسها دبوس من حديد ايضا بحجم جوزة يحمونه الى أن يحمر، فيكوون المريض في عدة مواضع من جسمه، كما يفعل هنا بالخيل، فيؤلمون المريض رغما عن انفه، بحيث يكون المرء في هذه الاماكن مريضا جدا في غالب الاحيان، ولا يقدر ان يشتكي تفاديا لمثل تلك المعالجة التي يعتقد المغاربة أنها ناجعة بقدر ما هي قليلة التكاليف.

الاسرى في وليمة الزفاف

وبمناسبة وليمة الزفاف، يؤخذ عشرة من أسرى الخواص للطواف بالعروسة في محملها المصنوع على شكل عرش صغير، مغطى بثوب من حرير، يحملونها على أكتافهم على أصوات الطبول والمزامير عبر ازقة المدينة ويسير الزوج على رأس المدعوين خلف زوجته. وتؤخذ بعد ذلك الى منزلها، حيث يكون جميع نساء الاسرتين من القريبات والصديقات قد وصلن. تدخل أولائك النساء في غرفة، ولا يخرجن منها الا بعد ساعات يستقبل الزوج خلالها زوجته في منزله، ويذهب بها الى الغرفة التي ستسكنها. يعود الى الزوج على الفور الى الباب الخارجي ليشكر أهله وأصحابه ويقدم له طعاما خفيفا يتناولونه بين الابواب، ثم يذهب كل واحد الى حال سبيله.

وبعد انصراف الجمهور، يعود الزوج إلى زوجته، ليرى هل هي كما وعدوه بها في شروط العقد، بكرا عذراء، وبعد ذلك يعطي اشارة الى اهلها من النساء الواقفات بالباب، بأنه يقبلها كزوجة، فيمضين ما تبقى من الليل في الغناء والرقص أمام هذا الباب، بينما يكون الزوجان مضطجعين معا. وان لم تكن الفتاة بكرا، فان الزوج يجردها من الثياب التي أهداها اليها ودون أن يرى وجهها يسلمها الى قريباتها اللاتي يعدن بها الى دار أبيها، فيكون باستطاعته خنقها، اذا اراد اللجوء الى التشدد ازاءها. ولا تتخذ مثل هذه الاجراءات اذا تم الزواج بين الاقارب خوفا من أن تفتضح الاسرة. ولكن لانقاذ الموقف يذبح الزوج حمامة

على سروال يقذف به الى الخارج، ويكشف في نفس الوقت عن وجه امرأته، حتى يتمتع بجميع كمالياته. اما الاسرى الذين حملوا العروسة، فبمجرد ما يضعونها في المنزل، يُعطَى كل واحد منهم في مقابل أتعابه رغيفا أبيض وملء حفنة من اللحم.

الفصل التاسع
طعام الاسرى ولباسهم

ولتتميم الكلام عنا نحن أسرى الملك، كان طعامنا لا يعدو، كما ذكرت ملء اليدين من الدقيق الاسود، وأوقية زيت لكل واحد منا في اليوم، سواء الاصحاء والمرضى، الكبار والصغار، وكان لباسنا عبارة عن جلباب من صوف ذي غطاء للرأس وكمين ككساء راهب، وكان يصلح كقبعة، وقميص مخصر وسراويل مع أربعة أزواج من أخفاف حقيرة، تصير بالية تماما مخروقة بعد ثمانية ايام من الخدمة في الجير والطين، ولذلك فغالبا ما تكون ارجلنا ممزقة، الامر الذي لا يمنع من العمل رغم ذلك.

كنا نصنع الخبز من دقيقنا، وكان واحد من بين ثلاثين شخصا مكلفا بجلب الدقيق من المخزن، وعجن الخبز وطهيه وتوزيعه. وكان المنتمون الى جنس واحد يجتمعون مع بعضهم ليتعاونوا أحسن. وكان لنا نحن الفرنسيين ثلاثة خبازين وللاسبانيين والبرتغاليين ستة، وللانجليزيين والهولانديين أربعة. كنا نصنع خبزنا على شكل أرغفة نصف ناضجة فقط، لاسيما واننا لم نكن نسخن الفرن الا بقشور الفول، او بقصب حقير، وكان خبازونا يحملون الينا ذلك الخبز الغير الناضج هكذا الى اماكن الخدمة، فكنا نأكله حاميا، لانه في بعض الاحيان كانت تمر عشر ساعات دون أن نفطر في انتظار الخبز. ولم يكن عندنا خبز البارحة لأن من عادة هذه البلاد الطهي كل يوم. كنا عادة نتناول الطعام ثمانية أو عشرة مجتمعين، ونبيع زيتنا لشراء ما نصنع به العشاء، الذي كان في الغالب عبارة عن شحم امعاء البقر المملح، أو الخضر مع قليل من اللحم. وكان لنا طباخان، وللاسبانيين اثنان وللانجليزيين اثنان. وكانا مثل الخبازين الذين يَكِلُهم الملك لاختيارنا، ويستمران في مهمتهما ماداما يقومان بعملها على

أحسن حال. والا عوضناهما بغيرهما. وكان على الطباخين كنس البيت والحرص على أن تكون الجرات مملوءة ماء قصد الشراب في العشاء، وغسل الاواني بالماء الساخن، وتهييء الطعام ليكون جاهزا عند عودتنا. وكان أولئك الطباخون المساكين معرضين لسباب الجماعة كلها، لان القدور قد تكون مالحة اكثر من اللازم أو ناقصة الملح جدا، او غير ناضجة كما ينبغي. وكان كل واحد يخاطبهم بعبارته اللاذعة لاغاظتهم، حتى انه كثيرا ما يقع ألا يقبل أحد أن يكون طباخا[1].

الفُـــرُش

كانت فرُشنا عبارة عن منصات مصنوعة من قصب غليظ، تبسط عليها بعض الحصر وجلود الضأن لنستعملها كحشيات. وحيث ان الغرف التي كنا ننام فيها عالية جدا، ومغطاة بسطح، فاننا كنا نضع المنصات الواحدة فوق الاخرى الى اربع، وفيما يخصني كنت أحسنهم موقعا، لاسيما وأننا حين دخلنا الى بيت مكناس الجديد، لم يكن عددنا سوى خمسة وثلاثين فرنسيا، وخصصوا لنا غرفة تسع أكثر من ستين شخصا. وقد أقمت أنا والمدعو يوحنا كولومبي في الاعلى تماما. وصنعنا غرفة صغيرة قائمة على عارضة خشبية ضخمة كنت قد أتيت بها مع قطع من الخشب، فسوينا أرضيتها جيدا وجعلنا لها بابا قلابا، ووضعنا فيها فراشين من حبال، كنا نضطجع فيهما باسترخاء اكثر من الآخرين. هذه الغرفة الصغيرة التي تطلبت مني كثيرا من الجهد والعناء لصنعها، كثيرا ما كانت تعفيني من أيام خدمة. فكنت أختبىء فيها مع من أردت أن يدخلها من أصحابي، لان الباب الذي لم يكن معروفا عند الحراس اذا أغلق لم يظهر أن هناك احدا أو أي مخبأ. وعلاوة على ذلك، كان لي اتصال بواسطة نافذة ببيت الاسبانيين، حيث كنت أختبىء عندما كانوا يفتشون بيتنا، ثم أعود اليه فور انتهاء زيارة التفتيش.

مدح جوزيف كاسطيل

كان معنا جراحون مسيحيون يعالجون ذوي العاهات ويداوونهم. وبما

---

(1) شهادة أخرى بحسن معاملة المغاربة للأسرى المسيحيين، وتمتيعهم بالخباز والطباخ وكانس البيوت وساقي الماء تتناقض طبعا مع ما ملئت به الرحلة من ادعاءات القهر والبؤس والتجويع .

أنهم كانوا يبعثون الى الملك تقريبا بجميع الذين يؤسرون على ظهر السفن، فاننا لم نكن نفتقدهم، ومنهم واحد أنا مدين له جدا بكيفية خاصة كان على جانب كبير من المهارة والاستقامة والاحسان. وأكسبته تجربته مالا وافرا يتصدق بقسط كبير منه ويؤدي قسما من فديته. انه من مواليد تولوز أو ضواحيها، كان اسمه گيوم، وهو اليوم جوزيف كاستيل. كانت استقامته واحسانه يحببانه الى كل احد ويظهرانه كأب لجميع الضعفاء. أسره قراصنة سلا عام 1671 على متن سفينة لشركة الهند الغربية كانت متوجهة الى كايين وهو يعمل فيها كجراح. وكان القرصان السلاوي خالي اقام (كذا) (الذي كان القرطبي، وهو قرصان سلاوي آخر أسرني السنة المنصرمة، قد سلم اليه سفينته ليركب اميرال فاس) هو الذي أسره وذهب به الى فاس، حيث سلمه لمولاي رشيد. فاشتغل بعض الوقت مع الآخرين، لكن نظرا لبعض المعالجات الحسنة التي حققها، منها انه شفى عبد الرحمان الفيلالي الكاتب الاول للملك، الذي أمر مولاي ميمون مبارك، عم مولاي رشيد بخصيه عندما افتض بكرا كان قد سلمها اليه ليخفضها. فاكتسب كاستيل عطف الملك وجميع كبار رجال الحاشية. واعفي من العمل.

ولما قام مولاي اسماعيل بأولى حركاته ضد مراكش، بعد موت أخيه، سار كاستيل في ركابه بصفته طبيبا جراحيا للجيش، وشاهد جميع الاحداث التي جرت فيها، وأطلعني منذئذ على أهمها. وعندما نقلنا الى مكناس، جاء اليها معنا وخدمنا فيها كثيرا، سواء بمثل حياته الذي كان نموذجيا جدا، أو بالعناية التي كان يوليها للمرضى، وافتداه الاب لارتيك من رهبنة لاميرسي، وصحبه معه عام 1676، وقد حدث في الوقت المناسب، لان عبد الرحمان الفيلالي، الوزير الاول ونائب الملك بفاس، لما جاء الى مكناس متجولا التمس منه الاسرى احد الجراحيين المقيمين بفاس، فتفقد كاستيل، فاجابه القائد بري، الذي كان حاضرا، إنه أطلق سراحه وذهب الى سلا. فصاح عبد الرحمان : «كيف يمكن تحرير جراح بهذا القدر من المهارة ؟ اسرعوا، اركبوا خيولكم وابحثوا عنه !» انطلق على الفور أربعة زنوج من حرسه، لكنهم لما وصلوا الى سلا لم يجدوه. ولاشك ان الله ألهمه بالابحار على مركب بروفانسي صغير اقلع في نفس اليوم الذي وصل فيه، ولو أنه بقي فيها اكثر لعاد الى مكناس، ولن يمنح الحرية فيها أبدا.

ولما وصل الى فرنسا وعاد الى مسقط رأسه، ترك فوائد الارض واختار

فوائد السماء. وترهب في دير رهبان لاميرسي بتولوز، عاملا على افتداء الذين تركهم أسرى في مكناس، وكان يعرف محنهم اكثر من أي أحد، وأظهر من أجلهم إحسانا قويا ورغبة أكيدة في تخليصهم من العناء. وبعد مرور سنة على تعيينه في مهمته، اجتمع رؤساء الرهبنات ليتداولوا في قضية فداء الاسرى الذي عزموا عليه وفي أي مكان يعد أكثر ضرورة، فكانت جل الاصوات لصالح طرابلس، الا أنه بين بحماس المحن التي شاهدها في مكناس، وأقنع رؤساءه جيدا بذلك، حتى انتدبوه الى تلك المهمة صحبة القسيسين بيرنار ميج وانياس بيرنيد، الذين وصلا الى مرسيليا قصد الالتحاق بذلك الراهب الممتاز بيرنار مونيل من دير باريس، الذي كان من جملة بعثة 1674 وأتى للمرة الثانية يعمل لتحرير اخوانه.

وقبل أن اتحدث عن وصولهم الى بلاد البربر، أطلب من القارىء أن يكبر معي الحماس البالغ لاولئك الرهبان المحسنين، الذين يعرضون أنفسهم بشجاعة للزوابع وغرق السفن وأهوال البحر، ليأتوا من أجل نزع السلاسل والتخليص من أشنع المحن كلها، لأسرى مساكين غير معروفين لديهم، لا يدخلهم في اهتمامهم الا احسان عيسى المسيح ليوفر لهم أكبر حسنة، وهي الحرية التي يتوقون اليها من وقت أن فقدوها وسقطوا تحت سيطرة الترك والمغاربة اقسى الناس وأقلهم شفقة[2]

إنني أعظم جميع الفئات الدينية، ولكن بعد أعمال الاحسان البطولية التي شاهدتها في بلاد البربر أثناء أسرى لرهبان لاميرسي، أظن أنه لا يوجد في الكنيسة أنفع منهم في الجمهورية المسيحية جمعاء. وما يشاركون فيه غيرهم أنهم يحمدون الله ليل نهار، ويدرسون في أشهر جامعات أوروبا، ويقومون بالتبشير لكسب الارواح الى جانب الله، ويعملون بلا كلل لنشر دين عيسى المسيح في البعثات الاجنبية، كما تشهد به الاقاليم الثمانية التي لهم في أمريكا. لكنهم اذا فاقوا جميع الآخرين بجودة نذرهم الرابع الذي يجعلهم ضحايا الاحسان، مستعدين دائما للموت من أجل كل انسان، اذ يلزمهم بالبقاء كرهائن عند المسلمين[3] واذا لم يجدوا مالا لافتداء من يرونهم في خطر اعتناق الاسلام، وفروا

(2) تحامل سافر على المسلمين من طرف المؤلف المسيحي المتعصب.

(3) عبر عنهم المؤلف كعادته بالكفار

لهم الحرية على حساب حريتهم. أي أنهم يثقلون أنفسهم بسلاسلهم، ويتحملون جميع المحن التي يخلصونهم منها، حتى الموت ذلك لان الاسلاميين يكنون لهؤلاء الرهبان حقدا شديدا لمعاتبتهم إياهم على نبذ المسيحية، وينصبون لهم ألف فخ، أو يحرضون سادتهم على الاساءة اليهم بتقارير باطلة، أو يعملون لقتلهم باتهامهم أنهم سمعوهم يشتمون محمدا (عليه السلام) أو القرآن (العظيم). وبناء على هذه التهمة يجلدون بالعصا، ويحكم عليهم اما أن يسلموا ويتنكروا لدين عيسى المسيح، أو يحرقوا كما حدث لعدد لا يحصى من الرهبان، توج احسانهم وثقتهم باستشهاد مجيد، بحيث يمكن اعتبارهم كأول المسيحيين الذين سماهم تيرتوليان قديما أناسا مستعدين دائما للموت[4] ومنذ أن أسست رهبتهم عام 1218 بأعجوبة من طرف القديسة العذراء التي تجلت في نفس الليلة لملك أراكون دُن جاك الاول ولسان بيير نولاسك، ولسان ريموند دوبانافور، وأبلغتهم التكليف من قبل ابنها عيسى، الذي أراد أن يؤسسوا تلك الفئة الرهبانية لافتداء المسيحيين الاسرى عند المسلمين الذين يملكون منذ أكثر من أربعمائة سنة أجمل أقاليم اسبانيا، ولم تفتأ تلك الرهبنة تبعث اولائك القسيسين الذين فدوا عددا لا يحصى من الاسرى المسيحيين وحرروهم من المحنة التي تعرضوا فيها لخطر الاتلاف في تلك البلدان البربرية. فكم من أسير أدركه اليأس بسبب المعاملات غير الانسانية من طرف سادته القساة فآسوه وحرضوه على الصبر في تحمل المشاق، بواسطة وعظهم المتحمس ! وكم من مسيحي كان مستعدا لاعتناق الاسلام ليتخلص من المحنة قووا ايمانه، فلقي من اجل ذلك العديد منهم استشهادا مجيدا ! وكم من فاجر انقذوه من الرذائل التي انغمس فيها للاسف أثناء أسره، وقربوه الى الله بالتوبة ! وأنا على الخصوص، لا أتكلم عن الاطفال الذين افتدوهم، وكانوا على وشك تسليمهم الى الحريم ليستخدموا كخصيان، ولا عن النساء اللائي حرروهن من الاسر ليردوهن الى أزواجهن وأطفالهن، ولا عن الاطفال الذي ردُوا الى آبائهم ولا كذلك عن الازواج الذين ردوا الى نسائهم، والذين لم يكن بعضهم ليرى البعض مرة ثانية لولا احسان اولائك الرهبان، الذين تعرضوا لكل انواع الاتعاب وحتى للموت، ليذهبوا الى بلاد البربر وتركيا قصد افتكاكهم. فأين هو الاقليم ؟ وأين هي المدينة ؟ وأين هي القرية في فرنسا التي لا

(4) المؤلف غير موضوعي يخبر بعكس ما رأى، فالرهبان الذين قص أخبارهم عن مشاهدة لم يمس احدهم بسوء، ومع ذلك يابى الا مزيدا من تعتيم اللوحة بحشر الاشاعات وتضخيمها ! .

يوجد فيها بعض هؤلاء المفتدين السعداء، الذين ينشرون تلك الحقيقة أمام الجميع ؟

تلك هي الطبيعة المجيدة التي تميز رهبنة لاميرسي في افتكاك الاسرى عن سائر الرهبنات والتي جعلتها نافعة للكنيسة الى هذه الدرجة منذ تأسيسها. أقول هذا بعاطفة اعتراف بالجميل سأحتفظ بها طول حياتي كلها، واني لولا اغاثتهم الكريمة (اضافة الى اغاثة سيدي فيردناند دو نوفيل، اسقف شارتر، والمبادرة التي أظهرها الاب مونيل الراهب بدير باريس لافتدائي) لكنت مازلت أئن حتى اليوم في الاغلال مثقلا بالمحن.

لقد سبق لي أن وصفت رحلتهم عندما حررت هذه الرواية الصادقة عن أسري. ولكن المؤلف الذي أطلع الجمهور عليها في رواية صغيرة، أعلمني بعد أن اقتطفها من كتاباتي التي اطلعه عليها الاباء الوقورون للاميرسي.

الفصل العاشر

في قدوم الاباء رهبان لاميرسي وافتدائهم للمؤلف

غادر هؤلاء الآباء المحسنون مرسيليا يوم 28 اكتوبر 1680، ووصلوا الى سبتة في 22 ديسمبر الموالي، بعد مشاق عديدة، ومعاناة أخطار كثيرة. وتوقفوا في تلك المدينة بأمر من عاملي القصر وتطوان الذين رفضا دخولهما الا بعد أن يؤديا اتاوة قدرها مائة ريال شهريا. وقد وجدوا وسيلة لتبليغنا رسالة داخل طرد للاسبانيين جاء به مغربي من سبتة، رافق اليها اسيرا اسبانيا بعث به الملك، بناء على وعده، ليبحث في بلاده عن كلاب للحراسة بحاجة اليها، فجاء اليه بها بعد شهر ونصف.

وعندما وصلتنا الرسالة، اعطيت لي لأسلمها الى الملك. ورافقني ماسي بودوان دو كانكال، الذي كان يتكلم جيدا باللغة العربية. لكننا، قبل المثول بين يديه، أعلمنا القائد بري عامل مكناس، الذي حمل الأخبار الأولى الى الملك، وعندما كنا نخاطب الملك كان يحرض ثورا ليصارع الاسود، فأمسك رسالتنا وألقى بها الى عبد الله ابن عائشة اميرال سلا، وأمره أن يقرأها وياتيه بمحتواها.

وبعد قراءتها بمحضر القائد بري، ذهب مع ابن عائشة ليخبرا الملك بأن رهبان لاميرسي الفرنسيين وصلوا الى سبتة، ويرجون منه السماح لهم بالقدوم الى البلاط لافتداء بعض الاسرى، وأن يبعث اليهم بأحد حراسه ليقودهم اليه.

أمر مولاي اسماعيل ابن عائشة بالتوجه فورا ليأتي بهم في أقرب وقت. فلقيهم ابن عائشة بتطوان، وساروا في الطريق، والمطر ينزل على ظهورهم حتى وصلوا الى مكناس. لكن بما أنه ذكر بتفصيل جميع ما حدث لهم في سفرهم، وهو مطبوع، فسوف أقول فقط إن الآباء بيرنار مونيل من رهبانية باريس، وبيرنار ميج والاخ جوزيف كاسطيل من إقليم تولوز، وصلوا في تاسع عشر فبراير الى مكناس، وقدموا الى الملك ملطخين بالاوحال ومبللين. وبعد ان سلموا عليه وقدموا اليه هداياهم، وكانت عظيمة، لولاها لكانوا قد قاموا برحلة باطلة. استقبلوا استقبالا حسنا. وبعد أن سألهم الملك عن سفرهم، سلمهم الى القائد عمار، عامل القصر، ثم انسحب. سألهم القائد بنخوة لا مثيل لها، بادىء ذي بدء، عن مبلغ المال الذي جاؤوا به، ومن أرسلهم، فقالوا إنه ليس عندهم سوى 10.000 ريال.

فسألهم عمار عن هذا المبلغ هل أعطاه ملك فرنسا أو جمع من التبرعات العمومية. فاذا كان الملك هو الذي أعطاه فان سيده سيقبله عن طيب خاطر ويسلم لهم الأسرى المطلوبين. ولكنهم سيخسرون التقدير الذي يحظى به جلالته في البلاط، المشهور بكونه أغنى وأقوى عاهل بأوروبا. إلا أنه لا يعتقد أن ملكا بهذا القدر من العظمة يعطي شيئا قليلا كهذا نظرا للعدد الكثير من الأسرى الذين أخرجهم قبل من الجزائر. فرد عليه الاب مونيل، وهو رابط الجأش دائما، بأن ملك فرنسا لا يعطي المال أبدا لافتداء رعاياه الاسرى، واذا فعل ذلك فانه يفعله بالمدافع، وان المال الذي حملوه انما هو من الصدقات العمومية. فقال القائد «اني اعلم جيدا، وكان قد أخبره بذلك بعض الاسلاميين، انكم تأتون بلوائح فيها أسماء الذين تحملون فدياتهم أو بعضها، أو الذين لهم اصدقاء كتبوا لهم. ولا أعتقد انكم مكلفون بالفداء حقيقة، وانما انتم تجار مقنعون قصدتم مولاي الملك تحت هذا المظهر الزائف للاحسان لتخدعوه وتسلبوه اغنى أرقائه وأفضلهم وتتركوا له أحقرهم. ولكنه لن يضلل كما تظنون. أجاب أولائك الرهبان بأنهم مفتدون حقيقيون، وأنهم لم يأتوا إلا لافتداء أفقر أسرى أقاليمهم، وأن جميع الاسرى أعزاء عندهم على السواء. لكنهم لا يستطيعون أن يحرروهم جميعا نظرا لكونهم لم

يجمعوا الا نصف التبرعات وأنه توجد بفرنسا رهبانية اخرى تهتم بالفداء سوف يأتي رجالها لفداء الباقين في وقت لاحق.

وبعد أن اخذ القائد منهم هدايا الملك، واستمع الى مقولاتهم أرسلهم ليستريحوا في دار يهودي كانت مفروشة بنسيج عنكبوتي. وما إن وصلوا اليها حتى حضرت مع صاحبين وأعطيانهم قارورتين من ماء الحياة وقارورة من خمر خصصها الرهبان لتلاوة القداس، اذ لم يوجد غيرها. وعلمت من الأب مونيل كيف ان ذلك الحبر الشهير الذي هو فخر أحبار فرنسا، السيد فيردناند دو نوفيل، اسقف شارتر، (الذي تفضل فأكرم أسرتنا بمحبته وحمايته)، كان أوصاه بقوة ووعده أن يعطيهم مبلغا من المال ان اطلقوا سراحي، الامر الذي وعد الاب بانجازه .

أقام هؤلاء الرهبان ثلاثة أيام دون أن يروا الملك، جاء خلالها الاب ميج ليلا الى بيتنا لاقامة القداس ومباركة الذين أرادوا الاقتراب منه. وفي ثالث وعشرين فبراير صباحا ذهبوا عند القائد عمار، الذي وعدهم بأن يكلم الملك، ويخبرهم عما قليل بما يريد. وعلى الساعة الرابعة من نفس اليوم امتطى الملك صهوة جواده وبصحبته ابن عائشة، واقترب من بيتنا وأرسل في طلب الآباء الذين كانوا بداخله ينتظرون أوامره، وطلب منهم مرة ثانية ماذا يريدون، فأجابه الآباء بأن موضوع مجيئهم هو الفدية ان كان له غرض بها. أمر مولاي اسماعيل باحضار حارس بيتنا على الفور. وسأله كم هو عدد الأسرى الفرنسيين، فقال إنهم مائة وثلاثون. وبناء عليه، طلب الملك الى الاباء هل يريدون افتداءهم جميعا ؟ فأجابوا أنهم لا يملكون سوى 10.000 ريال نقدا.. ولكن إن قبل ان يسلمهم جميعا مقابل 200.000 ريال، فانهم يدفعون له النصف، ويأخذون نصف الاسرى، ثم يعود ثلاثة رهبان الى فرنسا لاحضار 10.000 ريال الباقية التي تنقصهم، وسيبقى راهب مع ذلك كرهينة. طلب منهم الملك 30.000 ريال مثل فدية اسبانيا دفعوها في مقابل افتداء مائتي اسباني. لكن الاباء بعد أن أدلوا له بعدة مبررات صحيحة، ورأوا انه لا يمكنهم التوصل الى حل احسن، لم يَعدُوا بأكثر من ذلك. فاضطر مولاي اسماعيل الى أن يقول لهم إنه سيعطيهم ثلاثين أسيرا باختياره، مقابل 10.000 ريال. فبين له الآباء أن ذلك قليل جدا وأن رؤساءهم والأساقفة الذين أوفدوهم سيوبخونهم، وأنهم يناشدونه ان يعيطهم خمسين على الاقل، فقبل الملك ذلك.

وفي نفس الوقت أرسل حراسه الى جميع أوراش العمل ليحضروا أمامه جميع الفرنسيين. وأمر بأن نقف مصطفين قرب أسوار بيتنا، وشرع بنفسه في اختيار كل الذين الهمه الله ان يختارهم. كان مقصوده ألا يعطي إلا من كان اكثر فقرا وأقل احتمالا للاشغال الشاقة التي كان يستخدمنا فيها. ولكن ابن عائشة الذي كان دائما بقربه، والذي استحضره خصيصا لأنه هو الذي أسرنا كلنا تقريبا، انتقى منهم كثيرا قال للملك إنهم رياس وتجار، يمكنهم أن يقدموا فديات أكثر بكثير.

أما أنا فحينما رأى أني ما زالت لدي بعض القوة لتحمل أسر أطول، لم يشر إلي بالانصراف، ولكن بما أنني كنت أفهم كل ما يقال، وانه كان يعاتبنا على تباطئنا في طلب حريتنا منه، فقد خرقت الحشد متوكلا على الله، ووضعت ركبتي على الارض التي قبلتها عدة مرات بين يديه وأنا ابتهل زاحفا نحوه حتى وصلت الى قوائم فرسه مبينا له أنني أسير منذ أحد عشر عاما، وأني أقدم الجماعة كلها. فقير محروم من أي اغاثة بشرية، لا انتظر سراحي الا من بركة الله وبركته، وأن الساعة أتت حيث أرسلت العناية الربانية الآباء لخلاصي، وأنه اذا كان غرضه تحرير أفقر الأسرى فليس عنده أفقر مني. أنصت الملك جيدا إلى مبرراتي، لكنها لم تقنعه، فأمر حراسه بسحبي من أمامه، فامتثلوا في الحين، ومع ذلك لم أيأس. وبما أني كنت راضيا تماما بقضاء الله في كل ما سيصيبني فقد أردت أن أحاول مرة ثانية لأرى ما عسى أن يكون حظي حسنا أم سيئا، فاقتربت من الملك، مثلما فعلت في المرة الاولى. وعندما رآني مولاي اسماعيل عند قدميه مرة ثانية، نادى الحارس وسأله عن العمل الذي أقوم به وبأي شيء أشتغل. فقال له الحارس إنه يستخدم تارة لسحق الالوان،وتارة لخدمة النقاشين على الجبس. فصاح الملك : كيف ؟ منذ أحد عشر عاما لم يتعلم حرفة أخرى ؟ انه غبي، لو جاء جديد لتعلم عمله خلال أربعة ايام !» ثم قال لي : «سر ! انك حر !» فقبلت الارض شاكرا، وانصرفت مع الآخرين الذين سبق أن اجازهم. ثم عاد الي بعد هنيهة، وأمر حراسه بازالة منديل كان على رأسي وضعته من أجل البرد، ولقلة شعري ففحصني من الرجلين الى الرأس وأمرهم بإلحاقي بالباقين. أسرعت الى تقبيل قوائم فرسه أكثر مما اسرعوا لاخذي معيداً توسلاتي، فسأل مرة اخرى عن عملي، ثم تركني أنصرف.

وبعد أن عزل الملك جميع الذين أراد تسريحهم، أمر بأن نساق أمامه الى

الباب الرئيسي الذي يتم الخروج بواسطته من القصر. ثم أمر بايقافنا وعدنا من جديد. وبالرغم على أنه وعد بخمسين، فاننا لم نكن سوى خمسة وأربعين. وحتى لا يعطي أكثر، قام بدور طريف، لكنه أفزعني كثيرا. ذلك أنه عزل منا الخمسة الذين بالغوا اكثر في التوسل اليه، ومنهم بيرنار بوصي ثم قال للرهبان «ردوا لي هؤلاء الأسرى الخمسة الذين تركتهم لكم والذين هم القدامى، وسأعطيكم مكانهم عشرة آخرين يتممون عدد الخمسين الذي وعدتكم به». فرد عليه الاباء، وكانوا يعرفون نباهته وأنه لم يفعل ذلك إلا لكي لا يعطي أكثر، وقالوا لارضائه إنهم يكتفون بنا، ثم اطلق سراحنا.

وفي هذه الأثناء تركنا الملك وأمر بإخراجنا من القصر وتسليمنا إلى الرهبان. وفي يوم الغد عاد هؤلاء الى القصر يلتمسون من الملك أيضا أسرى آخرين استوصوا بهم كثيرا، لكن الملك لم يقبل إعطاءهم بأقل من خمسمائة ريال عن كل واحد. ولدى عودتهم كان بعض الاسرى من منطقة بروطون السفلى قد اغتاظوا لكونهم لم يفتدوا، ظانين أنهم لن يفتدوا أبدا، وأمسكوا الاب مونيل وضغطوا عليه بقوة حتى كانوا يخنقونه، لولا تدخل قائد حرس الباب الخارجي للحريم لانقاذه. ولما رجع الى المكان الذي كنا فيه لم يكن قد هدأ روعه بعد من عمل قبيح غير منتظر بهذا القدر كاد أن يفقد الحياة بين أيدي أولئك الشرسين الافظاظ. وجاء اخرون لم يكونوا اكثر تعقلا من أولئك، وصبوا على الرهبان آلاف اللعنات، مدفوعين الى ذلك باليأس وضعف الامل في الخلاص من أسر شديد كهذا.

غادرنا مكناس في اليوم الخامس والعشرين من فبراير 1681، مع الاب مونيل والاخ كاسطيل. أما الاب ميج فقد ذهب الى سلا مع ابن عائشة حيث أقام نحو شهر، لافتداء ستة عشر أسيرا اتى بهم بعد ذلك الى تطوان. وقبل أن تختفي مكناس عن ناظري، أريد أن أصف الحالة التي تركتها عليها.

وصف مدينة مكناس

تبعد مكناس عن فاس باثني عشر فرسخا، وتقع ثلاثة من جبال زرهون الشامخة في شمالها. وستة من جبال صفرو التي هي من الاطلس في جنوبها،

كما تبعد بخمسة وعشرين فرسخا عن مدينة سلا الواقعة في غربها. تربة مكناس خصبة تكثر فيها جميع أنواع الحبوب والمواشي والزيتون والبساتين. هواؤها معتدل جدا وأصح بكثير من هواء فاس. لهذا فان مولاي اسماعيل الحاكم حاليا، بني فيها بلصق المدينة حصنا وقصرا ودورا للحريم على نفس طراز أبنية فاس. إنها مزدانة بعدة بروج مربعة، مغطاة بقرمد أخضر يعطيها من بعيد منظرا خلابا. ولهذا القصر ثلاثة أسوار من جهة الشمال الشرقي. عرض الأول ستة أشبار، وعلوه من الخارج أزيد من ستة باعات، وهي محصنة ببروج مربعة ومسننة. بين هذا السور والسور الثاني ساحة كبرى مربعة تدعى الروامزين، وعرض السور الثاني ثلاثون شبرا في الطابق الارضي، وعلوه ثمانية باعات فوق الارض. وهو مشيد بشكل منحدر حتى لا يبقى في الاعلى سوى عرض عشرة أشبار. ويوجد على جانب هذا السور جداران صغيران عرضهما ثلاثة أشبار في كل واحد وعلوهما أكثر من قامة انسان، يستعملان لوضع الحراس السود الذين يقيمون في البروج في مأمن من الداخل والخارج، ويمكنهم من أن يدوروا حول الحصن دون أن يراهم احد. أما السور الثالث فيصلح كسور للحريم، وهو أعلى بكثير من الاولين، اذ يبلغ ارتفاعه 12 باعا على الاقل، كما ان له شرفاته وكوات مدافعه، ويقوم الخصيان بحراسته ليلا، واما الجوانب الاخرى فانها غير محاطة إلا بسور واحد عرضه عشرة أشبار، محصن من كل جهة بأبراج عالية مربعة وببستيونين من جهة شرق الجنوب الشرقي.

وهناك ثلاثة ابواب : الباب الرئيسي الذي ينظر الى جهة الجنوب الشرقي، ويسمى باب القلعة، أو باب الحقول، وعلى جانبيه برجان عاليان مربعان على كل واحد منهما ثلاث زهرات زنبق وضعناها فيه عام 1677، بينما توجد المقبرة أمامه ؛ والباب الثاني الذي يطل على الروامزين يدعى باب الحجر، لانه مبني بالحجر المنحوت؛ والثالث الذي يطل على المدينة يدعى باب المدينة. يحرس هذه الابواب سود، ما عدا الباب الرئيسي، الذي كلف الملك الاسلاميين بحراسته عندما لا يكون خارجا لحركة. هذا الحصن طوله أكثر من عرضه وجزؤه الواقع بجهة الجنوب الغربي أضيق بكثير من الجزء الواقع في الشمال الشرقي. وفي هذا المكان وُضعت كنوز مولاي اسماعيل ومولاي رشيد، وهي عظيمة هائلة، وبينهما المقبرة في الجنوب الشرقي، وهناك حصن صغير اخر شيد عام 1680، يدعى الأداية، عرض أسواره ستة أشبار، وبجانبه بروج مربعة ذات شرفات.

تقع مدينة مكناس مباشرة تحت الحصن الكبير من جهة الشمال الغربي. وهي تقريبا في حجم شارتر، ومشيدة في سهل لطيف جميل، وتابعة لاقليم سايس مثل مدينة فاس. تجارتها الرئيسية هي الحبوب والجلد والشموع، لبورجوازييها متاجر كبيرة، وكذلك الصوف. وسكانها وديعون هادئون، اكثر وفاء لامرائهم من سكان فاس وسلا. ان واد بهت الذي يبعد عن مكناس بستة فراسخ في طريق سلا، وكذلك واد بوعماير، الذي يمر شمال شرق المدينة على بعد مرمى بندقية يمزجان مياههما في نفس البحيرة الواقعة في جانب اقليم الغرب، قريبا من واد سبو. ويوجد قريبا جدا من هناك، باتجاه فاس، غابة جميلة من شجر الزيتون مع عدد من البساتين في كلا ضفتي النهر، تشغّل نفس السكان في الفلاحة، وتعطي الكثير من الثمار والبقول التابعة لها.

وتنتج أشجار البرتقال، والرمان، والليمون الحلو والحامض، والسفرجل، والجوز، واللوز، والزيتون والتين بدون عناء، لانها لا تحتاج الى سقي. وكذلك الاجاص، والتفاح، والبرقوق والمشمش، ولا حتى الخس والكرنب والسلجم والجزر واللفت الرجلة، المعدنوس، السرفيل، والبطيخ، والخيار والقرعة والبصل والفول والجلبان والثوم، وعدة أنواع اخرى قد يطول وصفها. وينتج جبل زرهون الشاهق المجاور لمكناس كمية من العنب الدمشقي والزيتون، تشكل أهم تجارة البربر الذين يقطنون في ثلاث أو أربع قرى جيدة مع سكان مكناس.

وصف مولاي إسماعيل

وما دمنا في مدينة مكناس، مقر بلاط الملك، فلن يكون من غير المناسب أن نقول كلمة عن شخص هذا الامير، الذي طالما اتيحت لي الفرصة لمشاهدته لفائدتي، وكذلك حاشيته العادية. ان مولاي اسماعيل الحسني، ملك فاس ومراكش وتافيلالت عمره سبع وثلاثون سنة. وهو طويل القامة الى حد، لكنه نحيف جدا ولو أنه يظهر غليظا بسبب ثيابه. ووجهه الكستنائي اللون الفاتح طويل شيئا ما، حسن الملامح ذو لحية طويلة ومتفرعة قليلا، ونظره الذي يبدو عذبا الى حد لا يدل على انسانيته، بل بالعكس، انه شديد قاس الى درجة أن رعاياه يقولون إنه لم يسبق لهم أمير يضاهيه، إضافة الى أنه يهتم بنفسه بصفائح

ومسامير الخيل، وبالافاويه والعقاقير والسمن والعسل، وتفاهات اخرى توجد في مخازنه، مما لا يهتم به عادة أمير كبير مثله .

ومن جهة أخرى، فانه خبير جدا بالحرب، شجاع عظيم في شخصه، يسير دائما على رأس جنوده، ويصففهم بنفسه عند المعركة. يكون دائما هو المهاجم الأول لأعدائه ولا يفر أبدا. وهو صبور في الشدائد، بالرغم على أنه مراراً كثيرة كان على وشك فقد إماراته، واذا ذكر بنكباته لم يزد على القول «اذا كان الله قد آتاه الملك وقضى له بأن يحكم دهرا طويلا فلا يستطيع أحد أن يمنعه من ذلك» له مهارة خاصة في ركوب الخيل والطعن بالرمح. ولقد رأيته مرارا يمسك أحد أبنائه في ذراع، والرمح في يده الاخرى، ويعدو مسافة طويلة دون ان يكبو فرسه. ويوجد دائما في حاشيته العديد من الشرفاء والقواد، ينيف عددهم على مائتين، مرتدين الزي التقليدي برشاقة، ويرافقونه على ظهور الجياد صباح مساء، عندما يذهب للتفسح، فضلا عن أربعة الاف من حراسه السود العاديين، الذين يعيشون في الخيام حول مدينة مكناس.

ولكن لنتابع مسيرتنا. فلما لحق بنا الأب ميج أخيرا بتطوان، حيث كان الاب انياس بيرنيد مقيما بمال الفداء، فسلمه الى محمد الحاج تمين[1] خليفة القائد علي بن عبد الله الحمامي عامل هذه المدينة، الذي رأيناه هذه السنة في باريس كسفير لملك المغرب. وبعد أن أقمنا فيها عدة أسابيع وافتدينا جميع الفرنسيين الذين كانوا في ملكه، فان ذلك الرجل الشرير القى علينا القبض جميعا وسجننا، ولم يقبل اطلاق سراح الآباء ولا الأسرى ما لم نؤد له مكوس الأبواب وهي ستة وعشرون ريالا عن كل رأس. وعندما قبض ذلك المال نفانا الى شاطىء البحر، في مكان يدعى مارتين يبعد عن المدينة بأكثر من فرسخ. ومنع الرهبان والاسرى على حد سواء من العودة الى المدينة اطلاقا تحت طائلة استرقاقهم، فأقمنا طيلة عشرين يوما معرضين لقساوة الفصل، لا ملجأ لنا ضد المطر المتهاطل بغزارة، سوى أكواخ من العشب، يخترقها المطر أحيانا، ولم نأكل طوال تلك المدة، سوى قليل من الخبز. وجاء ذلك العامل البخيل، وهو اخو القائد عمرو حدو، ذات يوم يطالب الآباء بثلاثمائة ريال عن الشهور الثلاثة التي قضوها في البلاد. ولما رأى أنهم رافضون أركبنا في البحر بعنف على ظهر سفينة رديئة لتخرج في

(1) كذا. وهو تصحيف لاسم الحاج تميم

نفس الساعة. وبما ان البحر كان قد تراجع، وهبت ريح شرقية فجأة، فاننا كنا سنهلك على الجرف الرملي لو خرجنا، واضطر الآباء الى دفع الثلاثمائة ريال المفروضة تلافيا لهلاكنا أجمعين.

ولما كان العامل حاضرا وهو يركبنا في البحر هكذا، فقد كنت أول من ركب سفينة السيور بوايي التي كانت ستقلنا الى اسبانيا. وكان ذلك التاجر من أكثر العالمين استقامة، يقيم عادة بتطوان، إلا أنه، بسبب نزاع وقع له مع عاملي القصر وتطوان، من أجل فداء الأسرى، طرد من البلاد وطلب إلي أن أكتب له بعض البيانات المتعلقة بالحالة الراهنة لتجارته، ليبعث بها الى مراسليه في مرسيليا، فقمت بذلك بسرور. وكان يهودي قد أوفده القائد الى السفينة فرآني اكتب، ونزل بسرعة الي الارض وأخبر العامل بأنه رأى أحد الأسرى الذين افتدوا أخيراً يستخدم كاتبا لبوايي ويضع له حسابا، الامر الذي يفرض أنه شخص غني يحسن الاحتفاظ به، ورد المبلغ الذي دفع عنه الى الآباء حتى يطالب فيما بعد بفدية كبيرة ضخمة. شكره العامل على حماسه وأرسل حراسه في طلبي. ولما مثلت بين يديه، وقد ظن أنني أسير جديد، سألني باللغة الاسبانية بواسطة اليهودي ذاته عن موطني وعن سيدي السابق، فأجبته باللغة العربية بأنني من باريس وانني كنت في ملك الملك طوال تسع سنوات وأنني أقمت قبل بسلا خلال سنتين عند القائد احمد بن يوكورت، أحد اقاربه الذي كان اذ ذاك عاملا بها. وقد عرفني أحد حراس القائد لانه كان مقيما بسلا ايام كنت فيها، فأكد له بأن كلامي حق، رأى القائد ان لا أمل في إبقائي، فنهض فجأة وامتطى فرسه دون أن يقول لي شيئا، وبهذه الوسيلة تخلصت بأحسن طريقة مما كنت أظن.

وصف تطوان

غادرنا تطوان في 15 ماي. وسأتابع طريقتي الى النهاية، فأقول كلمة مختصرة عن هذه المدينة : إنها مشيدة على صخرة في منحدر جبل، وليست الأسوار متينة في حد ذاتها ولكن الصخور التي بنيت عليها تجعلها أكثر مناعة مما لو بنيت على غيرها. وهي على شكل صليب سان أندري. وحصنها الواقع جهة الغرب في وسط الجبل يتحكم فيها تماما. وسكانها في غاية الثراء سواء

بسبب القرصنة التي يباشرونها، أو بسبب التجارة التي يمارسونها مع مملكة الجزائر ومع مدينتي طنجة وسبتة. وفي أسفل المدينة سهل جميل جدا يشتمل على عدة بساتين وكروم، هذا السهل الذي تقدر دائرته بخمسة فراسخ وتحيط به جبال صخرية شامخة حصين جدا، فيه انواع الثمار، ويخترقه في الوسط نهر كبير، تلتجىء اليه سفنهم الشراعية وحراقاتهم وغليوناتهم.

يستخرج من هذه المدينة كمية من الشموع والجلود والعنب الدمشقي الممتاز تصدَّر الى أوروبا. وتوجد في وسط المدينة مطمورة كبيرة تستعمل كرمس حي للاسرى المساكين، ما يزال كثير منهم فيها حتى اليوم لم يخرجوا منها منذ أزيد من عشر سنوات، وكان يعولهم دائما تقريبا السيور بوايي التاجر البروفانسي من كاسيس بتبرعاته، ولم يتخل عنهم قط. جل سكان هذه المدينة أندلسيون، وهم المسلمون الذين طردوا من اسبانيا، مع العديد من اليهود المقيمين في جهة باب البحر. (وبما انها تبعد عن البحر بفرسخين) فاذا لاحت بعض السفن على الساحل، أخبر السكان بواسطة نيران توقد في البروج قصد اخذ السلاح والخروج الى الشاطىء.

وفي اليوم الموالي لخروجنا من تطوان، وصلنا الى مالقة باسبانيا، فقمنا بالطواف حول الكنيسة، واستقبلنا الآباء الوقورون للاميرسي وجميع الاسبانيين استقبال الظفر، وبعد أن بالغوا في اكرامنا أقلعنا في اليوم الخامس عشر باتجاه فرنسا، حيث وصلنا الى مرسيليا في السادس والعشرين من نفس الشهر. ولم نرغم على الحجر الصحي الاربعيني الا خمسة عشر يوما، قمنا بعدها بالطواف بالكنيسة، حيث حمل بيرنار بوصي علنا لوحة لاظهار الاغاثة التي ارسلها الله إليه. وفي يوم العيد الالهي، ذهبنا الى سيوطاط، حيث رافقنا الشعب كله في الطواف وراء القربان المقدس، مع ما يزيد عن 2 000 شمعة موقدة. وقد مزقت قلوبنا زفرات ودموع العديد من الاشخاص كان أهلهم في بلاد البربر، وسط مظاهر الاستبشار والحبور. وكنا في يوم السبت الموالي بطولون، ولدى مرورنا بكاسطيلي، حمل بوصي لوحته الى كنيسة القديسة آن، وأودعها هناك.

غادرت طولون يوم الاحد صباحا، مع أربعة آخرين للذهاب الى سانت يوم، حيث حظيت برؤية الاماكن المقدسة التي كفرت فيها لامادلين عن سيئاتها.

وبعد يومين وصلنا الى ايكس، حيث باركنا سيادة الكاردينال دوكريمالدي، وحيث إنه لم يكن في استطاعتي اتباع الآخرين، فان الأب كارتيي، الذي كان قد ارسل من باريس لاستقبالنا بمرسيليا، والذي كان يقودنا لكون الاب مونيل بقي في مرسيليا، يسوي قضاياه مع تاجر يوناني من سيو يدعى هورانزو كان أقرضهم مالا، هذا الاب الطيب أعارني فرسه لأذهب إلى أفينيون، حيث أمر بإركابي على نهر الرون. ان ذلك الراهب الذي تفوق خاصيته وحماسه كل ما يمكن أن أقوله عنه، قد اختاره دير باريس ـ كما قلت ـ ليستقبلنا في بروفانس. وفعلا لم يكن من الممكن تعيين عنصر أقدر منه، اذ لولاه لما وصل الى باريس نصف الأسرى الذين جاؤوها. وفي الوقت الذي لم يكن فيه سوى قانوني أسره الاتراك وساقوه الى طرابلس حيث ذاق الامرين طوال الثماني سنوات التي أقام فيها، وسينشر قصته عما قريب. ولدى رجوعه الى فرنسا، نبذ نبذا ظهريا جميع مسرات الدنيا، حتى ليتفرَّغ للتفكر في الاخرةِ التي يتوغل فيها انطلاقا من تأملات عميقة، حتى أصبح مضرب المثل لجميع أفراد رهبانيته.

وعندما وصلنا الى ليون، خصص لنا رهبان الثالوث الاقدس استقبالات حارة وأكرمونا كثيرا بعد أن صحبونا في الطواف الكنيسي الذي قمنا به هناك. ومن ليون سرنا الى ماكون التي احتفل بنا فيها ايضا سيادة الأسقف، ثم انصرفنا الى شالون على الصون، ومن هناك الى بوركوني، مرورا بأرل دوك وصوليو، وأفالون وشابليس. وقد استقبلنا في هذه المدينة التي هي مسقط رأس الاب كارتيي، بكل انواع الهتافات، وسقانا اهل ذلك الاب الطيب كل اصناف المنعشات طيلة يومين، وقصدنا بعد ذلك اوكسر، وجوانيي وسانس، ووصلنا الى باريس يوم 19 يوليوز، وقد مضى على مغادرتي لباريس أحد عشر عاما الا اثني عشر يوما.

ان الاب جوزيف سونيو، النائب العام للرهبانية، رجل دين على جانب كبير من التقشف والتنسك يساعده الاباء أوفري، اسقف الابرشية سابقا، والنائب العام للرهبانية، والدكتور في علم اللاهوت، الخطيب الشهير المنقذ، وبلاندينيير اسقف ابرشية لكوبيلين حاليا. والابوان المنقذان مونيل وكارتيي، وسائر الرهبان في انتظام حسن. جاء لاستقبالنا عند يعاقبة الدير الكبير، وذهبوا بنا في طواف الى نوتردام، حيث رتلنا «تي ديوم». وفي الايام التالية ساروا بنا الى سان

سولبيس، في سان روك، حيث قام سيادة الخوري بتبرعاته الخصوصية الى سان بول، لحمد الله وشكره والى سيدتنا دو لا ميرسي، لحسن خلاصنا. وبعد ان قادونا الى فيرساي، تشرفنا بالسلام على صاحب الجلالة الذي لم تكن رؤيته اقل مؤاساة لنا من استرجاع حريتنا.

وذهبت من هناك الى بونيل، مسقط رأسي، حيث وجدت اهلي كلهم ممتلئين حياة، وأصغر اخوتي قد أصبح قسا.

الفصل الحادي عشر

قصة أسير فرنسي فر من طرابلس بعد أن قاسى عدة شدائد، متنكراً في زيّ مرابط أو زاهد مزور، ثم نقل الى مراكش وفاس التي فر منها الى طنجة

بعد أن قصصت في الفصول السالفة أنباء المحن التي شاركت فيها سائر الأسرى، سأعيد هنا وفي الفصول التالية، المغامرات الخاصة ببعضهم، حسبما رووها لي. ولهذا الغرض سأقول ان مولاي رشيد، بعد أن استولى على جبال الاطلس العالية، منح هدية عظيمة لشيخ قسم من هذه الجبال يدعى زايمبي (كذا) وكانت الهدية مشتملة على ثمانية أسرى مسيحيين، وكمية من قطع أقمشة انكليزية وقرمزية، اعطاه الملك اياها ليضمن صداقته أكثر. وكان من جملة اولئك المسيحيين شخص اسباني الجنسية، ابن كاسكوني متجنس بقرطبة، استخدم كطحان للشيخ. لم يكن هذا العمل من أشق الاعمال، ومع ذلك فنظرا لكون ألطف أنواع الاسر مملا دائما وكريها جدا، والرغبة الشديدة للأسرى في الرجوع الى بلادهم، فان الاسباني عزم على البحث عن وسيلة للهروب، ومما سهل ذلك في رأيه أن إقامته منذ عشر سنوات في تلك الفيافي جعلته يعرف جيدا جميع مسالكها.

وذات يوم، عندما كان متوجها الى قصر سيده، وكان بعيدا شيئا ما عن طاحونته، انشغل باله بما كان عليه أن يفعل، فصادف على مقربة من ذلك القصر مرابطا او ناسكا، يسب بكلمات فرنسية كلابا همت بعضه. فسأله

الاسباني الذي كان يفهم شيئا من تلك اللغة، نظرا لأنه كان ابن كاسكوني، متعجبا من سماع مثل ذلك الكلام في تلك البقاع من لدن رجل لا يظهر أنه تعلم ذلك في البلاد التي يوجد فيها. ولازالة كل اضطراب فكري سأله بنفس اللغة لماذا اراد أن يضرب كلاب سيده؟ وما الداعي الى التنكر هكذا؟

فوجىء المرابط قليلا، وقد ظن أنه احد الاسلاميين، لكنه لم يلبث أن زال عنه الفزع الذي وقع فيه بسبب سماعه يتكلم بلغة غير عربية، وأجاب قائلا : «يا ابن الكلب، لماذا تسبني وأنا مرابط ؟» فرد عليه الاسباني دائما بالفرنسية : «لا، لا، لا تتنكر تحت هذا القناع. إني أعرف جيداً من أنت، وان لم تصارحني بالحقيقة فاني سأعاقبك : لا شك انك لا تعلم من هو سيدي عندما تناديني بابن الكلب. ولكنك ستعلم أن شيخ هذه الجبال هو سيدي الذي سيأمر بقتلك في الحين بمجرد ما سأقص عليه ما رأيت. اعترف لي بأنك لست سوى مشعوذ تسير هكذا متسكعا لخدع المغاربة. فاذا فعلت وعدتك بعهد المسيحي الذي هو أنا، وان كشفت لي عن طويتك لن يمسك سوء، والا فسيكون موتك محققا» فرح المرابط كثيرا لمصادفته شخصا مسيحيا في قلب تلك الفيافي.

وبعد أن اطمأن قليلا والقى نظرة حوله ليرى ان كان هناك احد يمكن أن يفاجئهما صرح للاسباني بأنه أيضا مسيحي، ثم عانق كل منهما الاخر. وبعد ذلك سأل المرابط المزعوم الآخر هل هو كاسكوني، نظرا للهجته الكاسكونية، فاجاب الاسباني : «كلا، انني كستياني من مواليد قرطبة، ولكن ابن فرنسي تزوج فيها منذ عدة سنوات» فقال المرابط : «لنتكلم إذن بالاسبانية، حيث إنني تعلمت هذه اللغة قديما في مدينة غرناطة» قال الاسباني «قل لي كم قضيت من الوقت هنا ؟ فإذا حكيت لي مغامراتك التي أتوقع أنها خاصة جدا، وعرّفتني على سبب تنكرك، حكيت لك مغامراتي التي تعد شيئا قليلا بالنسبة لما سأعلمه منك».

أجاب المرابط : قبلت ما دمت تريد ذلك، وانك سيدي هنا، لكن، قبل ان نبدأ يجب ان نختبىء في مكان لا تزعجنا فيه حرارة الشمس، ولا يرانا احد مجتمعين». قال الاسباني : «اتبعني هنالك طاحونة اديرها منذ عشر سنوات، وقد جعلت فيها حديقة صغيرة لطيفة» ولما وصلا إليها، ناوله الاسباني الذي كان

يسمى سيباستيان، أكلة خفيفة وسقاه بعض جرعات من ماء الحياة، ثم تركه يستريح. وبعد ما استيقظ، أخذه الى حديقته تحت ظل بعض أشجار الليمون وطلب منه ثانية ان يقص عليه مغمراته، فقال له المرابط ما مجمله انني مسيحي، ولله الحمد، كما قلت لك عند عناقنا الاول، ومسقط رأسي هو بوردو التي قضيت فيها شبابي في دراسة الآداب القديمة. ولما بلغت الثامنة عشرة من عمري، اراد والدي الذي كان تاجرا ان أتعلم التجارة كذلك، وأرسلني لاقيم بمالقة في اسبانيا، حيث مكثت سنة واحدة ثم ذهبت الى غرناطة، فاقمت بها سبع سنوات شغفت خلالها بأرملة جميلة وانتهى بكيفية تعسة. كانت تلك الشابة، المتمتعة بالنباهة أكثر منها بالثروة مع كونها ذات منزلة رفيعة، وكانت تعرف أنها لا تنقصني، هي اول من عبرت لي عن المحبة وعرفت كيف تستولي علي جيدا، ولما كان فؤادي ما زال خاليا لم يتعلق بعد باحد استسلم لها كليا وكانت كلمات الغزل هي أولى محادثاتنا، لكن نظرا الى أن جيرانها كانوا يراقبونها بدقة، وهم أهلها، وخاصة دُن مانويل مونريكيس، ابن عمها الشقيق، فلم أتمكن قط من الدخول الى منزلها. وبما انها كانت لا تغادره أبدا إلا للذهاب الى الكنائس، بمعية بنات دن مانويل انفسهن، فإنها كانت تستخدم امة لها مغربية لتسلمني خطاباتها وتبلغها اجوبتي. ولما اشتدت صبابتها ولم تستطع مقاومتها، لجأت الى حيلة لتأتيني كل ليلة، تلك الحيلة التي تجعلتني ارتعش كلما تذكرتها. ولو لم تكن كاستيانيا لتعلم الى أي حد يمكن أن يؤدي الهيام بامرأة اسبانية لما أعدته عليك، لان ذلك يعد اسطورة في اي مكان آخر.

«لتعلم أنها كانت، على الساعة الحادية عشرة ليلا، ترتدي لباسا أبيض تماما وتأخذ غطاء من القماش الابيض ايضا تجعله على رأس عصا طويلة تسقط على كتفيها، فتظهر كانها شبح. وتربط في نطاقها سلاسل طويلة من حديد تجرها عبر الأزقة. وقد انتشر الفزع في حيها الذي جئت أقطنه من أجل حبها، الى درجة أنه لم يعد أحد يجرؤ على المرور به بعد ان تدق الساعة العاشرة، فكان باب منزلي لا يغلق أبدا حتى تدخل. وبعد أن تمكث فيه وقتا طويلا، كانت تنصرف كما جاءت. لكن احدى الليالي كانت تعسة عليها، ذلك أن سكيرين لا يخشيان شيئا انتظراها بثبات عندما سمعاها بقصد مهاجمتها، فارتعدت فرائصها حين اقتربت منهما، ورأت انهما موطدان العزم على ذلك.

وأمالت عصاها نحوهما لافزاعهما، كانها تريد دحرهما، ففر أقلهما جرأة على الفور، لكن الآخر، وهو اثبت جنانا، وكانت له شجاعة «السيد»، هاجمها ببسالة شاكي السلاح، وطعنها طعنتين من جانب إلى آخر، ولما أحست بالجرح، اطلقت صرخة مدوية حتى سقط السكير مغشيا عليه.

وبينما هما منجدلان على الارض مر العسس، وعندما رآهما على تلك الحال أراد أن يعرف جلية الأمر. فطلبت السيدة راهبا مرشدا، وصرح السكير الذي انتبه على اثر ضربات بسذاجة انه داهم شبحا وطعنه بضربات سيفه. أيقظ العسس بعض الجيران ذهبوا للبحث عن جراح وهم يصيحون عبر الازقة بأن الشبح قد ألقي عليه القبض. ولما سمعت بهذا الخبر، وكنت مساهما في جريمتها وخشيت أن تفضحني هي أو الامة المغربية، اخذت كل ما لي معي عند مطلع الفجر، وبمساعدة بعض المغاربة الذين قدمت لهم مكافأة جيدة وضعت بضاعتي في أحد الأديرة وركبت عربة البريد في نفس اليوم للتوجه الى كارطاجين، بقصد الابحار فورا والالتجاء الى مرسيليا.

الوصولُ إلى مالطة

ولما وصلت الى هذه المدينة، لم يكن فيها أي سفينة فرنسية، وانما يوجد مركب انجليزي (فليبوت) كان عليه ان ينزل اقمشة في مالطة، ويعود بعد ذلك الى مرسيليا لشحن الصابون. ولما كنت اخشى أن يرسل قاضي غرناطة في طلبي، وحتى لا أضيع الفرصة لأكون في مأمن بعد أن كتبت إلى أصحابي، امتطيت متن ذلك المركب، وأبحرنا نحو تلك الجزيرة الشهيرة الذائعة الصيت بسبب الغارات التي تصدت لها، وللمكاسب الحربية التي يحققها فرسانها كل يوم ضد المسلمين[1] وصلنا الى مالطة بعد مسيرة خمسة عشر يوما، نزلت الى البر أولا مع القائد، وادليت بالأوراق المتعلقة بالصحة. وبعد أن منحت رخصة الدخول تشرفت بأن ذهبت لاقدم تحياتي للرئيس الكبير.

عرفني بعض فرسان كوِيان، كنت درست معهم في بوردو وصحبوني الى فندقهم، حيث أكرموني مرارا. ولما لم يكن ينقصني المال فقد أبيت إلا أن

(1) عبر عنهم كعادته بالكفار

أعاملهم بالمثل. ولما انزل مركبنا حمولته الى الأرض، وشحنوه بما كان يلزمه ارسل إلي القائد ذات يوم، وقد أراد أن يبحر، يقول إن وقت الركوب قد حان لانه لم يرد ان تفوته فرصة الريح المساعدة.

وفي الوقت الذي وصلني فيه ذلك الخبر، كنت أتسلى مع الفرسان، فقلت لهم إنني ذاهب، وفعلا كنت استعد للانصراف، فاذا بمالطية شابة جميلة جدا، انيقة وظريفة (تعزف على العود بشكل رائع) دخلت الى غرفتنا، فسحرت لبّي الى درجة انني فقدت ذاكرة ما كنت سأفعله، وأضفت على الحديث فتنة ومتعة حتى كاد الليل يرخي سدوله عندما أردت مفارقتها، وذهبت على اثر ذلك الى الميناء قصد الابحار، لكن القائد كان قد أقلع ولم يعد يظهر تقريبا مع مركبه. أسرع الفرسان لمواساتي قائلين إن جزيرتهم مكان مقام ساحر، يصادف فيه كل ما يوفر ملذات الحياة ولم تستهجن ضيفتي التي كانت بارعة الجمال ولم تشمئز من الرنو اليها بشغف، عندما اردت المشاركة في ذلك ولكن، لما رأيت انها تسمح للآخرين بمداعبتها فقدت تماما التقدير الذي كنت اكنه لها.

وفي نفس الوقت وصل الى المرسى مركب من بروفونس، يدعى الفرس البحري، وربانه يسمى كلود روردان دوكاسيس، ركبه بمرسيليا ليتوجه الى الاسكندرية. ولما رأيت انه لا يوجد مركب للعودة الى فرنسا، وكنت أتحمل نفقة كبيرة بمالطة، طلبت الى السيور بانس الذي كان كاتبه، هل أستطيع العبور معهم للذهاب الى القاهرة العظمى التي كنت أرغب في مشاهدتها. وبعد أن أطلع السيور بانس الربان، عاد ليؤكد لي من قبله انه سعيد بأن أكون في رفقته. وقد امتنع ذلك الربان الذي كان أكثر الناس استقامة من أن يأخذ مني اي شيء تسبيقا عن هذه الرحلة. وبعدما أكرمته جيدا هو والسيور بانس، غادرنا مالطة بريح مسترال المساعدة بقدر ما كنا نتمناه، لكنها لم تدم طويلا. ذلك ان ريحا يونانية هبت في الليلة الموالية وهيجت البحر، حتى إن الامواج المتلاطمة بعضها ببعض كادت تتلف مركبنا، الذي لم ينجح من شدتها إلا لكونه كان جديدا، فقطعنا صوارينا وسوارينا وسقطت في البحر، كما كنا على وشك قذف حمولة الباخرة لتخفيفها. لكن هدأت الرياح مساء الغد وتحولت الى طرامونطان (ريح الشمال)، وسكن البحر شيئا فشيئا والتحقنا بصار واحد وشرع واحد بجزيرة لامبادوز التي لا تبعد كثيرا عن تونس.

وصـف لامبـادوز

وعلى الرغم من أن هذه الجزيرة غير مأهولة، فانها لا تخلو من ذلك من أن تستعمل كمخازن للسفن التي تسير في البحر المتوسط. وبعد أن دخلنا الى مرساها، نزلنا الى اليابسة، وسرنا مسافة نصف ميل لنحمد الله، في كنيسة صغيرة مهداة لسيدتنا (مريم) وقد فوجئت بمشاهدة كمية كبيرة من جميع لوازم الملاحة بحيث يمكن لكل من يحتاج اليها أن يأخذ منها بقدر ما يلزمه، تاركا فقط قيمة كل ما أخذه إما نقداً أو سلعة أو آنية.

ودهشت أيضا لما رأيت أن أحد طرفي المعبد يستعمل كمسجد للأتراك والأفارقة، كما أن الطرف الآخر يستعمل عندنا ككنيسة. وأكد لي الربان أنه تلاقي مرة مع سفينة شراعية من رودس، وانهم أقاموا هم والاتراك صلاتهم في نفس الوقت دون أن ينزعجوا. وزاد قائلا إنه جرب ما كان يقال عن تلك الجزيرة، وهو ان أي مركب لا يستطيع أن يغادر المرسى إذا أخذ أكثر مما يلزمه من الاشياء التي صادف فيها، او اذا لم يؤد قيمتها الحقيقية. والاتراك الذين جربوا ذلك مثلنا، لا يعرفون الى اي شيء يعزون ذلك السر، وان الرهبان الذين يأتون كل سنة من صقلية هم القادرون وحدهم على أخذ المال الموضوع هناك، وجعل جميع الاشياء الصالحة للملاحة مكانه.

كما أكد لي ان عدد كثيرا من الرهبانيات حاولوا أن يقيموا في هذه الجزيرة لكن الخيالات والاشباح التي تظهر فيها ليلا أزعجتهم كثيرا كلما حاولوا ذلك، حتى تركوها.

ان تلك الجزيرة، كما قلت، محايدة (مفتوحة) للجميع، ولا يقدر أي مركب عدو أن يحدث فيها ضررا. وذلك ما قاله لي العديد من ملاحي الشرق انهم جربوه مرارا. أخذنا اذن الصواري، والسواري، والقلاع، والحبال التي كنا بحاجة اليها، ووضعنا نقدا الثمن الذي قد تساويه، ولما أصبح مركبنا صالحا للابحار، أقلعنا مع ريح الطرامونطان التي كانت تساعدنا دائما وساقتنا بدون خطر الى الاسكندرية.

استقبلني قنصلنا احسن استقبال وجاملني أكبر مجاملة، وأقامني في منزله

بالرغم عني، ولم يرد أن يساعدني على النزول في مكان اخر. فقبلت عروضه الكريمة، واعداً إياه أن أجازيه عليها. ثم تجولت في المدينة لمشاهدة عجائبها صحبة السيور بارطيلمي، وهو رجل طيب من مرسيليا كان كاتبا له، فأراني بناء تذكاريا عاليا جدا يبدو كأنه من حصيات ذائبة، اطلقنا عليه النار من بندقية ألمانية، وذهبنا بعد ذلك لمشاهدة الحمامات التي هي تحت الارض في الغالب لتكون ملائمة اكثر، والدور هي الأخرى نصف غرفها تحت الارض، لان الحرارة المفرطة السائدة كل وقت في الاسكندرية تزعج سكانها كثيرا.

وعندما دخلنا الى تلك الحمامات، أقبل علينا شابان تركيان قويا البنية، فصحبانا الى قاعة مبلطة بمربعات مبرنقة ومصبوغة بمختلف الألوان، في وسطها قطعتان كبيرتان من الرخام، يمدد عليهما المستحمون. فتجردنا هناك من ثيابنا التي سلمناها قصد الحراسة الى صبي كان في قاعة صغيرة مجاورة. ولما تمنعت من أن تختفي ثيابي عن رؤيتي بسبب مالي، اكد لي السيور بارطيليمي أن أمانة هؤلاء مجربة، وان ليس علي أي أخشى أي شيء.

ونظراً الى أن الحرارة مستمرة في تلك الحمامات، بسبب النار الموقدة فيها على الدوام، فان السخونة جعلتنا نتصبب عرقا في الحين. فاقترب منا التركيان بمنشفتين بيضاوين ومددانا على الطاولتين الرخاميتين وقضقضا لنا اليدين والرجلين مرارا عديدة، بحيث إنني لم أجد أحلى من ذلك. ثم عركا جسمنا كله عركا جيدا بمنشفتيهما، وبعد أن نشفانا جيدا، دخلنا في حوض ماء دافىء أكملنا فيه استحمامنا، ثم تناولنا ثيابنا وشكرناهما واعطيت كل واحد منهما ربع قرش، وهو، كما يعلم الجميع، نصف ريال فرنسي. فرافقنا ذانك التركيان اللذان لم يتعودا أجرا جيدا كهذا الى خارج الحمام بكثير من المجاملات، فاستغربت أن أرى مثل هذا الادب من قوم يعتبرون عندنا متوحشين.

فـي القاهـرة العظمـى

وبعد أن حمّل قارب كان متوجها الى القاهرة بالسلع التي جاء بها مركبنا، ودعت السيد القنصل، وركبته لصعود النيل أحد أكبر الانهار في الدنيا. يتفرع هذا النهر الشهير الى عدة سواعد، ترى في عاليته وهي تفترق على ذلك الجسم

العظيم لتصب في البحر من عدة مواضع، مما يساعد كثيرا على خصوبة البلاد، اذ يساعد على غمر الارض عندما يفيض ذلك النهر حوالي شهر مارس من كل سنة. وبما أنني لم أكن اعرف احدا بالقاهرة، ذهبت عند السيد القنصل، الذي كان يدعى دوبيروم من مواليد مدينة ديني في بروفانس، ولم يقبل ذلك الرجل الظريف، كما فعل قنصل الاسكندرية، ان أنزل في مكان آخر غير منزله.

وبعد وصولي بيومين، دخل دخولا رسميا الى القاهرة عثمان باشا القادم من القسطنطينية ليحل محل الباشا مراد الذي عين عاملا لحلب، خرجت الميليشيات كلها وجنود الانكشارية، وهم ناشرون اعلامهم، بالاتهم العسكرية لاستقباله على مسافة نحو فرسخ خارج المدينة. وأغلق جميع الاتراك دكاكينهم، واصطفوا عبر الازقة التي سيمر بها، ليعربوا له عن فرحتهم بقدومه، حيث انه كان مشهورا بأنه رجل مستقيم، خلافا لمراد الذي كان في غاية البخل والقسوة، ولذلك كانوا يكرهونه.

شاهدت ذلك الاحتفال الذي بدا لي في غاية الجمال والروعة، اذ أن كل تركي كان مرتديا لباسا فاخرا. ولما وصل عثمان الى باب القصر، قام ببعض التبرعات واستمر الاتراك في غمره بالدعوات، متمنين له عهدا سعيدا.

تنزهت خلال الأيام التالية في تلك البساتين الكبيرة الواقعة على ضفاف النيل، حيث توجد غابات من النخيل، والبرتقال، والليمون الحامض، والتين، والزيتون، واللوز والرمان. كما قمت فيها بقنص الخنزير البري مع كاتب السيد القنصل المسمى مونيي كاباطاس. وذات يوم بينما كنا نطارد بعضها، ابتعدنا عن المدينة بأكثر من ثلاثة فراسخ، لكن لم يقدم على الاساءة الينا أي أحد نظرا لوجود اثنين من انكشاريي حرس القنصل.

وفي اليوم الرابع من مجيىء الباشا، سار القنصل مصحوبا بجميع التجار الفرنسيين، وكنت من بينهم، الى القصر ليرحبوا بمقدمه، ويقدموا له الهدايا المعتادة. فاستقبلنا الباشا بأدب ولياقة، وكان رجلا قويا جدا وعلى جانب من البشاشة. وأخبره بالتقدير العظيم الذي يكنه للسيد نوانطيل، الذي عين منذ قليل سفيرا لفرنسا بالباب العالي، وكانت له معه محادثات متعددة، لاحظ فيها كثيرا من العبقرية، وعزة النفس، والعظمة.

كما أثنى مليا على عاهلنا الذي يحظى اسمه في القسطنطينية بإكبار وتقدير، وقال لنا أخيرا إن الفرنسيين، وهم تحت حكم ملك عظيم كهذا، يستحقون أول رتبة من بين المسيحيين. فشكره القنصل دوبيروم على مدائحه بمجاملات مثلها، وانصرفنا الى منزله حيث أطعم الجماعة.

وصف القاهرة العظمى

قبل أن أخرج من هذه المدينة الشهيرة، سأقول كلمة موجزة عنها. لن اتوقف لاصف لكم باسهاب البحيرات ولا القصور التي تغنيها وتجعل منها احدى اعظم عواصم العالم بأسره. ويكفي ان تعلموا أنها مقسومة الى ثلاث مدن، ليس لها مع ذلك سوى سور خفيف، وتكون في الواقع مجرد بلدات، لكنها كبيرة الى درجة أن الواحدة منها تشتمل على ثمانين ألف كانون. والتي توجد في الوسط على مرتفع تسمى القاهرة، أو مصر، وإحدى الأخريين هي، حسب بعضهم، ممفيس القديمة، او حسب البعض الاخر بابل مصر، والثالثة هي التي كانت تدعى فيما مضى بابكم. ان هذه المدينة، التي كانت عاصمة امبراطورية المصريين طوال عدة قرون، أخضعت الى طاعة الاتراك من طرف امبراطورية المصريين طوال عدة قرون، أخضعت الى طاعة الاتراك من طرف إمبراطورهم سليم الاول، بعد ان انتصر في ثلاث معارك دامية على المماليك، ولقي أثناءها اثنان من سلاطينهم حتفهما، وكان آخرهم يدعى طومان باي. وقد جعل العاهل العثماني منها، بعد هذا الانتصار، مركز بيلير باي، وهو حكم عام على عدة سناجق، هي عبارة عن حكومات خاصة. وهذا هو المنصب الذي احتله الباشا عثمان، الذي تحدثت عنه آنفا، بدلا من الباشا مراد، الذي ذهب الى حلب.

وبعد أن حُمّل زورقنا بقصد العودة الى الاسكندرية، ودعت القنصل شاكراً له كل العناية التي أبداها لي. وصحبني في گندوله على بعد أكثر من فرسخ، ولدى افتراقنا حياني بطلقات من مدفعين صغيرين كانا في مؤخر الگندول. وصلت الى الاسكندرية بعد أيام قليلة، فحمّل المركب وأخذ ما يحتاجه

من المؤن الضرورية، ثم اقلعنا. فهبت ريح شرقية مساعدة ساقتنا دائما في المؤخر الى ان صرنا على مرأى من قاندي.

أخبر الخادم الذي كان يرقب من أعلى الصاري الكبير الربان بأن سبع بواخر كانت ملتجئة في الجزيرة هي الآن متجهة نحونا. ولم يشك بتاتا في أنها سفن قراصنة طرابلس. لذلك امر بالتخلص من جميع ما يضايق على الجسور. وشحنت مدافعنا بالسلاسل وكرات النحاس والمسامير والرصاص المدعم لمواجهتهم عندما يقتربون منا. وأخرجت من الغرفة بندقيات الفتيلة، وفؤوس السلاح، والرماح القصيرة، والسيوف الضلاع والمسدسات وتسلح كل واحد لفائدته.

معركة مع سبع سفن من طرابلس

وفي هذه الاثناء، اقتربت كثيرا السفن التي نشرت أشرعتها كلها في الريح، وأطلق علينا أميرالها، الذي كان يحمل خمسين الى ستين قطعة من المدافع، قصفة حتى نستسلم. لكن، عندما رأى أننا امتنعنا، اقترب منا اكثر بقليل، وأطلق علينا رشقة من مجموعة مدفعيته قتلت بعض الرصاصات اثنين من ملاحينا أصابتهما في الميمنة، وقطعت ساق آخر. كما ان سفينة تركية هجمت علينا من الجانب الآخر وقابلتنا بنفس الكيفية، دون أن تلحق بنا كبير ضرر. وأما نحن فعندما شاهدنا ما أصابنا، وان عددا كبيرا من الاتراك ظهر على حافات السفن، رددنا عليهم بفوهات مدافعنا، التي أحدثت فرقعة عظيمة نظفت السفينتين من جميع البحارة الذين كانوا على ظهرها، ثم حملنا عليهم مرة ثانية.

انسحب الاميرال التركي ورفيقه، وقامت مقامهما سفينتان أخريان، أطلقتا علينا رصاصا مدعما قطع صوارينا وسوارينا ومقبض الدفة، الامر الذي ضايقنا جدا. وعندما رآنا الاتراك مشتغلين باعادة الكرة، اشتبكوا معنا كل واحد من جانبه، وارغمونا على الانسحاب الى مؤخر السفينة أو مقدمها بينما احتلوا وسطها.

عند ذاك ونحن نقاتل عن قرب، شرعنا في عراك اكثر ما يكون داميا

وأفظع ما شوهد على البحر. كان دخان المدافع والبندقيات يحول دون تعرف الاعداء بعضهم على بعض. ولم نزل نضرب بالسيوف الضلاع، بينما صراخ الجرحى والمحتضرين، تنضم الى الصيحات المرعبة التي يطلقها الاتراك عندما يحاربون، كل ذلك جعل المشهد من أبشع ما يكون في العالم. وبقينا وقتا طويلا مرتبطين بعضنا ببعض، دون ان يتمكنوا من حملنا على الاستسلام. لكننا لم نكن سوى مائة رجل، قتل منهم أزيد من أربعين، ومن جملتهم الربان، وأقبلت المراكب الخمسة الاخرى لاغاثة اصحابهم، فاستسلمنا الى القوة. وفقد الاتراك ما يزيد عن خمسمائة قتلى، فضلا عن الجرحى[1]، وفقد الحياة منّا خمسة وخمسون، وجرح عشرون، كنت في عدادهم.

وبعد استسلامنا، وزع الاميرال على سفنه الرجال الذين كانوا سالمين وترك الذين جرحوا في سفينتنا وركب فيها صواري أخرى، وعين قائدا لها إسلاميا انجليزيا ذهب بنا الى طرابلس.

ولما شفينا من جراحنا، تم بيعنا بالكيفية التي تعرفها بالتجربة والتي يباع بها المسيحيون في افريقيا. فاشتراني محمد باي العامل أو شيخ الاعراب الاكثر ابتعادا عن سيطرة طرابلس، ليسوقني الى فيافيه التي وجدت صعوبة كبيرة في التعود عليها. ولكن حيث إنني كنت المسيحي الوحيد ولابد لي حتما من أن أتكلم باللغة العربية حتى يفهموني فاني تعلمتها جيدا الى درجة أنه لا يوجد احد يظنني من غير اهل البلاد. واكتسبت مودة سيدي شيئا فشيئا، فأطلعته على آدابنا في الحياة، مما راقه الى حد غريب، بحيث إنه لم يشغلني في البداية الا لاتبعه وأحمل رمحه. وهكذا مكثت خمس سنوات متوالية آكل واشرب دون أن أعمل عملا اخر غير ذلك أو ما كنت أرغب فيه. ولكن حدث أن مات أسود كان قائما بنفقة سيدي، فكلفني الباي بتلك المهمة التي منحتني الحرية في الدخول الى خيامه، لاتعرف على ما كان ينقص هناك، ومن ثم أرى نساءه وأتكلم معهن.

كانت هناك ثلاثون خيمة كبيرة تشكل نصف دائرة، ويبعد بعضها عن بعض قليلا، ويكتنفها خندق كبير. كانت نساء الباي وقريباته يعشن في أفخم الخيام، المبطنة بالقطيفة الحمراء والديباج، كما تقيم بعض أرامل أصهاره في

(1) لا حاجة الى التعليق على هذا التهويل المكشوف !.

أخرى أصغر مع بناتهن فقط. وكانت في احدى خيامه أرملة لها بنت شابة جميلة جدا بدأت تتود الي وكلما مررت أمامها كانت تدعوني لاعمل شيئا. ونظراً الى أنني لست عدوا لذلك الجنس، فاني كنت ألبي الدعوة بسرور، لافعل عن طيب خاطر كل ما كانت تأمرني به. وبما انني وقعت في حبال مفاتنها، فقد صرحت لها ذات يوم بما كنت أقاسيه من أجلها. ولما عرفت بغيتي، حثتني على أن أسلم لأتزوج بها. وبما أنني لم أكن أرفض فانها غالبا ما كانت تسمح لي بتصرفات خاصة الى حد ما.

وبينما أنا في خيمتها ذات مرة، وقد ذهبت أمها لتزور احدى نساء الباي كانت قد ولدت، وذهب الباي أيضا الى طرابلس ليحمل الاقمشة، اقتربت منها لاداعبها، فقبلت عن طيب خاطر وسمحت لي بوضع فمي على فمها مدة طويلة. وبينما نحن على تلك الحالة، وقد ساد سكوت عذب يعبر عن أفكارنا أحسن من أروع الخطابات، إذ دخلت أمة سوداء فاجأتنا وأخجلتنا جدا. فناشدناها بكلمات رقيقة لطيفة وهدايا ان لا تقول شيئا. ولكن ما ان أخذت ما جاءت تبحث عنه وتسلمت قطعتين ذهبيتين أعطيتها اياهما، حتى طارت، ان صح التعبير، إلى خيمات الباي لتحكي للأرملة الحالة التي وجدتنا عليها.

اعتذرت تلك المرأة للجماعة حالا وأسرعت وهي غضبى حنقة، ولما لقيتني في الطريق هددتني باحراقي حيا، لا غير، لدى رجوع الباي. ولما وصلت الى الخيمة امسكت البنت من شعرها، وداستها برجليها وأشبعتها ضربا حتى بقيت على الارض كجثة هامدة. وفي نفس الوقت أمرت بكتابة رسالة الى الباي تخبره فيها بما جرى بيننا مطالبة بأخذ حقها. وأكدت بنتها بالحاح أننا لم نقترف أي ذنب سوى تبادل قبل المحبة، وأنها تحبني حقا على أساس ان أبدل ديني لأتزوجها، وأنها لم تكن لها أية فكرة أخرى. لكن الام التي رفضت ان تثق بأي شيء، بقيت دائما تظن العكس، وأرادت أن يكون لها الحق على حساب حياتي. لذلك وجدت نفسي غير قادر على التخلص من هذه الورطة لدى رجوع الباي وفكرت في الفرار لأكون في مأمن.

وبعد يومين، وصل في الوقت المناسب جدا حجاج تافيلالت وفاس ومراكش، وصاروا على بعد فرسخ من خيامنا راجعين من مكة. فأرسلت اليهم كالعادة المرطبات التي يقدمها لهم الباي عندما يمرون وسألتهم أيضا عن وقت

انصرافهم فكان ذلك بعد يومين. وبما أنني أتقن اللغة العربية جدا، وأصلي وأذكر كما يفعلون، فقد اتخذت الملابس التي تراها علي والتي اشتريتها من احد المرابطين المجاورين لنا بكيس من التمر. وصنعت هذه السبحة من نوى التمر كذلك، وملات ايضا كيسا صغيرا بالشعير المقلي والارز والسمن، واشتريت اناء صغيرا، وبندقية نارية، وفتيلا ووقودا لاوقد النار أينما أقمت حتى أبعد السباع التي قد تزعج، مثلما يفعل المسافرون في تلك المناطق كما تعلمون.

فرار الاسير على أثر حجاج مكة متنكرا كمرابط.

وبعد انصرافهم بيومين، سرت في أثرهم أمشي منفردا طوال أربعة أيام، دون أن أصادف أحدا. وكنت ألتجيء كل مساء بالقرب من الجداول أو العيون حيث أشعل نارا بالشوك اليابس، ثم أحفر ثقبا في الارض على شكل فرن أضع فوقه إنائي الصغير وأصب فيه الماء الذي كنت أغليه بحفنة من الارز، متبل بالملح والسمن، فأتعشى به. ولا آكل في النهار سوى التمر، مع حفنة من الشعير المقلي. وفي مساء اليوم الرابع وصلت الى المكان الذي استراح فيه الحجاج طوال النهار ليريحوا دوابهم، فلما رأوني بعكازي، ومرقعتي المتعددة الرقاع، وسبحتي ولحيتي الطويلة، توهموا ما كنت أمثله، فنهضوا جميعا في الحين، وتوجهوا نحوي يقبلون يدي ويطلبون بركتي.

قرأت عليهم فورا دعاء وجيزا، كنت أحفظه مثلهم، ثم قادوني إلى خيمتهم الرئيسية. فقال لي قائد الركب (هكذا يعامل المرابطون كما تعلم) «يا أبت كيف تقدم على السير وحيدا في هذه الفيافي ؟ ألا تخيفك السباع التي توجد فيها ؟» فأجبته «لا تجرؤ السباع على مهاجمتي، وفي بلاد مصر التي هي مسقط رأسي وفيها اكتسبت شهرة عظيمة، سخرت واحدا منها لامرأة مسكينة بدلا من أتان كان قد افترسه لها، فكانت تحمل عليه الحطب الى مصر (القاهرة العظمى) لكسب قوتها.» كانت هذه الكرامة سببا في أن الباشا مراد الذي كان يحكم مصر آنذاك، وسمعتم خبره، بنى لي مسجدا، او روضة[2] أقيم فيها على بعد فرسخين من المدينة (تحت اسم سيدي بوعزة) في مكان بينته لهم، كنت قد

(2) في الاصل رندة

رأيت فيه مسجدا عندما خرجت للصيد مع رجال القنصل، ولكنني مللت من الافراط في الاحتفالات العظيمة التي يكرمونني بها، فغادرت المكان منذ أزيد من خمس سنوات. وكان عثمان باشا خلفُ مراد يزورني فيها كل يوم جمعة. ونظرا لكراهيتي للجموع الكثيفة، ولان أطيب الملذات عندي هي العزلة والبساطة، فضلت أن أسيح كما ترون هنا وهناك على أن اتقبل اكرامات لا تليق بي. وبعد خروجي من مصر، ذهبت الى فلسطين، وشاهدت القدس الذي هو أورشليم ومنها سرت الى البحر، واتبعت الساحل شيئا فشيئا حتى وصلت الى الاسكندرية، حيث مكثت أربعة أشهر ومنها قطعت فيافي رقة لآتي إلى طرابلس فمرضت أزيد من ستة أشهر كاملة، ومازلت ضعيفا من جراء ذلك المرض حتى إنني أجد صعوبة كبيرة في التخلص منه، ولكن نظرا لاقتراب ساعة خروجي من هذه الدنيا، فان علي قبل ان أموت القيام بهذا الواجب الديني، ألا وهو زيارة أضرحة أوليائنا الموجودة في بلادكم، وللقيام بهذه الرحلة ترونني هنا.

ذهل الحجاج لسماع كلامي هذا وظنوا أنني من أكبر أوليائهم، اذ قلت لهم إنني أسيح هكذا عزوفا عن ملذات الدنيا التي يقبل عليها الاخرون بلهف، فارتموا على قدمي يقبلونهما، ولكنني منعتهم من ذلك فلم يلحُوا. وبعد أن تعشينا جيدا صلينا جميعا، ثم استرحنا.

تفضل القائد فأضجعني بجانبه على فراش أراحني بشكل عجيب، لا سيما وقد قضيت الليالي الأربع السابقة على الارض. وركبت يوم الغد جملا وسرت عليه معهم محاطا بالكرم والمحبة والاكبار، إلى أن وصلنا الى تافيلالت. وأثناء مسيرتنا، لم احدثهم سوى عن عظمة الله، وأعمال الخليقة، وأشياء أخرى كثيرة تتعلق بالتقوى والروح. وعند اقترابنا من تلك المدينة جاء القائد موسى خليفة الملك فيها لاستقبالنا مع حرسه. وصحبنا الى القصر لنصلي فيه وندعو للملك. ثم لما أخبروه بأمري قبل يدي وطلب مني البركة، فدعوت له عن طيب خاطر.

وصول المرابط الى تافيلالت ومرضه

ونظرا لسوء سير الجمل، أصابني مرض الاسهال، فكنت محط عناية

خليفة الملك والحجاج الذين تأخروا في المدينة لتمريضي، بحيث انني لم اكن ارغب في أكثر من ذلك. ولما شفيت بعض الشيء أردت أن أغادرها لأخلو على بعد اكثر من نصف فرسخ بين النخيل، فرارا من الحشود المحيطة بي دائما وبما أن نخيل الحائط الذي كنت فيه لم يثمر الا قليلا في السنوات السالفة وحمل كثيرا من التمر أيام إقامتي هناك، فان الأعراب ظنوا أن ذلك راجع الى كرامة كامنة في شخصي. واقبلوا جماعات من كل جهة ليشكروني على ذلك. وتفضل الشرفاء والاشياخ بزيارتي واخذي عدة مرات الى قصورهم لأبارك فيها أهلهم. ولكن بما ان سمعة الصلاح الرفيعة التي كنت اتمتع بها قد تكون لها عواقب أخرى، لو اكتشفت امري، فاني سرت في الطريق، بمجرد ما شعرت بصحة جيدة، متوجها الى مراكش لألتحق من هناك باحد مراكز المسيحيين الواقعة على الشاطىء. وقد مضى على خروجي من تافيلالت شهران بالضبط ومررت بقبائل ورديغة، وغريس، وسدراتة وفركلة، وهذت (كذا) ومكونة وإغرم وقبائل أخرى تسكن الاطلس الذي نحن فيه.

لم ينبس الاسباني بكلمة واحدة خلال هذا الحديث الطويل، وإنما عانق مرابطنا ثانية وقد انذهل لما سمع. ونظرا لقرب الليل فانه أخذه عنده لتناول العشاء، ودار حديثهما حول مغامرات الاسباني التي ليست من الأهمية بحيث تذكر هنا. وفي النهاية، وتلافيا لما عسى أن يحدث من شبهة لو اقام عنده، ارسله الاسباني لينام عند أحد أصدقائه البربر، فمكث ثلاثة ايام في منزله، وعاد المرابط في اليوم الرابع الى الطاحونة يسأل الاسباني هل يريد أن يتبعه. فوعده سيباستيان ـ وكان يسمى هكذا ـ بمرافقته، ولم يكن يفكر في شيء آخر منذ ستة أشهر، وقد لقي دليلا ماهرا مثله، فطلب منه أن ينتظره في الليلة التالية على طريق اكلاوة، في مكان وصفه له. وبعد انصرافه هيأ سيباستيان زاده من السمن والدقيق، واللوز والتين وجعله في جلد ماعز. ولما رأى الوقت مناسبا للانطلاق، ذهب الى المرابط فتعانقا مرة أخرى بعد أن صليا ليكون السفر جيدا. وعند طلوع الفجر دخلا الى بلاد اكلاوة وهي اقرب الجبال الى مراكش.

سارا طول النهار الموالي وهما يلاقيان العديد من البربر الذين يمجدونهما كثيرا، وفي العشي نزلا تحت شجر الصنوبر قرب عين ماء، ولما أعد عشاؤهما إذا ببربري يقترب منهما ويقول لهما «السلام عليكم !» وهي عبارة يحيي بها

المغاربة بعضهم بعضا اذا تلاقوا، ومعناها «حفظ الله من السوء جميع المؤمنين» فرد المرابط السلام وقال «كيف انت آش حالك اجي تاكل !» فشكره البربري، وقد رأى انه يدعوه للاكل ويسأله عن صحته، قائلا «آش حالك أعطاكم الله الصحة» فألح عليه المرابط، إلا أن البربري الذي امتنع بسبب احترامه له، اضطر الى ذلك اذ انه رآه يغضب ويخاطبه بهذه الكلمات المهينة «لياش يا ابن الكلب ما تجلس شي تاكل معنا، علاش حنا يهود ؟ ولا الله يحرق بوك !».

واثناء الاكل سأل المرابط البربري من أين جاء وما هي الأخبار التي عنده، فأجاب بأنه جاء من مراكش حيث إن مولاي أحمد بن محرز الذي كان ملكا بها يتسلى فيها، بينما عمه ملك فاس يشن الغارات مجردا من كل شيء، وأريد اغتياله منذ أمد قريب. صرفه المرابط بعد الطعام، ثم قال لصاحبه إنه عندما كان بغرناطة، شاهد في قصر الحمراء عدة نقوش تمدح كثيرا مدينة مراكش وقصرها وبساتينها، ونظراً إلى أنهما قريبان منها فانه سيكون سعيدا بمشاهدتها قبل مغادرة البلاد، اذ كانت تلك نيته الاولى لدى خروجه من تافيلالت، فوافق سيباستيان، ثم آويا الى بعض الصخور لقضاء الليل.

وفي يوم الغد، قطعا الجبال، ووصلا الى مراكش بعد يومين صباحا. ولدى دخولهما الى المدينة فان بعض برابرة زايمبي الذين جاؤوا لخدمة ملك مراكش، كانوا في هيئة حرس الباب الذي دخلا منه، عرفوا الاسباني ونادوه باسمه قائلين له «ماترويس ؟»[3] اي كيف حالك بلهجتهم، لانها مختلفة تماما عن اللغة العربية، فتظاهر الاسباني بالصمم واراد ان يتابع طريقه دون ان يجيبهم. إلا أن أعرابيا أمسكه من ذراعه وقال له «صاحبي، لياش ما تكلم شي ؟ اش عندك ؟» ولما نظر اليه بربري عن قرب نادى أصحابه قائلا «اجيو تشوفو الرومي ديالنا !» فأسرع الآخرون ليروه، قائلين بعضهم لبعض : «ها هو نصرانينا !» فتظاهر سيباستيان بعدم معرفتهم. ولما رأى المرابط أنهم يوقفونه دائما، ولا يريدون تركه يسير، وجه اليهم بعض التهديدات، إلا أن الجنود، كما هو الشأن عادة عند جميع الشعوب يكونون أقل تدينا، لم يترددوا في القبض على

---

(3) هكذا في النص الفرنسي، ولا معنى لها بالشلحية. وربما كانت محرفة عن «ما تَرويت ؟» أي ماذا تحكي وماذا تقول ؟ أو عن «ماتريت ؟» بمعنى ماذا تريد ؟

المرابط والاسباني، وسوقهما امام القاضي. وشهدوا عنده أنهم يعرفون ذلك النصراني (اي الاسباني) الذي هو ملك شيخ زايمبي. ولكن، بما أن المرابط دافع عنه وأراد ان يظهر كمسلم، ولاشك ان ذلك المرابط مخادع (حنش) متجسس من قبل النصارى يبحث عنهم ليحررهم، ولاجل ان يمر بكل مكان دون اعتراض ارتدى ذلك الزي الذي يحترمه جميع المسلمين احتراما كبيرا. تناول المرابط الكلمة مدافعا عن نفسه بحماس. ولما كانا معا يتكلمان اللغة العربية بطلاقة ويزعمان أنهما من الشرق، فان القاضي بقي حائرا مدة طويلة فيما عسى ان يحكم به، لاسيما وان المرابط ادلى له بعدة مبررات جعلته يتوقف في دوره.

الأسر الثاني في مراكش

ولما رأى أحد الجنود القاضي حائرا قال له : ان عليه أن يتحقق اذا كانا مختونين حتى لا يخدع، فان كانا كذلك وجب إعطاؤهما شيئا من المال لسفرهما، وان لم يكونا كذلك فإنهما مسيحيان يجب ردهما الى الملك الذي يملكهما. قبل القاضي هذا الرأي، وأمر بفحصهما في الحين. فحاولا أن يمتنعا ولكنهما أرغما على ذلك. وبعد أن تبين أمرهما، لم يتمالك القاضي من الضحك، وساقهما بنفسه الى مولاي أحمد ليقص عليه كل ما حدث. فلما رآهما ذلك الامير متنكرين هكذا، لم يتمالك عن ان يرثي لحالهما، وخاصة لحال المرابط.

حكى له هذا الاخير كل ما جرى له منذ طرابلس، مع جماعة حجاج مكة، فوعده مولاي أحمد بأنه سيطلق سراحه اذا ما انتصر على عمه. إلا أنه جعلهما في خدمة اصطبله، ثم في باب الحريم. فقاما بتلك الخدمة طوال مدة حصار مراكش. ولما استولى عليها ملك فاس، استخدمهما في المدفعية ووضعهما مع سائر مسيحيي مدفعيته. حاول المرابط، الذي كان يدعى بيدرو الكاسكوني، ان يفر لكن دُن رفائيل دي فيراس فر هو الاول فغدا لذلك يربط بالسلاسل مع الآخرين كل يوم تقريبا. ولما وصل الى مكناس، أصيب بنفس المرض الذي كان أصابه بتافيلالت، ودام به ستة أشهر كاملة، شغل أثناءها بسحق الالوان مع السادة الذين كنت أخدمهم.

وعلمت منه في تلك المدة كل ما حيكته انفا كما رواه لسادتنا الذين كادوا يتميزون من الغيظ، لاسيما وانه كان من بينهم واحد ممن أكرموه غاية الاكرام من طرابلس الى تافيلالت، ولكن نظرا الى أن هذه القصة حكيت اولا بلهجة زايمبي مع الاسباني، فاني رأيت من الاولى ان يتكلم المرابط معه من أن يخاطبني أنا.

فراره الى طنجة وموته

وبعد أن شفي تماما من مرضه وسيق للعمل في أسوار قصر كان يشيد خارج الذي كنا نقيم فيه، على مرمى مدفع منه. وبما ان ذلك العمل كان شاقا عليه جدا، لم يعجبه فانه اصر على الفرار. وذات مساء بينما كان الملك يشغلهم في وقت متأخر جدا لحمل الحطب خارج بستانه القريب جدا من هناك، نفذ خطته بعد ان اعطاه كل واحد كسرة خبز، وبذلك النزر القليل الذي حصل عليه، سار في الطريق، وتمكن من الوصول الى طنجة بعد ثمانية أيام. ولكن ما أظن انه تجاوزها، لان جنديا ارلانديا من الحرس كان ثملا اطلق بندقيته، واصابه دون قصد برصاصتين في أحد كتفيه. ان الذي قص علينا هذا الخبر، كان هاربا من طنجة، قال لنا انه لم يعلم هل مات بسبب ذلك الا انه كان ميؤوسا من حياته عندما وضعت له الضمادة الأولى. فاذا كان هذا صحيحا، ويمكن ان يكون كذلك، فانه قاسى آلاما مبرحة في آخر النكبات، بعد أن تحمل عدة مصاعب، ليتمتع في فترة وجيزة بسعادة نالها. إن هذه القصة والتي تليها كذلك، لم تدمج في هذه الرواية الا لتريح بال القارىء من الشدائد والاهوال التي اطلع عليها في الفصول السالفة.

الفصل الثاني عشر
قصة دُن لويس كونزاليس البرتغالي
الذي بقي في الاسر ثلاثين عاما

كان دُن لويس من أولائك المخلصين الذين يشرفهم ملوك البرتغال بوسام المسيح على المخاطر التي يتعرضون لها في المراكز التي يملكونها على

سواحل افريقيا. كان من سلالة اولئك الذين احتلوا طنجة ويشغل فيها منصب الفارس الاول، او ملازم عقيد فرسان ذلك المركز. وذات صباح، كان عليه أن ينصب الحرس خارج المدينة، فخرج مع ثلاثة فرسان أقامهم في الاماكن المعينة. ثم أراد ان يطلق عنان فرسه الذي ابتعد به قليلا عما كان لازما، وحيث ان الضباب كان منتشرا قليلا، فانه لم ير كمينا نصبه المغاربة الذين اطلقوا نار بندقية قتلت فرسه، وفي نفس الوقت الذي رأوه يسقط على الارض، أسرعوا اليه وأمسكوه وربطوه وشدوا وثاقه، ثم أرسلوه مع أربعة أعراب الى القصر (الكبير).

كان محمد العياشي يحكم تلك المدينة ومنطقة الغرب كلها لفائدة ابن ابي بكر[1] الذي كان متفردا بحكم تلك الاقاليم، ويحكم مملكة فاس بأسرها تقريبا، وبعد أن كسا العياشي لويس لباسا فاخرا، بعث به الى الزاوية التي كان يسكنها أميره ليقدمه له كهدية.

لقي دُن لويس لدى وصوله برتغاليا من مواليد كويمبرا، يدعى فرانسيسكو ألباريس، كان مديرا لخزائن حبوب ابن أبي بكر (الدلائي) فتمكنت الصداقة بينهما، وخف عبء اسره بهذا السبب. كان فرانسيسكو محبوبا عند الامير الذي كان انسانيا لطيفا، فكان يمنحه كل حرية، يذهب ويجيء وحده أينما أراد. كان يصحب دُن لويس الى القنص في الجبال، والى زيارة اشياخ البلد وسادتها، فكانا يقيمان عندهم في أغلب الاحيان ثلاثة ايام او أربعة، دون ان يعودا الى القصر. ولما كان عمره لا يتجاوز خمسا وعشرين سنة، وكان جميل الطلعة، فان بنت شيخ جبال أريكة بدأت تميل اليه منذ أن رأته لأول مرة. وكانت طوال اقامته عند أبيها تشعره بنظراتها المتأثرة انه شيء مهم بالنسبة لها. ولما حان وقت رحيله للعودة، خاطبته سرا وأعطته وشاحا جميلا جدا من الحرير الاخضر يساوي اثني عشر ريالا، وناشدته أن يحتفظ به تذكارا للخير الذي تتمناه له.

شكرها دُن لويس بأدب جم ولطف كبير، ورجا منها أن تؤمن بأن قلبه غير متحجر حتى ينسى هذه الأفضال المتميزة. وبعد بضعة أشهر، كان خلالها

(1) يقصد محمد الحاج الدلائي الذي حكم منطقة الغرب فعلا من 1636/1046 الى 1668/1070. لكن المجاهد محمد العياشي الذي حكم الغرب قبل الدلائي لم يكن قط من عمال هذا الاخير ولا أقام بالقصر الكبير، وانما كانت حاضرته مدينة سلا كما هو معلوم ـ انظر كتابنا الزاوية الدلائية، الباب الرابع

دُن لويس يفكر في الجميلة صاحبة الوشاح التي توصل منها أيضا منذ قليل بهدايا من الفواكه، فأقنع فرانسيسكو بالعودة معا الى أريكه. ولكن، قبل الانصراف، أراد أن يحمل اليها هداياه في مقابل ما قدمت له، وخاطب في هذا الغرض بعض اليهود ممن كان لهم مراسلون في سلا. فأحضروا له مرآة جميلة جدا، وأربعة أمشاط من العاج، ومقصين رفيعين، مع ثلاثة أقمصة من قماش هولاندي، ولما عاد الى عشيقته مع فرانسيسكو، استقبلا أحسن من المرة الأولى من طرف الشيخ وأهله. فأعطى الفارس البرتغالي قميصين للشيخ وزوجته، ومشطا لكل من ابنيهما، والباقي للفتاة. وانطلق فرانسيسكو والشيخ وأبناؤه الى القنص منذ غداة الغد بعد تناول الفطور.

وأما دُن لويس الذي أصيب خلال الليل بمغص حاد، فإنه ارتاح كثيرا لاعفائه من اصطحاب الاخرين، واقامته في الدار مع الام والبنت اللتين جالستاه بلطف. وبعد أن شكرتاه على هداياه، أعربتا له عن أسفهما البالغ لكونه متورطا في دين يمنعهما من اعطائه حججا اوفر على عطفهما، وأنه إذا قبل أن يتركه ويعتنق دينهما، فان الفتاة التي هي من أفضل بيوتات البلاد ستكون زوجة له. أجابهما دُن لويس بكل عبارات الاعتراف بالجميل الممكنة، معتذرا عن تبديل دينه، وقال لهما إن أي شيء لا يضاهي حبه للفتاة وانه دائما على استعداد للتعبير عنه، اذا أرادت براهين أكثر اقناعا. لم يرضهما هذا الكلام كثيرا، فدار الحديث حول مواضيع اخرى، وخصص باقي النهار للكلام عن أسلوب حياة نساء أوروبا. وقد استحسنت بنت الشيخ الحريات كثيرا، لكنهم قطعوا الحديث في الليل عند رجوع الصيادين.

وفي اليوم التالي، قال فرانسيسكو للشيخ، إنه يريد ان يزور شيخا آخر، يسكن بعيدا عن أوريكة بثلاثة فراسخ، وبعد أن طعما جيدا كلف أصغر أبنائه بمرافقتهما. قطعا أكثر من فرسخ، حاملين بندقيتيهما، واذا بدُن لويس يبصر احد الخنازير البرية يسير على ربوة، فانطلق في أثره. ولما اقترب منه جدا واستعد لرميه، رأى تحت صخرة بجانب نهر صغير (كان يفصل بينه وبين الخنزير) لبوءة عظيمة ترضع ثلاثة أشبال. بدأت اللبوءة تزأر، وقد رأت دُن لويس، وتركت أولادها لتجري وراءه. لكنه أسرع فالتحق بربوة، صعد فيها على شجرة وجدها في الوقت المناسب. وصلت اللبوءة تحت الشجرة في نفس الوقت الذي

تسلقها فجثت تحتها وهي تزأر زئيرا مرعبا، فظن الآخران أنها تفترس صاحبهما. لذلك، ودون أن يستخبرا أكثر، تركاه دون أن يبحثا عنه وعادا من حيث أتيا.

كان دُن لويس في هذه الأثناء يتردد هل يرمي اللبوءة، او ينتظر حتى تنسحب بنفسها. فقر عزمه أخيرا، ووضع ثلاث رصاصات في بندقيته، وأطلق عليها النار فحطم كليتيها. ضاعف ذلك الوحش زئيره، عندما أحس بالجرح فزاده دُن لويس ثلاث رصاصات في الرأس، أردتها على الارض. ولما رأى أن اللبوءة فقدت دمها كله تقريبا، ولم تعد تتحرك لفترة طويلة ظنها ماتت فنزل من الشجرة، لكنها مازالت حية، ومددت مخلبا أمسكه من رجله وأوقعه على الارض. ومزقت ساقه كله حتى العظم، ومازالت به ندبات عميقة رأيتها. ولولا أنه نهض على الفور ولم يترك الوقت للبوءة لتجره اليها، لافترسته بالرغم على تحطيم كليتيها ورأسها.

ضمد الأسير جرحه بمنديل، ونادى صاحبيه لاغاثته، لكنهما كانا قد انصرفا وقد ظنا انه افترس. تأسف الشيخ جدا لهذه المصيبة، واشتد حزن بنته وهي تخفي ألمها، لما قد يصيب ابن ابي بكر (الدلائي) من الغيظ عن هذا الحادث. ولما رأى دُن لويس أنهما تركاه، سار نحو المكان الذي ظن أنه جاء منه. لكنه سار في طريق آخر تماما، وجد في اخره ثلاثة مسالك مختلفة، فاحتار في أيهما يسير، وبما أنه لم يستطع أن يمشي ابعد، قد استراح في ذلك المكان ريثما يمر احد البرابرة ليقوده الى اوريكة. ظل هنالك النهار كله، دون أن يرى أحدا، وفي المساء، كانت قافلة من أعراب تافيلالت راجعة الى بلادها، فاركبته على جمل، وحملته معها ـ رغم انه قال إنه في ملك الامير ابن ابي بكر ـ وقدمه المغاربة الى مولاي الشريف، ملك تلك المنطقة.

وصف تافيلالت

وحيث إننا الآن في تافيلالت، فلا يستقبح ـ على ما أظن ـ أن أبتعد قليلا عن موضوعي لأقول عنها شيئا، كما فعلت بالنسبة لأماكن أخرى وصفتها آنفا. المدينة مشيدة بقرب النهر الذي يحمل اسمها واسم المنطقة كلها، واقعة في الاقليم

المعروف قديما ببلاد الجريد. ليست كبيرة جدا، وانما هي أقرب الى قرانا الكبيرة منها الى مدينة ملكية. أسوارها خربة كلها تقريبا، وكذلك قصر الملوك. وتربتها غير خصبة للحبوب، ولا تنتج سوى قليل من الشعر، الذي يزرع في إبان الأمطار. وهناك كمية كبيرة من أشجار النخيل التي تعطي تمرا جيدا، وضفتا النهر مكسوتان بغابات من النخيل. فاذا أزهرت ذكور الاشجار، اخذ المغاربة من تلك الزهرة ووضعوها في قمم اناثها لتلقيحها. فان لم يفعلوا ذلك لم تعط تلك الاشجار ثمارا اصلا. والاقاليم التابعة لها هي سارة (كذا) ودرعة وتوات، والقبائل التي تقطن عند قدم جبال الاطلس على أنهار فركلة وغريس وتكدوت، سدرت ومكونة، هدت، وتدغة وسكارو. وفي تلك البلاد عدد كثير من القصور، يستقر فيها الشرفاء الذين هم امراؤها. ان الابل والنعام هي طعام الاعراب، وكذلك التمر، وحر الشمس مفرط في كل فصل، ما عدا اذا سقط المطر.

ولندرة الماء فيها يشرب السكان لبن النوق، وهم شجعان متعجرفون، طوال القامة نحاف الجسم سمر اللون. هذه البلاد هي موطن أصل مولاي رشيد وأخيه مولاي اسماعيل ملك فاس ومراكش الحاكم حاليا، وهو ملك تافيلالت ايضا، وقد نصب فيها كخليفة له مولاي محرز اكبر أبنائه.

ولنرجع الى دُن لويس. فان مولاي الشريف، بدلا من أن يسر بالاعراب على هديتهم، استقبح كونهم اختطفوا أسيرا لابن ابي بكر. فأمر في الحين أن يسجن ويرسل الى سيده. لكن أبناءه الامراء الذين لم يكن لهم اسرى مسيحيون، ورأوا أن هذا الاسير حسن الطلعة، ناشدوا أباهم أن يحتفظ به وأن يبعث الى ابن ابي بكر هدية من التمر بدلا من دون لويس، فقبل الشريف ارضاء لهم. ولما أراد كل واحد منهم أن يستأثر بخدمته أمرهم مولاي الشريف ان يقترعوا عليه، فخرج في سهم مولاي اسماعيل الحسني الذي انتصر على سائر إخوته وهو اصغرهم، اذ لم يكن عمره سوى ثلاث سنوات.

إن أسيرنا، الذي كان ذلك الامير الصغير دائما بين ذراعيه، كسب شيئا فشيئا محبته وزادت بتقدمه في السن، حتى إنه كان يرغب دائما أن يكون في حاشيته. ولما كبر، حصل من أبيه على الاذن بأن يعطي يهود تافيلالت دُن

لويس كل ما يحتاجه، بل أعطى الامر للمدينة كلها، ألا يكلمه احد من السكان، أو يفعل ما لا يرضيه. ولما مات مولاي الشريف انتزعه خلفه مولاي محمد من أخيه الامير واستخدمه في اصطبل دوابه. وفي أثناء تلك المدة شاهد الثورتين التي قام بهما مولاي رشيد ضد أخيه البكر. وقتل أثناءهما انصاره وقطعت أعقابهم، ثم سحبوا في ذيل البغال، مع انهيار آخر معقل لذلك الامير.

ان مولاي رشيد، بعد أن استولى على مملكتي تافيلالت وفاس على إثر وفاة أخيه الملك، وهب أسيرنا الى أخيه الاكبر مولاي الحران وتركه خليفة له بتافيلالت. ولم يستطع قط أخوه الاصغر مولاي اسماعيل، الذي كان يأخذه معه أن يضمه الى حاشيته، رغم ما بذله من جهود. وقال له الملك ليرضيه انهم ذاهبون الى بلاد ليس المسيحيون فيها بقليلين، وانه سيعطيه كثيرا منهم كلهم شباب. استعمل مولاي الحران الدون لويس في خدمة الحريم. فبدأ منذئذ يعفي لحيته حتى طالت واخذت تبيض. وكان أعراب البادية الذين يلاقونه مرتديا زي البلاد يظنون أنه مرابط عندما يسير في الطريق، فيدنون منه ويقبلون يديه ورجليه ملتمسين منه البركة، فكان دُن لويس لا يرفض ذلك متى لقيهم على انفراد.

وبقي على تلك الحال، الى أن قدم مولاي اسماعيل الى تافيلالت. فلما علم دُن لويس بقدومه خرج للقائه في مسيرة يومين. وبمجرد ما رآه الملك، أمر بإدنائه منه، ووضع يده على رأسه كعلامة لمحبته، وسأله عن صحته، وهل ما يزال مسيحيا. فأجابه دُن لويس، الذي لم يكن يخلو من نباهة أن صحته جيدة جدا، ولكن، ان شاء الله، يستطيع أن يجعلها أحسن بالافراج عنه، حتى ينصرف الى بلاده ليمارس بقداسة اكثر في بلاده ديانته التي حافظ عليها طوال هذا الوقت.

ابتسم الملك واعطاه عشرين ريالا ذهبا، وأمره أن يذهب الى مكناس في انتظار رجوعه، ليجزيه أجر ما ادى إليه من خدمات في صباه ويرسله الى بلاده لقضاء بقية أيامه فيها. وفعلا، وفي الملك بعهده، وأطلق سراحه في السنة الثلاثين من أسره. ولانه قدم الى مكناس وأقام مع سائر اسرى وطنه، علمت منه نفسه كل ما رويته آنفا.

الفصل الثالث عشر
في العلاقة الغزلية لاسير فرنسي
مع سيدة من سلا

أغلب النساء الافريقيات قليلات العفة في زواجهن، وذلك ناتج عن طبعهن وعن وجود زوج واحد فقط للعديد منهن. ومع ذلك فانه يتعذر عليهن جدا أن تكون لهن اي علاقة مع المسلمين، لاسيما وان الرجال الذين هم على جانب كبير من الغيرة يحولون دون ذلك بمنعهن من الخروج، لكنهن لا يجدن نفس الصعوبة مع الاسرى الذين يقل تحرز الازواج منهم بكثير، إما لانهن يقنعنهم بأن النصارى عمي، وإما لايمانهم بأن النار التي هي عقاب المسيحيين الذين يضبطون في حالة تلبس مع المسلمات قادرة على أن تبث الرعب في قلوب الاسرى، وتمنعهم من التفكير في الاقدام على أية إهانة قد تتسبب لهم في عواقب وخيمة. وهكذا فانهم يأخذون احتياطات كثيرة من جهة، ويتهاونون في أخذها من جهة اخرى، ويتعبون أنفسهم في الاحتراس من الكمائن الاقل خطرا ليقعوا في الحبائل التي يسهل عليهم تجنبها. والقصة التالية تثبت ما أقول

إن محمد المراكشي، أحد أعيان سلا، كان يزاول عندما كنت مقيما فيها مهنة كاتب، أو كاتب الملك في الشؤون البحرية، كانت له بنت بارعة الجمال اسمها فاطمة، متزوجة بمحمد عبد الله التونسي، بورجوازي ثري من نفس المدينة. كانت تلك المرأة ذات مزاج غرامي الى حد كبير، فقبل زواجها بذلت كل ما في وسعها لاغواء قائد سفينة شاب كاسكوني جميل كان أسيرا عند أبيها. لكن اتفق أن الاسير كان ذا عفة صامدة امام مراوداتها، وافتدي بعد ذلك بقليل، الا أن فاطمة لم تصبح أكثر تعقلا، بالرغم على أنهم زوجوها، فقد احتفظت دائما بالميل الى الفجور.

حقا ان التونسي لم يكن يساهم قليلا في الحفاظ عليها، كان رجلا لطيفا جدا يمنحها كل ما تطلبه، لكنه كان يهوى الغلمان والخمر التي يتزود بها سرا في بيته، مفضلا الملذات التي حرمتها الشريعة على التي قد يجدها حلالا مع امرأة.

أصبحت فاطمة كئيبة حزينة من جراء ذلك، حتى أصابها مرض مضن ظنوا أنها ستموت منه، غير أنها استعادت صحتها تماما بفضل الادوية التي اعاطها اياها طبيب جراح فرنسي كان أسيرا عند أخي زوجها الرايس كانتيو، استدعي لمعالجتها بعد ان برهن على خبرته في عدة مناسبات. كان الطبيب الجراح شابا جميل الطلعة يستطيع أن يروق امرأة اقل حساسية غرامية من فاطمة. فلا غرابة إذن أن بدأت تميل اليه.

جاء ذات يوم ليعودها، ويرى ان كانت لم تعد تشعر بأي شيء من مرضها، فكشفت له عن هواها بهذه الكلمات «بيير ! (لان جميع الاسرى في بلاد البربر يدعون باسمهم الشخصي) انني مدينة لك كثيرا، حتى لا أظن أنني سأوفيك حقك من الاعتراف بالجميل، إنني لست مدينة لك بأقل من الحياة، ولولا اسعافك لما استطعت ولا شك التغلب على الضنى الذي كاد يفنيني، فأرجو أن أقدر على مكافأة هذه الخدمة الجليلة. وحتى لو كان لي ما أغمرك به من الثروات، فلن أوفيك حقك باعطائك كل ما أملك. ولا أرى إلا وسيلة للوفاء بما علي، وهو أن أخصص لك حياة حفظتها لي، وأستسلم لك بنفسي. لا تتعجب من هذا التصريح، فان عيني قد أفادتاك بحبي لو أردت أن تحدق فيهما. ولكن بما أنك لم تخبرني أصلا بأنك تفهم لغتهما، فاني لم أرد أن أمكث مدة أطول، دون ان أؤكد لك بكلماتي ما قالت لك نظراتي، وان اطلب اليك ان تفصح لي عن عواطفك. وان لم يكن في نيتك الاستجابة لهواي فانه يوجد بهذه المدينة كثيرون قد يشترون بثمن غال ما يقدم اليك دون أن تفكر فيه. فتكلم اذن وأتح لي الفرصة بجوابك حتى لا يخيب ظني فيك.

كان الاسير قد شعر فعلا بشيء من غرام فاطمة، لكنه فوجئى بكلامها، وتردد طويلا فيما عسى أن يجيبها به فمن جهة أوقفه الخطر الذي كان سيتعرض له، ومن جهة أخرى دفعته فتنة امرأة شابة تراوده عن نفسه بقوة الى انتهاز الفرصة. واخيرا كان الخوف هو الاضعف، فعزم على إرضاء فاطمة وقال لها «سيدتي ! انك تغالين بلطف بالغ في القليل الذي فعلته من أجلك، ونلت أكبر مكافأة بالسرور الذي نحسه عندما نخدم شخصيات في مثل جمالك وفضلك. ولكنك انت التي تربكينني في النهاية، بما تنعمين به علي وما تكنين لي من عواطف، وتجعليني عاجزا عن ايجاد كلمات أعرب لك بها عن امتناني. إن

كل ما أستطيع أن أقوله لك، هو أن لي تحت لباس العبد بصيرة رجل حر، وأعرف جيدا قيمة الاشياء حتى لا أرفض عروضا قيمة كالتي تتفضلين باقتراحها علي. أعرف انني لا أستحقها، ولكن سأحاول أن أعوض باحترامي وحماسي ما ينقصني من جهة أخرى. فتصرفي اذن، سيدتي، في وفي حياتي !».

كان هذا كافيا لعقد صفقة بين هذين العاشقين، ومنذ ذلك اليوم سلمت فاطمة نفسها كليا لذلك الأسير. فكان يزورها في أغلب الأحيان، لاسيما وأن التونسي الذي كانت له فيه مودة لانه شفى زوجته، لم تكن لديه أي شبهة في زياراته، التي كان يقوم بها عادة عندما يكون المغربي في المدينة. ولعل الزوج المتساهل لم يكن ليشك اطلاقا في ذلك، لولا ان بعض اليهود الذين كان لهم دكان قرب منزله ورأوا الأسير يدخله كل يوم تقريبا، لم يوحوا اليه بالغيرة ويخبروه بأنه كلما كان بيير في منزله كانت امة سوداء لزوجته تقف دائما عند الباب وكأنها تقوم بالترقب. الامر الذي أدى بالتونسي يوم الغد الى أنه، بدلا من الذهاب الى تجارته كالمعتاد، اختفى في حجيرة لم يكن يعزلها عن غرفة زوجته الا حاجز خشب مفرغ يمكّن من رؤية ما يجري بالداخل. ولكن السوداء التي كانت شريكة في جريمة سيدتها سمعت صوتا بذلك المكان شكت فيه وأعلمت فاطمة على الفور.

ولما دخل الأسير الى المنزل قالت له فاطمة، بدلا من أن تخاطبه كالمعتاد، إنها تشكره على العناية التي يوليها إياها بزيارته، ولكنها تخشى أن يكره زوجها ذلك أخيرا ويشك في سلوكها، وستكون مدينة له كثيرا اذا لم يزرها بعد إلا إذا استدعته، وان ما يجب عليها نحوه يجعلها ترتبك في ان تطلب منه ذلك، لكن بالرغم عنها، وحتى لا تتيح الفرصة لان يغضب زوجها الذي تحبه وحده. رد الاسير، وقد أعلمته قبل بطرفة عين، متظاهراً بجواب يستلزمه الخطاب الذي وجه اليه. وبمجرد ما رآه التونسي خارجا من منزله، فتح باب الحجيرة التي اختفى فيها، ثم عانق فاطمة قائلا «زوجتي العزيزة ! اسمحي لي اذا شككت في أمانتك. فقد أراد بعض الاشخاص المتسرعين في اعتبار كل شيء سيئا ان يوهموني بأن الزيارات المتكررة لبيير ليست بدون هدف، واختفيت كما رأيت لاتيقن أحسن من ذلك. إنني الآن مقتنع بأمانتك، ويمكن للاسير أن يأتي منذ الآن فصاعد، كلما شئت دون أن تلحقني منه غيرة. وأضاف كلمات اخرى لطيفة

رقيقة عاطفية ليطمئن بال زوجته التي تصنعت الغضب من شكه في عفتها، وتظاهرت بأنها لم تهدأ الا بعناء.

وبعد يومين حكت كل شيء للاسير الذي عرف هو الآخر اسم اليهود الذين شككوا التونسي فيه، فعزم على الانتقام منهم بالكيفية التي سأذكرها فيما يلي : طلب من سيده كانتييو أن يأذن له في أخذ بعض الاثاث الفاخر من منزله وبيعه لأولئك اليهود ثم يتهمه بالسرقة، ويبين الذين وضع المسروق بين أيديهم. فاذا اشتكى كانتييو على الفور الى العامل فانه سيحكم على مخبئي الاشياء المسروقة بالجلد بالعصا، وبأداء غرامة ضخمة. واعترف لسيده بأن اولئك اليهود خدعوه فأراد أن ينتقم منهم بهذه الوسيلة. ولما وافق كانتييو على كل ما طلب الاسير، وحجز لدى اليهود ما قيل انه سرق، جلدوا مائة جلدة، وأدى كل واحد منهم مائة ريال ذعيرة، والقي بهم في السجن لمدة ثلاثة أشهر. وهكذا عوقبوا على محاولتهم تعكير ملذات الاسير وعشيقته، الذين استمرار في علاقتهما الغرامية حتى عام 1678، حيث ماتا كلاهما بالطاعون.

الفصل الرابع عشر
قصة نبيل اسباني أسير يدعى دُن رفائيل دي فراس

ولد دُن رفائيل بمدينة طليطلة الشهيرة، التي زاول فيها أبوه النبيل وظيفة قاضي المدينة ثلاث مرات متتالية. ولكن بسبب خلاف حدث ذات يوم بينه وبين مركيز ايطونة الذي قُتل أحد أبنائه بعد بضع ليال، اتهم دُن لويس دي فيراس والد رفائيل بهذا الاغتيال، فأنفق كل ما له لتبرئة نفسه ومات في السجن.

وعقب وفاته، ذهب دُن رفائيل الذي اصبح يتيما في الخامسة عشرة من عمره، لتقديم خدمته الى كردينال أراكون، رئيس اساقفة طليطلة، الذي قبله كأحد غلمانه، فأصبح شخصا ظريفا لطيفا، حتى إن الكردينال اتفق ان كان يوما في بلاط مدريد، فطلبته منه أميرة أركون، زوجة دُن بيدرو أخي الكردينال، ولم يستطع ان يرفض طلبها.

لم يكن لدُن رفائيل أي شغل عند تلك الاميرة سوى تحرير رسائل عند أكابر

الحاشية فكان ينجز ذلك بأناقة وخفة الى درجة أن جميع السيدات كن يستحسن نباهته، ويرغبن جميعا في انتزاعه من الاميرة، حتى يبقى دائما بجانبهن، لشدة ما كانت محادثته ساحرة تروقهن كثيرا.

وبعد أن استأنف التمارين التي بدأها في طليطة، اتقنها كثيرا حتى انه تعلم الموسيقى في مدة وجيزة، والعزف على القيتار والالات الاخرى التي يشتغل بها النبلاء عادة والرقص بمهارة كانت تسحر جميع النظارة.

كلفت بفضله الماركيز دي....، من أجمل سيدات البلاط، حتى أصبحت تعشقه متولهة فيه. وطالما قاومت ذلك الميل، لانه كان عنصرا أدنى من اصلها الرفيع بكثير، لكن رغم كل مقاومتها ومعارضاتها، كان لابد في النهاية من الاستسلام لهواها. ولما رأت أن لا دواء لدائها الا أن تتودد الى من تحبه، فانها عزمت على أن تفعل ذلك وتكشف له عن نواياها، خشية أن يلتزم مع غيرها، وان تغتنم الفرصة عندما يأتي يوما ليحمل لها رقعة من الاميرة، كما يفعل في أغلب الاحيان وأتيحت له الفرصة غداة الغد، حيث جاء ليستدعيها من قبل سيدته ان تتناول العشاء معها في ذلك اليوم. ولما هم بمغادرة غرفتها نادته على انفراد، وناولته رقعة أوصته بقراءتها والاحتفاظ بسرها ان أراد أن يكون سعيدا. وحيث إن دون رفائيل احتفظ دائما بتلك الرقعة باعتزاز فانه أراني اياها مع رسائل اخرى كان قد توصل بها وحكى لي قصته وقد انتسختها كما يلي

«ان كنت حذرا، الامر الذي لا أشك فيه، فلن تكون فاقد الحسن حتى لا تحبني بعد أن كشفت لك عن حبي. إنني استحيي أن أكشف لك هكذا عن أفكاري، لكنني لا ابالي، فهواي من المشروعية بمكان، ونواياي من الصفاء والنقاء والبعد كل البعد عن الغزل العادي، بحيث أستطيع ألا أكتمها عنك اكثر فان عرفت كيف تستفيد من هذه الاسطر فسيكون مصيرك سعيدا. ولكن ايها دُن رفائيل الذي لا أحب أحدا غيرك، لا تنزلني الى تلك النهاية التي تجعلني أراك تمنح غيري فؤادا أريد أن أملكه وحدي».

أفادت قراءة هذه الرقعة دُن رفائيل بأن سعادته منوطة بأمانته. ونظرا الى أنه لم تكن له بعدُ أية علاقة خاصة، فانه عزم على ان لا تكون له فكرة أخرى غير إرضائها.

الا أن الماركيز التي كانت الوارثة الوحيدة لأحد أغنى وأشرف بيوتات المملكة، وتوفي أبواها فكانت اذن حرة في إرادتها، ولاحق لاحد ان يراقب إعمالها، بالرغم على انها كانت تحت حجر وصي. ومع أن دُن رفائيل كان أدنى منها أصلا وثروة، وان الدوق دي... كان يرغب في الزواج منها، فانها خشيت ان اطلع اهلها على ميولها ان يضعوا لها عراقيل لا تستطيع التغلب عليها. وهكذا ارادت التصرف بحذر، وان لا تظهر شيئا حتى لا يعرفوا ما تريد، فرغبت في أن تتزوج سرا، حتى اذا كانا متزوجين لم يمكن التعرض ضد ارادتها. وللوصول الى هذا الغرض، وقبل ان تبوح به الى أي أحد، أرادت أن تجرب امانة عانس كانت تقوم لها دائما مقام مربية، ولا تستطيع ان تنجز أي شيء بدون اعانتها. ولكن، حتى تعرف ما عسى أن تقوله لها في هذا الصدد، وتستجلب اشفاقها قبل اطلاعها على ذلك فانها تمارضت، وتظاهرت بالاشراف على الموت.

وذات يوم، وقد رأتها مربيتها التي كانت تحبها كثيرا على تلك الحال، تتأوه من حين لآخر بدون حساب، أرادت أن تعرف سبب ذلك فسألتها، فأجابتها الماركيز «يا الويرة ! دعيني أموت، لاسيما لو عرفت سبب دائي لقل إشفاقك على مصيبتي عما كان» فقالت الويرة : «كيف ؟ هل غيَّر الدوق دي... إرادته نحوك، ونقل محبته الى غيرك ؟ أم أنك تحبين آخر غيره ؟ ان لم يكن يؤثر فيك يا سيدتي غير هذا، فانه يوجد دوقاتٍ آخرون كثيرون في مدريد يشرفهم أن يحبوك !» فردت عليها الماركيز : «الويرة ليس قلبي كلفا بذلك الدوق : فهناك شيء آخر سحرني وفتنني، حتى إنني لن أستطيع الحياة بدونه مدة أطول. وقد تعتبرين من الحماقة أن أفضل على الزواج من أحد كبار رجال الحاشية، من هو أدنى منه بكثير. لكنه اذا كان نسبه أحط، فانه يمكنني القول بالتأكيد انه يفوقه أهلية واستحقاقا. فاذا كان لك عينان بصيرتان فستعرفين صورته التي سأصفها، دون ان اسميه لك. انه شاب جميل، رشيق القد، ماهر في السلاح ظريف. يغني بكيفية عجيبة، ويعزف ببراعة على القيثار والعود والانجيليك والبيان القيثاري، ويرقص بمهارة حتى إنه ليجتذب أفئدة جميع اللواتي يشاهدنه في المراقص التي يلتقون فيها. لست الوحيدة التي سحرتها كمالياته، بل جميع سيدات البلاط معجبات به ولا يتحدثن إلا عنه. ولخشيتي من أن يختطفنه مني، أردت أن يكون زوجا لي وحدي. ومصيبته هي أنه، ولو كان نبيلا، ليس من أصل يساوي أو

يقارب أصلي، اذ لو كان كذلك لتزوجت به غدا علنيا. وبما أنني أريد أن تكون الاشياء سرية حتى تتم، أرجوك عزيزتي الويرة، وأتوسل اليك بالمحبة التي تكنينها لي دائما، أن تعملي لسعادتي المتعلقة بزواجي من الشخص الوحيد الذي أحبه». وأرفقت هذا الخطاب ببحر من الدموع، حتى إن الويرة تأثرت شفقة، وعرفت جيدا ان دُن رفائيل هو الذي سحرها.

وعدتها تلك العانس بأمانة لا تنقض انها لا تزمع على ابقائها. وحتى تجعلها تفتح قلبها أكثر، صاحبت وعودها بسلسلة من الأيمان، حتى إن الماركيز لم تعد تحترس منها أكثر، وسلمت لها رقعة تبلغها الى دُن رفائيل في أقرب وقت.

لم يفت دُن رفائيل أن يذهب عند الماركيز منذ يوم الغد، فكشفت له عما عزمت عليه من التزوج منه سرا إن كان يرغب في ذلك. أعرب لها دُن رفائيل بخطاب يتجلى منه الاخلاص بقدر ما يتجلى فيه اللطف أنه لا يستحق الشرف الذي تفضلت به نحوه. إلا أنه لما قبلت أن تأخذه بدون استحقاق، فانه سيجتهد ليريها بمحبته ومثابرة خدماته إلى أي حد يمكن أن يصل امتنانه وأمانته. وبعد محادثة طويلة عذبة رقيقة من كلا الطرفين، انسحب دُن رفائيل مغمورا بالافراح والآمال.

ان الويرة، التي أرادت أن تفسخ ذلك الزواج، بسبب عدم تكافيء الطرفين، نقضت العهد الذي وعدت به سيدتها. وأخبرت بما جرى الماركيز دي... قريب الماركيز ووصيها. فأعلم بدوره جميع الأقارب الآخرين، فاجتمعوا كلهم عنده، وتداولوا في الاحتياطات العادلة التي يجب ان يتخذوها في قضية هي بالنسبة لهم من الخطورة بمكان.

لم يقرروا اهلاك دُن رفائيل، ولكنهم اتفقوا على مفاجأته وارساله الى العرائش، التي كان حاكمها من أصدقائهم. وأن يقصدوا بعد ذلك الأميرة ليخبروها كيف حصلوا على بعض الرقع الغرامية التي بعثت بها اليه بواسطة سيدة من أسرتهم، وأنهم، تلافيا لما عسى أن يقع من حوادث، اضطروا الى التصرف كذلك إزاء دُن رفائيل، ونفذت بهذا الشكل الخطة المتفق عليها.

نفي دُن رفائيل

ذات مساء بينما كان دُن رفائيل خارجا من القصر الملكي، ألقوا به في عربة حملته خارج مدريد إلى قصر هنوفر الواقع على بعد ستة فراسخ من المدينة، حيث كانوا قد هيؤوا رماة مستعدين لنقله الى قادس. فساروا به عبر طليطلة، بانوخيربو، روساطان، مالقة، سيوداد ريال. المدوَّر، فانطاس، نويياس، سييرا مرينا، اندخار، قرطبة، بيَّنا، فلوريس، إشيخا، اوسونا، مورون، بُرنس، أركوس، بويرطو ريال. ولما وصلوا الى ميناء قادس، أركبوه فوراً لارساله الى العرائش حيث وجد وسيلة بواسطة الذين جاؤوا به أنفسهم لأن يكتب ثانية من قادس الى الماركيز والاميرة.

إن هذه الأخيرة التي أنبئت من طرف الماركي دي سييرا نفادا، لم تول الرسالة أي اهتمام، ولكن الأخرى التي كانت تهواه وتعلم أن نكبته إنما هي ناتجة عن حبها وعن خيانة الويرة، فانها لما وصلتها رسالته قبلتها مائة مرة، وسقتها بدموعها، وبعد أن أطلقت تأوهات تلين أقسى الصخور، أرسلت إليه الرسالة التالية التي ترجمتها من أصلها

«ان اختطافك وغيابك أزعجاني وجعلاني شديدة الحزن الى يوم الأمس، حيث توصلت بأخبارك. حقا بما أنك الشخص الذي يمكن أن أقول حقيقة إنني أحبه أكثر من جميع الرجال، فباستطاعتك ان تقدر الطعنات القاسية التي اصابت روحي منذ إقصائك. فلا تتجنَّ علي، دُن رفائيل، باعتقادك ان باستطاعتي أن أسلو عنك ! وبالرغم على أن البحار والأقاليم تفصل بيننا، وتحرمنا من انبساط رؤيتنا، وتبادل أفكارنا، فان روحي ستظل حاضرة لديك دائما حتى عودتك. وسأحاول ما أمكن أن يكون ذلك عما قريب، وتيقن أني لن أدخر وسعا في البحث عن كل الوسائل لأحصل من الملك على ما أريد. لا يفتك ان تكتب الي بجميع الطرق الممكنة، لأنني ساكون دائمة الخوف من أن الكآبة التي تحس بها بسبب النفي من أجل قضيتي، ستسبب لك مرضا يحرمني للأبد من أن أعرفك بان غرامي الذي لا حد له لن ينتعش إلا بعونك رغما عن أعدائنا».

شفعت الماركيز هذه الرسالة بأخرى وجهتها الى عامل العرائش، ترجو

منه اعتباراً لها ان لا يقوم دُن رفائيل في المركز بغير الخدمة التي تروقه. وبعد مضي ستة أشهر من مجيئه تخلى أحد الجنود عن مركزه وفر الى المغاربة، وساقه الذين قبضوا عليه الى القصر حيث كان يقيم الامير غيلان.

لما علم هذا الامير، الذي تحدثنا عنه في مكان آخر، من ذلك الجندي بالمرض والمجاعة السائدين في العرائش، وان اكثر من نصف الجنود في المستشفيات لم يرد إرجاء فتحها أكثر. ولهذا الغرض، أرسل يستنفر سكان تطوان وأصيلا وجميع أعراب الاقليم، ليأخذوا اسلحتهم ويلتحقوا بالقصر بعد ثمانية أيام، ففعلوا، وعددهم عشرون الفا. ولما أراد غيلان أن يأخذ الحصن أمر بصنع عدد من السلاليم في غاية العلو والعرض. ولا شك أن مشروعه كان سينجح أكيدا، لولا أن العناية الالهية التي كانت تسهر على إبقاء ذلك الحصن لم تقض بعودة ذلك الجندي أليه.

ولما تقرر يوم الهجوم، خرج الجندي في الليلة السابقة وبالرغم على أن البادية كانت مليئة بعدد من الاعراب جاؤوا للمشاركة في تلك الغارة، فان الحظ ساعده حتى إن احدا لم يسأله من هو او الى اين يذهب. وعندما وصل الى الابواب وطلب العفو، أدخل في الحين، وأخبر فورا بالاستعدادات التي شاهدها في القصر من أجل مهاجمة الحصن يوم الغد.

اعطى ألحاكم في نفس الوقت الأوامر اللازمة ليؤدي كل واحد واجبه على الوجه الاكمل، وشحنت المدفعية بقطع الحديد والسلاسل وكور الرصاص، وكذلك كمية من المجانيق والعلب وآنية النار، وملئت عدة براميل بالقطران والكبريت والقنابل اليدوية وكلف دُن رفائيل باشعالها، لتقذف على المهاجمين عندما يتسلقون السلاليم.

وعندما تم كل شيء في أحسن نظام، أرسل ستة من جنود النجدة في سفينة جنوية كانت قد وصلت في نفس اليوم حاملة مؤن الغذاء وخمسة وعشرين من الجنود المنفيين. وحتى لا يطلق ربان السفينة مدفعيته سدى، أمر بقطر سفينته التي بقيت راسية في مدخل الجرف الرملي، أمام الخنادق التي كان من المتوقع محاصرتها. وبعد أن وضع في نظام محكم ثماني قطع من المدفعية مع ثلاثين منجنيقا، ذهب الى الحصن عند الحاكم ليتلقى الاوامر التي كان عليه ان يراعيها.

اقتحام العرائش

استعرض غيلان جنوده في أول الليل، وكانوا محتشدين أمام الحصن عند طلوع الفجر. وأمر في نفس الوقت بردم الخنادق بجذور وأكياس من الصوف، ونصب السلاليم على الأسوار، ثم بدأ يأمر باقتحام المدينة.

اطلقت مدفعية الحصن، فكان لها مفعول كبير، وبدأت السفينة التي شحنت مدفيعتها بالسلاسل والاكياس وكور الرصاص والمسامير والمكعبات تطلق النار حتى إنها أخلت السلاليم بطلقتها الأولى. وألقى الاسبانيون الذين كانوا ما زالوا يطلقون النار، ببعض براميلهم المشتعلة في الاماكن التي كانت السلالم منصوبة فيها، مع كمية من آنية النار والقنابل اليدوية، أرغمت المغاربة على التقهقر.

ان دُن رفائيل الذي كلف بقذفها في الوقت الملائم، والذي أراد أن يساهم في انتصار ذلك اليوم، دفع أحد تلك البراميل وهو في غاية الاشتعال على سلم محمل بالمغاربة، واذا بعدد من القنابل التي كانت في داخله تنفجر قبل أن يسقط، فأحرقته قليلا في وجهه، وكثيرا في ذراعه الايسر. وبالرغم على جرحه لم يمنعه ذلك من الثبات في القتال، وحتى مساعدة الآخرين.

أتى غيلان الى جانب النهر ليرى محاربة عدة زوارق كانت قد أقبلت من القصر لتطويق الجنوي، فشاهد العديد منها وقد كسرتها مدافع السفينة وحطمتها وعاد بعد ذلك الى الحصن حيث رأى عددا كثيرا من قومه قتلى، وآخرين ينسحبون في فوضى. فلامهم على جبنهم وهددهم باعدامهم جميعا ان تخلوا عن هذه المعركة. وبين لهم ان عدد المسيحيين قليل، وسيملون الدفاع عن انفسهم عما قريب ولن يقدروا ان يحولوا دون اقتحامهم الحصن الذي سيخلد ذكرهم. فعاد المغاربة الى الهجوم بشدة اكثر من المرة الاولى، وقد شجعتهم تلك الكلمات والمثل الذي اعطاهم اياه بسيره في الطليعة على رأسهم. لكن الاسبانيين والجنويين، الذين حققوا معجزات، قاموا بمجزرة اكبر مما فعلوه في الهجوم الاول.

لم تخلف هذه المعركة التي دامت من طلوع الفجر الى الساعة الثانية بعد

الزوال الا خمسة عشر قتيلا من المسيحيين، لم يبق من المغاربة الا الفان هزمت منهم السفينة اكثر من الثلثين. واثر انهزامهم، أمر غيلان بوضع راية بيضاء على رأس رمح من اجل التفاوض، فأذن له برفع قتلاه، مقابل مائتي رأس من البقر بعث بها الى الحصن مع نفس العدد من الغنم. وكان ذلك عام 1664.

وكما حدث قبل القتال، كان حاكم العرائش قد وعد بالافراج عن الجنود اذا ادوا واجبهم على احسن وجه. ولما انتهت المعركة قال لهم إنه لا يمكن ان ينجز وعده ما لم يرسل له الملك جنودا لحراسة الحصن الذي احتفظوا به فعليهم التمسك بالصبر، وانه سيكتب الى الملك بهذا الصدد، والى المجلس بواسطة ربان السفينة، الذي سيشهد هو نفسه بالاخطار التي نجوا منها بفضل شجاعتهم.

لم يفت دُن رفائيل أن يكتب ثانية الى سيدته بهذه الوسيلة، مخبرا اياها بجميع ما جرى في الهجوم. ولم تلبث الماركيز ان ردت عليه بالجواب التالي

«بمجرد توصلي برسالتك، توجهت على الفور الى القصر، آملة ان أحمل الى الملك أولى أخبار انتصارك، ودخلت الى غرفته في نفس الوقت الذي قدمت اليه الرسالة التي كتبها له حاكم العرائش في الموضوع. وسر جلالته جدا بسبب انتصار جيشه وقلة عدد الجنود الذين فقدناهم. ووصفت له بكل حماس المخاطر والجروح التي اصابتك، فكان ذلك الامير الذي علم جيدا أن لي هناك فائدة سرية تدفعني للعمل، ينصت الي بفرح، وكان سيمنحني حريتك لولا الدوق دي... الذي انضم الى عديد من أعدائك الآخرين، فبينوا للملك انه ليس من الانصاف مكافأة فرد واحد على الانتصار الذي كان لجنود شجعان آخرين نصيب مماثل في تحقيقه، وان ذلك قد يتسبب لهم في حسد يجعلهم في مناسبة اخرى يلاحظون ما أولوا على شجاعتهم من قليل تقدير، وانه لم يُفرج إلا عمن كان لهم اصدقاء، وبذلك يحمون الحصن بكيفية أسوأ، ويبحثون عن حريتهم بطرق غير مباشرة. ثم غيروا وجهة المحادثة شيئا فشيئا فخرجت من القصر وانا آسفة كئيبة لا أستطيع ان اتأسى، لانني أجدني غير قادرة على القيام باي شيء لمؤاساتك، في حين أن لاعداءنا حراسا كثيرين وسلطة مفرطة. لهذا ايها الدن رفائيل، ان كنت تحبني، كما لا أشك في ذلك وان كنت شغوفا برؤيتي مرة ثانية، بقدر ما أنا مولهة بامتلاكك، اذا شفيت جيدا من جراحك، لا تتظاهر باجتياز حدود منفاك، بل استسلم الى غيلان. وان كان لابد للافراج عنك من دفع وزنك ذهبا، فانني املك من الذهب الناض ما سيرضي جشع ذلك الامير. فلا تتأخر فى

الكتابة الي بمجرد ما تصل الى هناك، حتى أبعث فورا بثمن فديتك. وعلاوة على ذلك، أرجوك الا تتفجع، لان تحمل الآلام التي تقاسيها أقل عندي من تحملك لها. ان روحي المتفجعة تحس بجميع أوجاعك، ويشق فؤادي أدنى كروبك، ولم تفتأ عيناي تذرفان انهاراً من الدموع على فقدانك. ولكن يجب الامل في ان نكبتك ستنتهي عما قريب ومع ذلك عليك ان تعترف لي بهذا الحق انني بالرغم على اعدائنا، لن يكون لي أبدا زوج غيرك».

أسر دُن رفايل

بعد ان توصل دن رفائيل بهذه الرسالة، لم يفكر وقد شفي من جروحه الا في ان يمتثل بسرعة. ولما كانت له الحرية في ان يفعل كل ما يريد فانه قام في ليلة حالكة السواد ليحرس على ضفة النهر في أسفل احد البروج. وبعد مرور الدورية عبر النهر سباحة ليستسلم الى العدو. وكان في أعلى البرج حارس آخر سمع صوتا في النهر واطلق النار صدفة فأُصاب دُن رفائيل بجراح في فخذه اثناء خروجه من الماء. ضمد المغاربة جراحه بمجرد ما قبضوه، وساقوه الى القصر الكبير، حيث اصابته حمى مزمنة كادت تودي به الى القبر. فلم يفكر في ذلك الوقت اصلا في الكتابة، ولما بدأت صحته تتحسن، اتى مولاي رشيد الذي كان ملك تافيلالت وفاس ليحارب غيلان، فهزمه في المعركة وألزمه بترك اماراته والانسحاب الى الجزائر.

وصوله الى فاس

حمل دُن رفائيل مع سائر أسرى غيلان الى فاس، حيث لم يكن هناك امل بعد في الفداء. واستخدم بعض الوقت في الاشغال العادية للاسرى الآخرين. لكن مولاي الرشيد حين علم (بواسطة بعض الاسلاميين الذين عرفوا رفائيل في العرائش) انه يحسن العزف على القيثار والبيان القيثاري، فانه جلب هاتين الآلتين من اسبانيا، ولم يكلفه باي عمل آخر سوى العزف عليهما عندما يتناول طعامه.

كتب رفائل الى الماركيز يخبرها بما جرى، وطلب منها أن تمحوه من

ذاكرتها طالما انه سقط في مكان لن يتخلص منه ابدا. وناشدها أن تسعد نفسها، وتنسى بائسا اضطهده القدر الذي انتظره عبثا، وأما هو فلن ينساها ابدا، وان أصبح منقطعا في مكان لن يخرج منه مدى الحياة، ولا يفوته ان يصرح تصريحا شديدا بأمانته التي لا تنقض.

وبعد مدة من ارسال خطابه، وصله جواب من أمين مال الماركيز، وكان من اصدقاءها الاوفياء، اطلعه فيها على وفاة تلك السيدة الشابة. وحيث ان دُن رفائيل اعتبرني دائما من أصدقائه الحميمين إكراما لي، فانه سمح لي باستنساخ الجواب، وترجمته كما يلي :

«ان السيدة الماركيز دي.. بمجرد توصلها برسالتك الاخيرة تألمت كثيرا، معتبرة انها سبب مصائبك، حتى انها سقطت مريضة منذ يوم الغد. وعندما اضطجعت في فراشها لم تزل تندب حظها السيء وحظك السيء. كانت تناديك دوما، ولا تطيق النطق باربع كلمات دون ان تذكر اسمك من بينها، كانت تصيح : اكان لازما يا دن رفائيل ان تنفي من اسبانيا من اجلي وخارج وطنك ؟ أكان لازما من اجل مراعاتك المفرطة لارادتي أن تصبح بين يدي أقوى ملوك البربر أجمعين ؟ يا لتعاستي ! هل كان علي ان أهواه لاجعله شقيا بهذا القدر ؟ اسمح لي، عزيزي رفائيل، فان مغالاة حبي كانت سبب جرمي، ولكن بما أنني محرومة ابدا من نعمة رؤيتك، ولن تكون لك بعد حرية، فاني أريد ان لا أعيش. نعم ! أريد أن أموت، لان الرواية التي سيقصونها علي كل يوم من مصائبك المتزايدة قد تصيبني بضروب قاسية من الموت اهول من الموتة التي أنتظرها والتي ستجعلني سعيدة، إذ أن السعادة في الموت، عندما لا نستطيع أن نملك من نحبه وحده، وكانت تصحب هذه الكلمات بنهر من الدموع تسيل مثلها ممن هم أقل الناس احساسا.

ولما انتشر خبر مرضها، اقبل لزيارتها جميع اهلها، وحتى جميع كبار رجال الحاشية. واستدعي الاطباء لعيادتها، واعترفوا بأن داءها من الروح، وأن علمهم لا يستطيع ان يعمل شيئا. وعندما انتشر الخبر في مدريد جعل كل واحد يتحدث عنه بشكل مغاير، وكان الجميع، ما عدا اهلها، يجهلون المودة التي كانت تحتفظ بها نحوك دائما. وأخفي السبب، الى أن جاءت الماركيز داسطوركا والكونطيس دي ميرا فلوريس لزيارتها، فوجدتا قرب فراشها رسالتك التي

كادت تكون كلها ممحوة من غزارة الدموع التي سكبت عليها. فقرأتاها بمحضر دوق دي... خصمك، الذي لم يبرح منزلها يوما.

وبعد انصرافهما، تقدم ذلك الدوق أمام الماركيز لتخفيف ألمها بسبب فقدانك، ومناشدتها أن تقبل خدماته بدلا من التي لم تكن أنت قادرا على تقديمها لها. فنظرت الماركيز بإباء، متهمة اياه بجميع مصائبها ومصائبك. وحتى تتحداه اكثر صرحت له بصوت عال أنها انما تريد ان تموت لعدم استطاعتها ان تكون لك، وحتى لا تعيش بعد نكباتك. وماتت في اليوم الثامن من مرضها، بفرحة بدت غريبة من شخص في سنها وجنسها ومنزلتها الرفيعة. ان الدوق الذي حزن لفقدها يظهر حتى الآن لا عزاء له. وحتى يظهر الى أي حد تصل المودة التي كان يكنها لها، فانه علاوة على الجنازة التي اقامها لها اهلها، وكانت جد فاخرة، أبى الا أن يقيم لها أخرى فاقتها بكثير. ولم يدخر أي شيء في هذه الجنازة الفاخرة ليظهر للحاشية كلها أنه إذا كان أحبها بحرارة فليس ذلك من اجل أموالها الكثيرة بقدر ما هو من اجل المزايا والفضائل التي عرفها في شخصها، والتي قد يراها أيضا في الضريح، وان لم يكن محبوبا لديها».

الفرار الاول

أفجع فقدان هذه السيدة دُن رفائيل بشكل ملموس، واعتراه الغم لدرجة أنه هم بالفرار ليقف على قبرها ويؤدي له واجب الاكرام. ولما كان الملك غالبا ما يعطيه المال، وقد توفر لديه منه ما يكفي، فانه أطلع على مشروعه أحد الاسلاميين كان قد رآه فيما سبق من الايام جنديا بالعرائش. ووعده بمنحه مائة ريال ان سلم له فرسه وسلاحا وثيابا. فقبل الاسلامي عروضه، وبعد ان استلم المال، قدم للدن رفائيل كل ما وعده به. ثم ذهب الى أبواب المدينة ليعلم حراسها ان يقبضوا عليه عند خروجه.

ركب دُن رفائيل الفرس بعد ان أتم استعداداته، وتوجه نحو الابواب ليخرج من المدينة. لكنه اوقف في الحين عندما اراد المرور وسيق الى الملك الذي سأله عن السبب الذي دعاه الى الفرار من بلاده، وعمن اعطاه الفرس والثياب والسلاح. عرف دن رفائيل ان الاسلامي خانه وانه هو الذي اخبر حراس الابواب، فاتهمه بانه الذي وفر له كل شيء مقابل مائة ريال طلبها منه. فامر

الملك بالقاء القبض عليه فورا، وقذفه على اسنة معقوفة في مكان المشنقة. واما دن رفائيل فلم يمسسه الملك بسوء، وتابع مهامه الى ان جاء اجل مولاي رشيد.

كيف قدم الى الشيخ عمار

وبعد مدة اعتلى عرش مملكة فاس مولاي اسماعيل اخو مولاي رشيد وخلفه، واسترجع مملكة مراكش من يد ابن اخيه مولاي احمد بن محرز، وسلم الى الشيخ عمار، قائد فرسانه في تلك الحرب، ثمانية أسرى مسيحيين مكافأة له على النصر الذي احرزه بسببه.

ان رضوان الذي كان قائد الاسرى المسيحيين اعطاهم حسب اختياره وبما ان دن رفائيل حاول الفرار ويخشى أن يقوم بمحاولة ثانية فقد جعله من جملة الذين قدموا اليه. اخذهم الشيخ عمار الى فاس البالي ليخدموا في قصره، حيث اقام متمتعا بالهدوء مدة من الزمن لكن عندما ثارت المدينة وكان دُن رفائيل منهمكا صباح مساء في وضع الغام للاستيلاء على قصركان يزعجه كثيرا، اراد ان يرجع الى فاس الجديد ظنا منه انه سيعامل فيها بكيفية الطف، لكنه أخذ وأعيد الى سيده.

ان الشيح عمار الذي كان رجلا مرعبا، أمر بان يجلد رفايل بمحضره ثلاثمائة جلدة وان يجلد مدة ثلاثة ايام في كل صباح مائة جلدة. حتى ازيلت له من عدة مواضع من جسمه قطع لحم ميت في حجم قبضة اليد. وكانوا ينظفون له الجراح بالملح والخل حتى لا يصاب بمرض الآكلة، واحيانا بماء الحياة لعدم وجود اي طبيب جراح، ولا أدوية اخرى لتضميد جراحه، ولما بدأ يقدر على المشي لقيه الشيخ عمار ذات يوم وسأله مستهزئا، هل سيفر مرة أخرى ؟. ورد عليه رفائيل، الذي كان الموت عنده أحلى من الحياة، بلهجة شديدة، وبدون خوف : انه، اذا كان قد تصرف نحوه بهذا القدر من القسوة من أجل خطا طفيف، فان الله الذي يحكم بالحق سيمن عليه بان يراه مجزيا على عمله الجزاء الاوفى. وكان هذا شبه تكهن أخبر به، لان الشيخ عمار قتل ومزق من طرف عبيد الملك السود في الغارة الاخيرة على مراكش التي حضرها رفائيل، كما سنرى ذلك فيما بعد.

كان الشيخ عمار قد تنگر للنعم التي أنعم الملك عليه بها، وصار من بين

ثوار فاس وأحد كبار رؤسائهم، وانتدبته المدينة ليقود الجنود المبعوثين الى تازا لمساعدة مولاي احمد بن محرز الذي بايعته ملكا. لكن بعد اربعة عشر شهرا عرض مولاي اسماعيل السلم على المدينة، فقبلته بسرور، ونقلت انا ودُن رفائيل مع سائر المسيحيين الى فاس الجديد. ولما دخل مولاي أحمد الى مراكش بعد سنتين، اعطى عمه مولاي اسماعيل الذي كان يتفسح في سلا أوامره الى قواد الجيش الموجودين بفاس ان ياتوا بجنوده للالتحاق به قريبا، والى رضوان ان يبعث باثني عشر مسيحيا لقيادة المدفعية.

ظن دُن رفائيل الذي ما فتىء يفكر في حريته، انه سيجد الفرصة سانحة للبحث عنها اثناء الحركة فاعطى عشرة ريال ذهبية الى رضوان ليكون من بين ذلك العدد. ولما انفصل عنا وهو يعلم ان الملك عفا عن الشيخ عمار، وانه ذاهب الى الجيش، قال لما انه يتمنى ان يراه معاقبا عقابا شديدا بسبب التعسفات التي قاساها منه وذلك ما حدث. كان الملك مخيما في دار مائة بئر، القريبة من أسفي واذا بالشيخ عمار يتآمر مع عدد من كبار قواد الجيش لاغتيال مولاي اسماعيل اثناء تفسحه. وبقي عمار وحيدا في الميدان مصابا بالف طعنة ومات بين حوافر الخيل.

تألم دُن رفائيل كثيرا في تلك الحركة من جراء نقصان المؤن في الجيش لكن بما أنه كان ينوي دائما الفرار، وأن حصن مازغان (البريجة) المحتل من طرف البرتغاليين على مسافة فرسخين من أزمور، لم يكن يبعد الا بستة أيام سيرا على الاقدام، فاتح في الأمر قائدا برتغاليا كان قد جاء معه أيضا الى الجيش بنفس النية لتجربة الحظ، فقبل عن طيب خاطر، ولما كان عليهما ان يسيرا ليلا حتى يكونا في مأمن اكثر ولا يعرفان الطرق فان دُن رفائيل تودد الى مسلم من تلمسان كان قد رآه في اسبانيا أسيرا عند كاردينال أراگون وكان ذلك المسلم لا يرغب في احسن من العودة اليها لانه كان قضى فيها وقتا هنيئا اكثر من وطنه. فرأى الفرصة سانحة ليعيش هناك حرا، وعرض نفسه عليهما ليدلهما على الطريق.

وبعد ان تم الاتفاق أراد المسلم أن يسرعوا أكثر، فحاول ذات ليلة أن يسرق خيلا من المحلة لكنه فوجىء ومزق من طرف زنوج الملك. الذين لم

يشفقوا عليه. وبعد أن علم دُن رفائيل بنكبته لم يفشل بسبب ذلك، بل بالعكس خرج في الليلة التالية من المحلة مع البرتغالي بعد أن اعدّا زادهما وذهبا ليحتفيا في سفح جبل على بعد ستة فراسخ من هناك.

كان في ذلك الموضع عدة كهوف، تفضي مداخلها الى جدول ماء فدخلا في أحدها ليستريحا. وعندما استيقظا سمعا اصواتا وخشيا أن تكون لجنود أرسلوهم لتعقبهم فتوغلوا أكثر. وكان لثعلب جحر هناك ففزع وقفز فوق رأسيهما لانه لم يستطع أن يمر من تحت، لكونهما كان يحتلان عرض الكهف كله فاصابها الرعب أولا لعدم معرفتهما ما عسى ان يكون ذلك. ولكي يتحققا من الأمر عاد دُن رفائيل الى المدخل فأبصر الثعلب على جانب الجدول فدخلا الى الوسط واستراحا الى غروب الشمس، ثم أخذا يسيران مشيا طوال الليل دون ان يصيبهما شيء هام، لكن في الليلة الثالية عندما استأنفا سيرهما أبصرا في ضوء القمر مكانا كانت المحلة قد خيمت فيه عند مرورها، واكتشف فيه الملك مطامير عديدة مملوءة حبوبا.

ولما تجاوز ذلك المكان. وسار بعض الخطوات، سمعا زئير أسد يبحث عن فريسة، وأصغيا ليعرفا من أي جهة ياتي، فما لا الى اليسار، لأن الاسد كان آتيا مباشرة من الامام لكنهما لم يخطوا اربعين خطوة في ذلك الاتجاه حتى سمعا زئير أسد آخر قريب منهما. فراعهما ذلك حتى عادا لا يفكران إلا في الالتجاء الى احدى المطامير التي خلفاها وراءهما.

ان الاسود التي شمت رائحة فريستها ولم تستطع العثور عليها، اقتفت اثرهما وهي تطلق زئيرا مرعبا، لذلك اوصى دُن رفائيل البرتغالي بان ينزلا معا في نفْس المكان حتى يتعاونا في الصعود، اذا أرادا الخروج منه. فهبطا الى مطمورة كان بقرب مدخلها دغل كثيف يحجبه تماما. ولم تفتأ الاسود طوال الليل تدور وتزأر حولها الى طلوع الفجر فانقطعت اصواتها. لكن اضطرابا آخر اعتراهما وأفجعهما أكثر، لانهما كانا يسمعان طوال النهار قوما يمشون وخيلا تصهل، وخياما تنصب، وماعزا وغنما تثغو، وبقرات وثيران تخور، ورجال ونساء يغنون. فظنوا أن دوارا للأعراب اتى ليخيم في ذلك المكان، وأنهما سيكشف أمرهما لا محالة عما قريب.

وبينما هما في ذلك الاضطراب، اقتربت من الدغل الذي يحجب مدخل المطمورة، فتاة اعرابية تغني بكيفية رائعة. فغنت بعض المقاطيع الغرامية، ثم بعد ذلك شكت الى احدى رفيقاتها بأن والديها ابيا ان يزوجاها من ابن عم لها تهيم في حبه. وتطرقتا الى الحديث عن اخبار الحرب وان مولاي اسماعيل سينتصر ويطرد ابن اخيه خارج مراكش بعد حصار طويل وقالت الفتاة اخيرا انه منذ بضعة ايام فر مسيحيان من المحلة، ويبحث عن أخبارهما. ولما أنهت كلامها، اقترب قطيع من العنوز والتيوس من المطمورة. وما ان وصل الى الاسفل حتى عاد الى الاعلى كأن له أجنحة، الأمر الذي جعلهما يعتقدان بان ذلك ضرب من السحر القاه القائد بنجوجة على اسمالهم بعد ان غادرا المحلة.

ولابد من الاشارة إلى أنه اذا فر مسيحي، ارسل سيده الى طالب، وهو من رجال دينهم، فيصحبه الى المكان الذي كان ينام فيه الاسير قبل فراره او تعطى له بعض الأسمال التي يرتديها في غالب الاحيان. فيهمهم على المكان او الاسمال، ثم يتناول حزمة خيوط يربط فيها عددا من العقد، وهو يهمهم دائما، ويثبتها في المكان او يربطها في اسمال المسيحي الذي يضحي مسحورا بهذه الوسيلة، غير قادر أبدا على كسب حريته. واتفق أن عددا من الأسرى ألقي عليهم مثل هذا السحر، ساروا الليل كله ووجدوا انفسهم عند طلوع الفجر في نفس الأماكن التي انطلقوا منها في الامسيات السابقة، الامر الذي جعل دُن رفائيل ورفيقه يعتقدان أن ما سمعاه في الليلة السالفة وطوال ذلك النهار انما هو محض خيال، فتسلحا باشارة الصليب ليقصيا عنهما الأرواح الجهنمية التي تريد إفزاعهما. صعد الدون رفائيل فوق كتفي البرتغالي، ونظر من كل جهة بعد أن أخرج رأسه من المطمورة، فلما لم ير شيئا، امسك قبضة شوك ليصعد الى اعلى، ثم مد يده من هناك الى القائد ليسحبه بعده. وعندما أرخى الليل سدوله، استأنفا سيرهما وسارا الى طلوع الفجر. وبما ان الماء كان ينقصهما طوال يومين فقد شربا بولهما. لكنهما طلبا الماء عند مرورهما باحد القصور.

دلهما الأعراب على عين ماء سيجدانها في طريقهما، فتوقفا عندها وشفيا غلتهما وملآ قربة حملاها من اجل ذلك. تآمر الأعراب حين تيقنا بأنهما فاران، فتبعوهما لسلبهما. لكن الاسيرين الذين حدثهما قلبهما بما سيفعل بهما انطلقا بسرعة وابتعدا عن الطريق. ولما كانا يسرعان أسقط من البرتغالي الذي ارتعدت

فرائصه من الخوف، الكيس الذي كان فيه خبزهما، وحيث إنه بقيت لهما ثلاث ليال للوصول الى الجديدة فانهما مشيا يومين دون أن يأكلا شيئا غير جذور النخل القصير (الدوم) التي لم يكونا ينتزعانها إلا بشق الانفس نظراً لضعفهما.

ان الجوع الذي كان يرغمهما على السير نهارا، أوجد لهما الاغاثة، لانهما صادفا معسكرا متنقلا من جنود مولاي احمد الذين كانوا يجوبون البادية لنهب القوافل المتوجهة الى معسكر ملك فاس، الذي كان في اتجاه سانت كروا (اكادير) ولما سألهما الجنود من هما، وعلموا انهما فرا من معسكر مولاي اسماعيل ولم يأكلا شيئا منذ ثلاثة ايام، أعطوهما زبيبا وتمرا، وتركوهما يتابعان طريقهما. ولقيا مساء نفس اليوم بعض أهل أزمور، كانوا متوجهين الى أسفي، فعرفوا أنهما مسيحيان وألقوا عليهما القبض وساقوهما إلى عامل أسفي الذي زج بهما في مطمورة المجرمين حيث قضيا معهم أحد عشر شهرا على الخبز والماء، وذلك حين أدركا على بعد أربعة فراسخ من الجديدة بعد أن قاسيا الكثير من الأهوال والأتعاب. وبعد ما دخل مولا اسماعيل الى مراكش وأخرج منها للمرة الثانية ابن اخيه وأعطاه اقليم درعة، ذهب عامل أسفي ليبايعه وصحب معه الأسيرين فاستقبلهما الملك استقبالا حسنا وصفح عنهما عندما علم أنهما فرا بقصد الرجوع الى وطنهما. وبعد أن دخلا مع أصحابهما ليخدما في المدفعية، استرجعا قوتهما سريعا وتزودا للفرار مرة أخرى.

ولما .انصرفا ارسل القائد بنجوجة، الذي كان يحكمهما ويحرسهما، عدة جنود في اثرهما، كان من بينهم اثنان رافقاهما طويلا دون أن يعرفوهما، لكن المغاربة لاحظوا أنهما يحاولان الابتعاد عنهم ما امكن، فارتابوا في ذلك وسألوهما من اي مكان هما، والى اين يريدان الذهاب. فاجابهم الأسيران بانهما مسلمان ولدا بمدينة تلمسان وان قائدهما الذي بقي في مراكش سمح لهما بالانصراف، فهما متوجهان إلى سلا ليقوما بالقرصنة. فقالوا لهما : «اين هي رخصتهما ؟». ولما اجابا بأنهما ليست عندهما رخصة، قال لهما الجنود انهما هاربان، وأرغموهما على العودة الى مراكش . ولما وصلا الى ابواب المدينة، صرح دُن رفائيل بأنهما مسيحيان فرا من المعسكر. فصاح الجنود «كيف ؟ قلتما إنكما من ديننا ومن مواليد تلمسان، ولكن الآن اذ تغيران دينكما، فلنذهب عند القاضي !» ولما مثلا بين يدي الحاكم، أدليا بمبرراتهما فاستمع اليها وصرفهما

مبرئين قائلا للمغاربة الحاضرين : ان جميع المسيحيين الذين يدعون بأنهم مسلمون ولم يشهدوا بذلك علانية، إما لانقاذ حياتهم أو لكسب حريتهم، يجب ان يطلب منهم العدول عن كلامهم خلال الأيام الثلاثة الاولى، وهكذا وبكل انصاف لا يمكن أن يمس هذان بأي سوء

وبعد أن أصدر القاضي هذا الحكم، رد الاسيرين الى المعسكر، وأخبر من رافقوهما اليه من قبله الملك بما جرى، فامر القائد بنجوجة بابقائهما في الأغلال ليل نهار، الى أن يرحل الجيش. وأذاقهما ذلك المتوحش ضروبا من المحن، وكانا سيتألمان أكثر لولا أن الملك الذي عزم على الرجوع الى فاس أمر بفك أغلالهما. ولما شن هذا الامير الغارة على بربر الزوايا[1] الذين ثاروا، قتل القائد البرتغالي مع اسباني بشظايا مدفع انفجر. ولما عاد الدون رفائيل الى مكناس، كان لحسن الحظ في عداد الاسرى الاسبانيين الذي فدوا وحرروا عام 1680

الفصل الخامس عشر
يتضمن مغامرات نبيل نورما ندي يدعى السيور دو لابْلاس

هذا الذي سأتحدث عنه نبيل من دوقية لونكفيل في نورماندي، ونظرا لطبعه المتعجرف فانه لم يقبل أن يحب أبوه أخاه البكر أكثر منه، لانه كان اكثر منه تعقلا وأفضل شمائل. فأرسله أبوه الى انجلترا وهو في مقتبل العمر، ولما عاد منها ولاحظ ان حب الأب لذلك للأخ ازداد قوة، وأنه يفضل عليه حتى بعض الاخوة الصغار الذين ولدوا في غيبته، أصابته غيرة شديدة دفعته إلى أن يصارع اخاه عدة مرات. وذات يوم كانا في القنص معا، أخطأت بندقية السيور دولابلاس اطلاق النار على أرنب فوضعها على ذراعه ليجعل فيها قذيفة إلا أن النار انطلقت فورا من البندقية، فأصابت أخاه الذي كان قريبا منها وأردته شبه ميت في عين المكان. ولما رآه السيور دوبلاس في تلك الحالة لم يجرؤ على الرجوع الى القصر، خائفا من أن يظن أبوه أن ذلك انما وقع انتقاما لا

---

(1) يقصد حركة المولى إسماعيل لاخماد ثورة أحمد بن عبد الله الدلائي في الأطلس المتوسط .

صدفة. ولكن حتى لا يدع أخاه بدون إغاثة، ارسل بعض الفلاحين ليحملوه، وأستعار منهم فرسا ليتقي به غضب أبيه.

فر الى دييب ليجتاز الى انجلترا، لكنه لم يجد مركبا يحمله سريعا، فأوصاه عم له كان يعمل هناك كخليفة لعامل تلك المدينة أن يركب معنا الى أمريكا الى أن يتصالح مع أبيه فأطاعه ليرضيه. ولما وصل الى دون معنا، اخذ يظهر الميل الطبيعي الذي كان له نحو اغراء النساء

وذات يوم، بينما كان يتسلى مع نبيل من أصدقائه لقيه، وكان يحسن اللغة الانجليزية لاقامته بانجلترا قديما، سمع من الغرفة التي كانا فيها أصوات نساء يغنين غناء عجيبا ويشتكين من برودة عشاقهن، متمنيات أن يبدوا لهن ملاطفة اكثر. ظن فرنسينا أولا أنهن عاهرات، يغنين عمدا لاجتذاب من يريد أن يتلهى، فترك صاحبه وحده وذهب عندهن. كان ذا مظهر جميل، وبما انه اراد ان يجرب حظه في نيل بعض النعم، فانه فتح باب غرفتهن التي كانت مجاورة لغرفته. فأبصر عند دخوله شابا مرتديا لباسا فاخرا كان معهن. وبعد ان انحنى أمامهن، طلب منهن بكل أدب هل يمكنه ان يشاركهن في الحديث .

ونظرا لما للسيدات الانجليزيات من مودة طبيعية نحو الفرنسيين، لان مجاملاتهم وملاطفاتهم تفوق سائر أمم الارض، بالاضافة الى أن هذا يحسن لغتهن، فان صغراهن نهضت وهي مضطربة مرتبكة وقدمت له مقعدا وجلست بجانبه. واعطت الاخريات مهلة الخجل التي أحدثتها الحشمة على وجوههن لتهدأ قليلا بسبب مداهمتهن من طرف شاب قد يسيء الظن بسلوكهن. فسألته أولا هل جاء من فرنسا، وما هي الأخبار التي يحملها منها، وهل صحيح ما يروج عن الحرب مع الهولانديين. وبعد أن أجابها السيور دولابلاس بما خطر في ذهنه، بدأ يداعبها ويشعرها في كلمات قليلة بسبب مجيئه. ان تلك الفتاة، التي ليست من الصنف الذي فكر فيه أطلعت حينا أخواتها الثلاث وأخاها على موضوع دخول ذلك الرجل الغزل .

وفجأة نهض الانجليزي، الذي لم ينبس بعد ببنت شفة وبدأ يسب، واضعا يده على سيفه. ففعل الفرنسي مثله، وضربه بحد السيف. وأسال دمه، ولما رأتهما الفتيات شاهرين سيفيهما واخوهن جريح، أخرجن رؤوسهن من النوافذ

واخذن يستنجدن ضد القتل، وهن ينادين الناس للاغاثة. وتسلح صاحب البيت مع بعض بحارينا، الذين كانوا يعاقرون الخمر هناك، بعصي مصفحة بالحديد وصاحبوا النبيل الذي كان قد نزل الى الحديقة ليفصل بينهما. وتلاقوا في الوقت المناسب في ذلك المكان ليمنعوا الانجليز الذين اسرعوا جماعات عندما سمعوا صراخ أولئك الفتيات، من القبض على النورماندي، ويساعدوه على الفرار

وقد علمنا ان اولائك البنات، اللائي جئن مع أخيهن لمشاهدة البحر والسفن، كن بنات رئيس جامعة أوكسفورد، وبعد أن تم كل شيء، لم يعد القائد يقبل أن يتركه ينزل الى الأرض. فظهر طوال ما تبقى من السفر في غاية الاستقامة والاعتدال .

ولما وصل مولاي رشيد الى سلا ، عام 1671، اخذ دولابلاس من الذي كان اشتراه ليعطيه الى القائد عبد العزيز أعراص، الذي أخذه معه الى مراكش، حيث كان يقيم عادة كرئيس مجلس مولاي أحمد بن محرز، خليفة الملك هناك. ونظراً إلى ان السيور دولابلاس كان يعرف الموسيقى معرفة جيدة وله صوت عجيب، اضافة الى انه تعلم منذ عودته من انجلترا العزف على عدد من الآلات، فان للا رحمة زوجة سيده القائد، كانت غالبا ما تدخله الى غرفتها لتستمع اليه، عندما يكون زوجها في القصر، وليُتم تعليمها العزف على العود الذي كانت تعزف عليه بكيفية مستحسنة .

كانت تلك السيدة تطعمه في غالب الأحيان التمر والعنب الدمشقي، والعسل والخبز الابيض. كما كانت تعطيه المال ليشتري لنفسه ثيابا يظهر بها اكثر نظافة امام عينها. وطلبت من زوجها أن يعطيه لباسا قرمزي اللون مع حزام من حرير أخضر، وأحاطته ببالغ العناية حتى إن القائد لم يكن يستخدمه الا في حمل رمحه عندما يكون في ركاب مولاي احمد. وكان دائما عند رحمة احدى قريباتها المسماة زايدة، وهي متزوجة بكاتب زوجها، وتسكن في منزل مجاور لمنزل القائد

كانت تلك المرأة شابة بارعة الجمال حادة الذكاء، سحرها صوت اسيرنا. إن ما كان يختلج في صدرها والخير الذي عزمت على أن توليه إياه دفعاها الى أن تناشده يوما بمحضر ابنة عمها، ان يزورها بعض الاحيان ليعلمها العزف

على قيثارة كانت عندها في المنزل. ان السيور دولابلاس، الذي لم يكن له اي شغل غير اللهو، ولا يطلب احسن من ان يطعم جيدا متى سنحت له الفرصة، قال لها انه يعتبر أسره سعيدا، لانه يسمح له بخدمة سيدات هن بدون شك الطف سيدات مراكش. واشعرته رحمة التي اخذت تبتسم من ذلك الثناء، ببعض اللحظات النزيهة والكلمات الملاطفة انه لم يزعجها، وانها استحسنت كونه يوليها تقديرا لها. وذات يوم ذهب السيور دوبلاس ليزور زايدة في بيتها كما طلبت ذلك منهما، فصرحت له بحبها له لتجعله يلتزم بمودة متبادلة مخلصة

اجابها نبيلنا الاسير بملاطفته المعتادة، انها ستجده دائما مستعدا لخدمتها كلما أرادت، لكنه يخشى أن يصبح زوجها العجوز غيوراً من الزيارات المتكررة التي سيكون مضطرا الى القيام بها في ذلك التعهد. فاذا استطاعت أن تجعله متساهلا يرضى بذلك فلن يمر يوم دون أن يقوم بزيارتها. وذات يوم ذكرت زايدة لزوجها وقد استعدت لذلك، ما يكنه القائد عبد العزيز ورحمة لذلك الشاب المتحلي بفضائل عجيبة، وأنه علم سيدتها العزف على العود والقيثارة، وانها ترغب مثلها في تعلم العزف لتسليه. لكن لما اقترحت ذلك عليه بمحضر ابنة عمها أجابها بانه لن يفعل ذلك ابدا بغير رضاه، خشية أن يتهمهما فيما بعد بمناورة قد تحدث له وجعا في رأسه. ظن المغربي ان زوجته تصارحه في كلامهما فشكرها شكرا كثيرا على رغبتها في تعلم العزف على العود، وحتى يرضيها تماما استدعى في نفس اليوم السيور دولابلاس لياتي عنده منذ يوم الغد

ولما تمت الامور هكذا، وجدا الوسائل لعقد علاقات بينهما دون خشية اي ازعاج، غير انه حدث ذات يوم عندما كانت زايدة تمنحه أوثق صلة، فان الزنجية التي كانت تحرس عادة في الباب، دخلت الى دار مجاورة لتتحدث مع زنجية اخرى كانت قد نادتها، ففاجأهما الزوج معا

استشاط المغربي غضبا لهذا العار الفاضح وأسرع الى السلاح لينتقم منهما بالقضاء على حياتهما. لكنه قبل أن يصل الى مكان خلوتهما، ساعدهما الوقت على الفرار. التحق دولابلاس بالباب، وزايدة بسطح الدار لتدخل الى منزل القائد. وتبع المغربي الاسير وبيده السيف الضلع. لكنه وجده داخلا الى منزل سيده فلم يتمكن من اصابته، وعاد الى البيت، حيث وجد الزنجية داخلة

اليه. وبما انه شك في تواطئها مع العاشقين، جرى نحوها وأرداها قتيلة بأربع طعنات من سيفه

وفي تلك الاثناء التي فر فيها دولابلاس وزايدة كما قلت آنفا، ذهبا يقصان على رحمة أنهما كانا يغنيان، فاذا بالزوج يدخل بغتة، وبيده خنجر أراد ان يطعنهما به دون سبب، فأمسك دولابلاس بذراعه ومكنها من الفرارفوق السطوح اتقاء لهيجانه، وانه بعد أن رآهما نجوا من الخطر، التحق بالباب، فجاءا يحتميان بها ليكونا في مامن مما عسى ان يقال عنهما. لم تتمالك رحمة من الضحك انشراحا بما احدث فيها ذلك الخبر، كانت ما تزال تشد ضلوعها (من الضحك) عندما دخال القائد، فسألها عن السبب، وبعد أن اطلع عليه لم يكن سريع التصديق كزوجته، وانما أرسل في طلب كاتبه ليعرف حقيقة ما حدث. وقد اخبره الرسل بانه غائب عن منزله، لكنهم وجدوا فقط الزنجية ميتة عائمة في دمها

قالت زايدة في نفس الوقت للقائد إن زوجها لابد أن يكون قد تناول الافيون، لانه متعود على ذلك المخدر الذي يستعمله المغاربة كثثيرا فيجعلهم كالمجانين. صدق القائد آنذاك ما قيل له، ولم يشك في أن الافيون أفقد كاتبه الرشد، وفي نفس الوقت، حمل إليه أحد أعوان القاضي خبرا مفاده أن ذلك الكاتب يوجد في محكمة سيده، يطلب الحق علانية ضد امرأته، التي يدعي أنه وجدها مع مسيحي. تعجب عبد العزيز من حماقة الكاتب وامتطى متن جواد ليذهب ويرى ما يقول، فوجده امام المحكمة وهو يقول للقاضي بمحضر الجميع إنه قران أو زوج مخدوع، فاجأ مسيحيا بين ذراعي زوجته .

لم يتمالك القائد من الضحك، بسبب السذاجة التي كان يتكلم بها ذلك الشيخ. وناداه باسمه قائلا : «يازابنتي ، ماذا تفعل هنا ؟ «فأجاب : «يا سيدي، انك ترى قرانا ابن ستة عشر قرانا آخر، جاء يتظلم عند القاضي، فإن لم يعطني الحق أخذته بنفسي !» فرد عليه القائد : «لقد أخطأت يقينا يا زابنتي، ان الافيون الذي تناولته هذا الصباح أفقدك رشدك، ان زوجك عاقلة عفيفة، ومسيحيي أشرف من أن يقوم بفعلة شنيعة كهذه، بعد الاذن الذي أعطيته إياه صدقني، انس هذه الخرافات، ولا تتناول الافيون من الآن» ثم حكى عبد العزيز للقاضي مقتل الزنجية، الامر الذي جعل القاضي يحكم في حقه بأنه انما تصرف عن جنون.

وصرفه لذلك كمعتوه. وبعد ذلك هدأ القائد ورحمة كل شيء، وخدع الكاتب هكذا، ظانا أنه هو نفسه كان بالفعل مخطئا

القضاء عند المغاربة

وما دمنا خارجين من عند القاضي الذي هو رئيس العدل، ولم أجد مكانا أكثر مناسبة لادراج ما أريد أن أقوله، فلن يكون خارجا عن الموضوع أن اتحدث عن الكيفية التي يتقاضى بها المغاربة والعقوبات التي يطبقونها على المجرمين في بلادهم .

اذا اختلف شخصان او أشخاص، اما في مصالح مدنية، أو جنائية، فإن المدعي يدعو شفويا خصومه للحضور في وقت معين من اليوم نفسه، أو يوم الغد أمام القاضي أو عامل المدينة، او الحاكم ، وهم حكام ثلاثة مختلفون، فالقاضي يحكم في كل ما يتعلق بالشريعة، والعامل في المسائل المدنية والجنحية المخالفة لقوانين الامير، ولا يهتم الحاكم الا بالشرطة. كما يدعون شفويا للحضور في نفس الساعة من قد يكون لهم من الشهود ليستمعوا اليهم. اذا مرت الساعة ولم يحضروا، أرسل القاضي أعوانه في طلبهم وجلدوهم مائتي جلدة لامتناعهم عن الحضور، ويُضرب من خلف المتأخرون الذين استخفوا بالمثول أمام العدل، اللهم الا اذا برروا تأخرهم بعذر مشروع. وبخصوص المصالح المدنية، اذا كان هناك شهود او تقييد، فان المدين يحكم عليه فورا بأداء ما عليه في اجل محدد ان طلبه. واذا فات الاجل ولم يؤد ألقي به في السجن حتى يؤدي. وان لم يكن تقييد ولا شاهد، أرسل القاضي المدعى عليه الى مسجد ليؤدي اليمين أن لا شيء بذمته، ويصرف إلى حال سبيله دون نفقة، لأن احدا لم يخالف ذلك. واذا تعلق النزاع بالسباب، فان المدعى عليه او المتهم يحكم عليه بالجلد والسجن، واداء غرامة تكون لفائدة القاضي .

يعاقب المجرمون كما يعاقب اللصوص العموميون والخصوصيون، اي أن هؤلاء بالنسبة لسرقتهم الاولى، ان كانت هامة، تقطع يمينهم وللثانية تقطع لهم اليسرى، واذا كرروا الجرم يقطع رأسهم. اما الاولون (المجرمون) فبمجرد ما يلقى عليهم القبض ويقدمون الى الحكام تقطع رؤوسهم، ويسحبون في أذيال

بعض البغال. ويرجم الزناة، ويعدم القتلة، وتجلد المومسات والسكيرون، او يسجنون ويؤدون غرامة، ويقتلون اذا ظهر عليهم في رمضان، وهو شهر للصيام .

واما الذين يخونون الملك، فانهم يسحبون أو تقطع رؤوسهم، أو يخوزقون او يقذفون على كلاليب من حديد منصوبة لذلك خصيصا في أسوار الحواضر. وترمي جثث كل هؤلاء البؤساء في المزبلة .

ذلك ما يهم الصنفين الأولين من القضاة. وبالنسبة للثالث، وهو الحاكم (المحتسب) وقاضي التجار الذين يغشون في الميزان والكيل، يامر بأن يعلق في عنقهم قطعة من سلعتهم. وبعد ان يجرد المجرم من الثياب الا من السراويل، يسير مكتوف اليدين الى ظهره، متبوعا بجلاد يطوفه عبر أزقة المدينة، وهو يعلن عن جريمته في جميع مفترقات الطرق، والازقة التجارية الهامة، وينهال على كتفه بعدة ضربات من عصي شجر الرمان والسفرجل، او باسواط من الجلد، ثم ياتي به الى الحاكم (المحتسب) فيرسل لمصادرة كل في دكانه لفائدة الملك[2] ويزج به في السجن، حيث يمكث ثلاثة أشهر أو أربعة، حسب ارادة القاضي، لا يسمح له بالخروج الا بعد أداء غرامة هامة

وقد رأيت مرارا مثل هؤلاء التجار يُطوَّف بهم، ولا شك أنه عقاب حسن يردع الآخرين عن خداع الجمهور. واكثر من يلقى عليهم القبض هم الجزارون (مع بائعي الزيت والسمن) لانه في كل يوم توضع الاثمنة على اللحوم التي يبيعونها، ويلزمون بان يعلقوا في مقدم دكانهم الورقة التي قيدت عليها الاثمنة التي سعرها الحاكم في خطوط، كل خط يساوي فلسا من نقود البلاد. واذا كان في الورقة تسعة خطوط فان اللحم يساوي تسعة فلوس للرطل، أو اكثر أو أقل، حسب رغبته. وكثيرا ما يحدث أن يكون لحم البارحة أفضل، فيسعر بثمن اعلى، لذلك يفرض المشترون ورقات ذلك اليوم، التي تثبت من طرف أعوان الحاكم الذين يبعثهم خصيصا لفحصها. ويسمح لكل مشتر بان يزن بضاعته في ميزان تاجر آخر، فاذا وجد الوزن اقل امكنه ان يقيد شكايته، ويعاقب البائع بموجب شهادة من وزن السلعة .

وذلك الحاكم هو الذي يضع سعر القمح وسائر المواد التي تباع بالتقسيط،

حسب اختلاف الفصول، ووفرة كل مادة او قلتها. ولكن لندع العدل هنا ولنعد الى عاشقينا

بعد ذلك الرعب الذي وقع لدولابلاس مع سيدته، لم يعودا يجرآن على متابعة علاقتهما الغرامية، بالرغم على رغبتهما الشديدة. وحيث انهما لم يكونا يتلقيان الا بمحضر رحمة فإنها لم يجسرا أمام تلك السيدة الوقورة على اظهار اي شيء من حبهما. وبعد مرور بضعة اشهر على هذه الكارثة ثار مولاي احمد خليفة الملك بمراكش على عمه مولاي رشيد، فرحل القائد عبد العزيز مع اسرته الى فاس

وبعد موت ذلك الامير، أرسل أخوه وخلفه مولاي اسماعيل عبد العزيز ليحكم اقليم الغرب. وصحب معه جميع اهله الى القصر، باستثناء السيور دولابلاس الذي تركه في دار ابيه القائد محمد اعراص، بطلب منه ليكلفه بتسيير مخازنة

كان لذلك العجوز ثلاث بنات جميلات كن أخوات لأخرى متزوجة من مولاي رشيد، كما ذكرت ذلك في تاريخه. وقد علمت أولائك السيدات من رحمة زوجة أخيهن عبد العزيز ما جرى في مراكش بشأن عاشقينا، وأثنت كثيرا على الاسير فرغبن كثيرا في ان يعلمهن العزف على العود، وطلبن من أبيهن أن يوافق على ذلك. وشرع دولابلاس في تعليمهن. وخلال الحرب بين مدينتي فاس، التي طالت أربعة عشر شهرا، لم يشتغل إلا بتربيبهن فنجحن في العزف نجاحا حسنا

ولما كانت تلك السيدات يذهبن كل يوم جمعة الى الحمامات العمومية في المدينة ليتسلين بالضحك مع النساء الأخريات، وحتى تكون التسلية على أحسن حال كن يصحبن معهن السيور دولابلاس متنكرا في زي فتاة. فاذا اختلين في حمام منفرد، بقي هو وسط سائر النساء اللاتي يغتسلن امامه عاريات تماما وهو يعزف على القيثارة، في انتظار أن تلتحق به سيداته. واذا كان قد حدث شيء خاص في مغازلاته فانه لم يصلني عنه خبر

ولابد من الاشارة هنا الى أن الاسرى المسيحيين يمكنهم الدخول الى أي مكان في منازل سادتهم، إذا سمح لهم بذلك، لاسيما وانه غير محرم في شريعة

البلاد، ولا يغضب لذلك اكبر الامراء. وان دخلوا، ووجدت نساؤهم أو بناتهم في حالة غير محتشمة، فلا يستترن من اجل ذلك، معتقدات أننا عميت أبصارنا كما عميت بصائرنا، فلا يهمهن أن نراهن على تلك الحال .

ولما عفا مولاي اسماعيل عن سكان فاس البالي، وأفرج عن القائد عبد العزيز الذي كان قد سجنه طوال الحرب، بسبب أبيه واخوته الذين كانوا في عداد المتمردين، عاد اليه السيور دولابلاس ومكث في منزله الى أن مات عام 1675، للاسباب التي ذكرتها في حياة مولاي اسماعيل وبعد موت سيده. استخدمه مولاي محرز، ابن الملك البكر، بعد ان علم من كثير من الناس ما كان يتحلى به من خصال، وأولاه مودته ولم يكلفه إلا باتباعه حاملا رمحه عندما كان يذهب للتفسح

ولما كان ذلك الامير الشباب خليفة الملك بفاس فانه كان يلبسه ثيابا جميلة، ويسكنه في غرفة بدار المسيحيين المستخدمين في أبواب الحريم الواقعة في حي الخصيان. كانت تلك الدار عتيقة متهدمة مظلمة، ثقبت أسوارها في عدة مواضع، يمكن التسرب منها الى سطوح الحريم. وفي الليل عندما تغلق العريفات، وهن المربيات خادمات الملكات، أبواب حجراتهن، ويسود السكون في كل مكان، كن ياتين من فوق السطوح ليقضين الليل مع أسرانا الذين كانوا يُعدون دائما ورد الشمس لامتاعهن، مع أجود تبغ البرازيل الذي كن كلفات به

ان أولئك العريفات اللاتي لا يخرجن أبدا من الحريم، كن مسرورات جدا بملاقاة هؤلاء الأسرى، الذين هم عادة شبان جميلون، والتي تعلقت بالسيور دولابلاس كانت تخدم الامير الشاب وتعنى بحجرات أمه. ولو طالت علاقاتهما اكثر لكشفت ولاشك، لكن الملك بعد أن أرسل مولاي محرز كخليفة له فى تافيلالت، اخذ الامير الشاب معه السيور دولابلاس وعشرة أسرى آخرين. واثر وصوله الى هناك، كتب لي رسالة توصلت بها في مكناس قبل انصرافي بشهر يخبرني فيها بأن جميع أصحابه أسلموا. اما هو فقد عزم على التوبة والتمسك بالديانة المسيحية

الفصل السادس عشر
قصة إسلاميين أحرق أحدهما
حياً بتطوان والآخر بإشبيلية

كان إسبانيان، أحدهما عمره عشرون سنة ولد بمرسية، والآخر عمره أربع وعشرون سنة، ولد بمكان قريب من مدينة طريفة في مدخل مضيق جبل طارق، قد أقصيا بسبب جرائمهما إلى حصن بينيون دي فيليز، الموجود في افريقيا باقليم الريف المجاور لتطوان. وبعد وصولهما إليه بقليل، عزما على أن يذهبا عند المغاربة لاعتناق الاسلام. وذات ليلة بينما كانا يقومان بالحراسة، نفذا مخططهما وتقدما نحو الأعداء. لقيهما البربر عند مطلع الفجر، وساقوهما الى تطوان ليبيعوهما

أمر قائد المدينة باحضارهما أمامه للتعرف على حالة الثغر، وعلى قصدهما. وبعد أن علم ما أراد أن يعلمه بخصوص حكم البينيون، سألهما عما يريدان أن يفعلا، ولاي غرض أتيا، هل للخدمة أو لاعتناق الاسلام .

فقال له المرسي، وكان أكثرهما جرأة، ئه جاء خصيصا ليتنكر لله وللصيام والتعميد والاهل والوطن والأصدقاء راغبا في الدخول في الشريعة المحمدية

وبعد أن أتم كلامه، سأل العامل الآخر، وكان أفطن منه، هل يقول مثله. فأجابه بأنه أتى حقا ليتبع دين القرآن، ويتخلى عن دين النصارى الذي مل العيش فيه. فلما انتهى من كلامه، قام القائد وألقى على الاول نظرة قاسية، وقال له «أيها الشقي، أيمكن أن يذهب بك الخبث إلى أن تنكر عن طيب خاطر وبمحضري، خالقك الذي لولاه لم توجد من العدم، وهو ما يزال يحييك برحمته. بعد الكلمات التي نطقت بها ضد الله تعالى الجدير بالعبادة، وضد قدسية رسوله. أتظن أن المسلمين لا يعرفون الله ؟ وأن محمدا رسول الله ؟ بما أنك أنكرت الاول الذي هو خالق كل شيء وألحقت به الثاني الذي في زعمك انما هو كاذب. فاذا كان الامر كذلك، كما اعترفت به بلسانك، وان للمسيحيين وحدهم ميزة عبادة من تنكره، فلماذا، ايها الشقي تركت دينهم الذي لابد ان يكون صالحا لتعتنق دينا لا تؤمن بأن مقصوده هو الله تعالى ولا تعرفه ؟ فما أشقاك ! اذ لا يوجد في هذه

الدنيا أشد مما يلزمك من عقاب على الذنب الذي ارتكبته، ولا تظن انه يبقى دون عقاب، وسأكون المنتقم له، لأنني أريد أن يعتبر بمثلك من قد يأتون بعدك لاعتناق ديننا، ويدرك بأننا نؤمن بإله دون ثالوث، ونومن بقدرته، وان محمدا أعظم أنبيائه.»

استدعى القائد القاضي ليحضر الى منزله، وأطلعه على تلك القضية التي يبت فيها، فدرساها وأمرا للتكفير عنها بأن يبصق على وجه ذلك الشقي، ويسحب من شعره الى ان ينتزع كله، ثم يطوَّف عبر ازقة المدينة وتثبت اثنتا عشرة شمعة على كتفيه وثدييه، ويساق الى ساحة السوق ليحرق حيا شيئا فشيئا. ونفذ هذا الحكم بمجرد النطق به، وتنافس الجمهور في حمل الحطب الى مكان العذاب ليستعمل في معاقبة كفره

وعقب هذا الاعدم، الذي لم يستغرق وقتاً طويلا أمر القائد بأن يخلع على الاسلامي الآخر ثياب فاخرة، وهو ما يزال مذعورا مما لاقاه صاحبه من عذاب، فاركبه فرسا، وارسله يجول عبر المدينة كلها وحول الأسوار، مصحوبا بالطبول والمزامير وغيرها من الآلات الموسيقية التي تسير أمامه، ومتبوعا بفرقة الفرسان. وبعد أن شفي من ختانته قربه القائد اليه، وكلفه بمهام عظيمة، وعلمه جميع اركان الدين

وعندما كانت تؤدى الغرامات، وهي ضرائب ملكية، كان الاسلامي يرسل دائما لجبايتها، فياتي بمبالغ طيبة، مكنته من كسب أموال كثيرة، ومات رئيسه في وقت أصبح فيه موسرا ثريا، فلم يكتف بتحريره، وانما ترك له دارا جميلة يسكن فيها

وبعد ذلك الموت، جعلته الحرية يتحكم في أعماله، واشترك مع بعض بورجوازيي تطوان لصنع سفينة (فركاطة) للقيام بالقرصنة. ولما صنعت السفينة وعين ربانا لها وسار في البحر للقيام باعمال القرصنة، ربح أموالا طائلة، واكتسب شهرة واسعة بسبب الغنائم والهجومات المتكررة التي كان يقوم بها في اسبانيا. وكان جميع الناس يقدرونه، ويرغب أعيان المدينة في التحالف معه. ولما علم أنه يريد الزواج، عرضت عليه عدة اقتراحات في غاية الاهمية، ومنها اجمل فتاة في تطوان، كانت قد رفضت عدة خطاب ممتازين، لانها مفرطة في

الانفة. وطلب من الذين ذكروها ان كان بالامكان ان يراها تتفسح في بستان ويكون متنكرا في زي فتاة ببستان آخر مجاور له، لان الشريعة تمنعه من رؤيتها بطريقة أخرى

وفي اليوم الذي حدد للتنكر، أخذ الى بستان مجاور للذي كانت تتفسح فيه. ولما كانت البساتين انما يفصل بينها سياجات خفيفة، فإنها لما دخلت الى البستان، شاهدها كما يحلو له من خلال الحاجز وهو يتمشى على طوله. وقد سر بتلك الرؤية سرورا عظيما، ولكن عندما أراد مغادرة المكان، أصابته كآبة كبيرة لا يمكن التعبير عنها

وبعد ذلك طلب من أحد اصدقائه، وكان ربان سفينة، أن يهنئها بواسطة زوجته، بينما يخطبها هو من أبيها، فوعده الاب بأن يزوجه إياها اذا رضيت. ولكي يحملها على القبول، ارسل اليها هدايا كثيرة مصحوبة دائما بطبول المدينة، وكان يطلب من زوجة ذلك الربان ان تزورها باستمرار. وارسلت إليه يوما، وقد ازعجتها كثرة الخطابات، تخبره انه يطلبها عبثا، لانها لن تتزوج به بمحض ارادتها. واذا اضطرت الى ذلك فسيتبعه تنين يعمل دوما على افتراسه، غير ان الربان طمأنه بأنها إنما تريد أن تختبر الحالة

وبعد بضعة أيام من توصله بهذا الجواب، قام بعملية قرصنية في شواطىء ألمرية بمملكة غرناطة. فنزل الى الارض واختطف عددا من الرعاء وجدهم منعزلين في أكواخ بجانب قطعانهم، واتفق ان جاءت امرأتان في نفس المساء - لسوء حظهما - تزوران زوجيهما ومع كل واحدة احدى بناتها. فوجدهم كلهم نائمين، وقيدهم وساقهم الى فركاطته، ثم ابحر مع غنيمته المؤلفة من عشرة أشخاص

ولما عاد الى تطوان، بعث الى سيدته اجمل البنتين لتخدمها كأمة لها، فارسلت إليه تشكره قائلة : إنه اذا كان يحبها حقا بقدر ما يبديه من كلف، فإنها لا يمكنها أن تثق به ولا أن تصدق بأنه مسلم حقيقي ما لم يقدم لها حججا قاطعة، وان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لارضائها واستحقاق مودتها، ولن يطمع في الحصول على ذلك بكيفية أخرى. وعندما علم الاسلامي بهذا الخبر لم يلبث أن أوفد سفيراته ليؤكد لها أنه مستعد دائما لارضائها. وما عليها الا ان تأمره. فقالت لهن

تلك الفتاة القاسية : «أبلغن إذن ذلك العاشق أنه لن يطمع أبدا في أن أكون له ما لم يحضر لي هنا أباه وأمه واخواته الذين اعلم انهم ما زالوا بقيد الحياة، ليخدمونا كعبيد اذا ما تزوجنا. فاذا فعل ذلك، فليكن على يقين بأنني، منذ اليوم الموالي لعودته، سأعطيه جميع ما يرضيه، ولن يخيب أمله، لكنه لن يطمع في بأقل من ذلك

لما تلقى الاسلامي هذه الاوامر، التحق بفركاطته وسلحها من جديد. واختار لهذه العملية مائة من اجود جنود المدينة وخرج بعد أربعة أيام الى المرسى، ولما سار خارج الجرف الرملي، كان ظلام الضباب الكثيف يحجب الطريق عن سكان سبتة الذين ليسوا بعيدين عن تطوان باكثر من سبعة فراسخ ويقيمون دائما حراسا في جهتها ليروا هل يصل اليها قراصنة أو يخرجون منها حتى يطاردوهم بسفينتهم الشراعية. لذلك أبحر نحو شاطىء اسبانيا، حيث وصل في أول الليل، والقى المرساة داخل البحر قليلا حتى لا يكتشف أمره. ارتدى لباسا اسبانيا، وأعطى كذلك ثيابا إسبانية لعشرة من خيرة جنوده الذين عرضوا عليه أنفسهم ليقتحموا معه جميع الاخطار التي سيتعرض لها. فنزل الى الارض أمام المكان الذي يسكنه أبوه، وصحب معه أربعة من جنوده، تاركا الستة الآخرين ليحرسوا زورق الانقاذ. وبعد أن سار مسافة نصف فرسخ، امر الرجال الاربعة بالاختباء تحت صخور كانت بجانب الطريق المؤدي الى مسكن أبيه، وقصده وحده .

ولما وصل الى الباب اخبرهم من هو، ففتحوا له سريعا. كان أبوه قد اضطجع في الفراش فطار فرحا لرؤية ابنه الذي كان يحبه ويحنو عليه، وطالما بكي حزنا على اسلامه. ولم يصبر على ارتداء ملابسه ليستقبله ويعانقه. وكذلك أمه وأخواته أسرعن نحوه وذرفن من الفرح دموعا غزيرة يرق لها أشد قلوب الانمر قسوة. وبعد زفير مصحوب بدموع التماسيح، عانقهم الابن جميعا الواحد تلو الآخر، واستسمحهم عن أخطائه السالفة، واعدا إياهم بأنه سيعيش عيشة مستقيمة اكثر من التي عاشها حتى ذلك الحين. ثم سأل عن أخبار الجميع، وطلب من أبيه ان يصرف الخدم من المنزل، لان لديه شيئا مهما يريد أن يطلعهم عليه

ولما خرجوا قال لهم : «إني رجعت اليكم، ولكن في حالة ستجعل أسرتنا

تستغني وتزدهر. لقد هربت من تطوان مع أربعة أسرى وجئنا في زورق انقاذ محمل بأكياس من الذهب والفضة، وحزمات من الحرير تركتهم ينزلوها. وأتيت مسرعا لاطلب منكم ان تساعدونا على حملها قريبا من هنا في غفلة من خدمكم، حتى لا يعرفها أحد، لانه اذا وصل خبرها الى ضباط الملك أو الى محكمة التفتيش فانهم قد يستولون عليها بدعوى انني كنت اسلاميا. وحتى يغرر بهم أكثر، أخرج لهم كمية من النقود الذهبية، وعملات أخرى افريقية، مؤكدا لهم بأنها لا تساوي حتى واحدا من الف من غنيمته. قبل أبواه ان يتبعاه، ولم يخطر قط ببالهما انه ينوي الاساءة اليهما، بعد جميع علامات التوبة التي اظهرها لهما. وحيث إن الرجال في مثل هذه المناسبات يكونون أسرع من النساء عادة فان أباه خرج هو الاول معه، وترك أمه واخواته يأتين بعدهما شيئا فشيئا

وعندما وصل إلى المكان التي كان الجنود مختبئين فيه، ناداهم وسلم إليهم أباه، فشدوا وثاقه أمامه وأمرهم بحمله الى الزورق، وبقتله اذا قام بأدنى حركة من شأنها أن تفضحهم، ورجع هو إلى أمه واخواته ليحثهن على السير

حزن الاب على سرعة تصديقه حينما رأى نفسه مقيدا بهذا الشكل، مساقا من ولد عاق الى أسر مخز ولم يستطع أن يحبس ألمه. وبالرغم على أن حياته كانت في خطر بين ان هو صرخ فانه أطلق لصوته العنان في التوجع من نكبته، بزفرات عالية مؤثرة ملات الجو كله، وحملها الصدى الى حيث كان بعض الرعاة نائمين الى جانب قطعانهم .

ولابد من الأشارة الى ان العادة في الاندلس وفي أغلب جهات اسبانيا تقتضي أن تظل قطعان البقر والغنم والمعز والخنازير ليل نهار في قلب البوادي، لان الهواء فيها معتدل جدا خلال جميع فصول السنة. ويقيم الرعاة الذين يحرسونها أكواخا في السهول يلتجئون اليها مجتمعين بكثرة في الليل، ليكونوا أقوى على حمايتها، سواء من أنياب الذئاب أو أيدي اللصوص، أو للدفاع عن أنفسهم ضد أعمال قراصنة تطوان المتكررة في هذه الربوع

ولما أنذر أولئك الرعاة بصدى صوت المشتكي، تسلحوا فورا ببنادقهم وسيوفهم، وأطلقوا النار في اتجاه الصوت. وبعد قليل سمعوا المغاربة الذين لم يكونوا متحفظين، ولم يعملوا بأوامر قائدهم لانهم استفظعوا قتل أبيه، وأرادوا أن

يأخذوه حيا ويسوقوه بخشونة، ويهددوه بالقتل اذا استمر في الصياح. ظنوا أولا أنهم لصوص يسلبون التجار، أو يغتصبون فتاة اختطفوها من طريقة ليلة أمس. فاحاطوا بهم من كل جانب. ولما حبسوهم في وسطهم، دنوا منهم في ضجة كبرى وقبضوا عليهم في الحين، دون أن يتركوا لهم اي وقت للدفاع عن أنفسهم

ابتهج الشيخ الى أبعد حد لكون تفجعاته أنقذته، ومكث بعض الوقت ساكتا، لكن بعد أن رجع إليه رشده خاطب الرعاة قائلا «يا محرري ! (وكان من بينهم راع له) إنكم تشاهدون كيف عاملني ابن شقي لي اسلامي. لقد فاجأني ذلك البائس في بيتي وبعد أن أسلمني الى أتباع كانوا كما ترون اكثر شفقة منه، رجع على أعقابه الى أمه واخواته، ليحملهن الى بلاد البربر لقضاء أيامهن في أسر مؤلم

طلب منه الرعاة، وقد عرفوه بصوته أكثر منه بوجهه، أن يسكت. وتمدد كثير منهم على الارض بجانب الطريق، بينما ساق الآخرون المغاربة مكتوفي الايدي وتركوهم في اكواخهم تحت حراسة بعض رفقائهم .

وقد مر منتصف الليل، والاسلامي الذي كان يظن أن أباه في الزورق، يلح على أمه وأخواته أن يسرعن أكثر، حتى يحملن الغنيمة قبل طلوع الفجر، لكنه ما كاد يتجاوز المكان الذي سلم فيه أباه حتى وجد نفسه مأسورا على نفس الحالة التي وضع فيها أباه من قبل. ولما عاد الذين حبسوا المغاربة في الاكواخ مع أصحابهم، ساروا جمعا وبدون ضوضاء الى شاطىء البحر، فوجدوا المغاربة الآخرين متمددين على الرمل ينتظرون أصحابهم، وظنوا أنهم جاؤوا بغنيمتهم. وبدلا من أن يطلعوا الى الزورق، ألقوا بانفسهم بين أذرع الرعاة، بقصد تهنئة قائدهم على حسن حظه

وفي تلك الاثناء، كانت الفركاطة التي تنتظرهم في عرض البحر رأت أن النهار يقترب ولم يعودوا بعد، فخشيت من المفاجأة وأقلعت للرجوع إلى تطوان. ولما رأوها في المرسى، ظن كل واحد أنها حصلت على غنيمة جيدة، وهرولوا إلى البحر ليهنئوهم بسلامة العودة. وخرجت الطبول ومزامير المدينة ليصحبوهم في موكب الانتصار. لكن، لما علموا ما جرى، تحول ذلك الاستبشار الكبير الى

حسرة، ولم تتمالك السيدة الجميلة التي تسببت في هذه الكارثة كلها من إرسال دموع، وندب فقدان رجل غامر بكل شيء ليستحق عطفها

كان البحر قد تراجع عندما وصلت الفركاطة الى المرسى، فاضطرت أن تلقي المرساة في انتظار المد. وفي الوقت الذي مكثت هناك، أبصرها حراس سبتة، فخرجت سفينتهم الشراعية على فور التعرف عليها، ولم تلبث أن وصلت إلى جانب الفركاطة لانها كانت تسير بالشراع وبالمجاذيف. فلما تحققت أنها للمغاربة هاجمتها، لكن المغاربة دافعوا عن أنفسهم بشجاعة أكثر من ساعتين. وبعد أن فقدوا أكثر من ثلاثين قتيلا، ورأوا أنهم هالكون لا محالة قطعوا الحبال وجنحوا إلى الرمل. وقتل الاسبانيون منهم عددا آخر على اليابسة حين رأوهم ينزلون إليها، وأصابوا حتى بعض المدنيين الذين أقبلوا ليشاهدوهم يحاربون أكثر من أن يغيثوهم، ثم عادوا على أعقابهم دون أن يقوموا بعمل أكثر أهمية

إن الرعاة الذين رجعوا إلى أكواخهم لقضاء بقية الليل، لم يفتهم منذ الصباح الباكر أن يصحبوا معهم الى طريفة المغاربة والاسلامي ويسلموهم الى محكمة التفتيش. وبما أن هذه المحكمة إنما كانت مساعدة للمحكمة العليا في إشبيلية، فإنهم كتبوا إليها فأرسلت إليهم رماة ليحضروهم أمام محكمتها للنظر في مسألتهم. إن المغاربة الذين عرفوا بأنهم مسلمون لا إسلاميون كما توهموا، أرسلوا الى سجن الاشغال الشاقة. أما الاسلامي فقد احتفظ به ليعمل لتوبته أو ليعاقب على ذنوبه. بقي ذلك الشقي معاندا متمسكا بعقيدته الجديدة، حتى إنه، رغم دموع أبيه وأمه وأخواته الذين لم يسمحوا فيه، ورغم الارشادات التي قدمها له رجال التفتيش كان يعلن دائما بصوت عال أنه مسلم وأنه يريد أن يموت مسلما، حبا في سيدة من أجمل سيدات افريقيا. ثم سب أباه وامه ورجال محكمة التفتيش الشيء الذي جعلهم يغيرون عواطفهم الاولى نحوه في العفو عنه اذا ما رجع الى دينه الاول، ويقررون إحراقه حيا شيئا فشيئا، ليكون عبرة ومثلا.

هكذا قضى نحبه ذلك الاسلامي البئيس الذي لم تكن نهايته أخف من نهاية صاحبه بتطوان قبل نحو عشرة أعوام. لقد رويت هذه القصة عن عدد من الاسبانيين، وعن فرنسي يدعى جاك طيسون من مواليد هافر دوكراس أقام بتطوان عشرين سنة جرت خلالها تلك الاحداث. أما الاسبانيون الذين لم تقل مدة

إقامتهم فيها عن ذلك فمنهم : فرانسيسكو كارسيا من مواليد طريفة، وخوان دوسونا من مواليد جبل طارق، وماطيو باسكيس من هيريس دي لافرو نطيرا، ودييكو دي موراليس من قادس، ودومنكو دياس من سبتة، وفرانسيسكو أورتيس خيمينيس من مواليد مالقة، وكانوا جميعا أسرى بتطوان عندما جرى كل ما كتبته، ثم نقلوا بعد ذلك الى فاس من طرف مولاي رشيد عندما انتصر على غيلان وأرغمه على الانسحاب الى الجزائر

الفصل السابع عشر

معاهدة تجارة

لما كانت التجارة هي التي تأتي بالرخاء والثروة الى الدولة، فان فرنسا، منذ أن اهتمت بها، فاقت سائر ممالك المعمور عظمة وجلالا. إن تجارها الذين قادتهم الملاحة الى جميع أنحاء العالم، جعلوها تتوفر على جميع الاشياء التي لم يكن لها عهد بها من قبل، حتى إنه يمكننا القول بحق إننا نملك بصفة عامة مالا تملكه سائر الدول الا بصفة خاصة

إننا مدينون بكل هذه الثروات للحماس الذي لا يكل، والعبقرية السامية الواسعة لمسيو كولبير، الذي أزهر المملكة بأسرها تيقظه ودقته وحزمه ومواهبه العجيبة. ولولا ما أولاه من عناية لكنا ما نزال اليوم محرومين اكثر من ذي قبل من عدد من الامور الضرورية التي كانت تنقص آباءنا. ذلك ان هذا الوزير الحكيم المتنور، لم يكتف بأن يحضر الينا أبعد الاشياء ولكنه أبى الا ان يكتشف أسرار جيراننا، ليجعل بسبب ما أنشأه من مصانع عديدة ما كنا نستورده منهم بمبالغ باهظة مالوفا عندنا ميسرا بثمن معقول. وهكذا فان فرنسا مدينة في ابهتها لسلوكه الحصيف فيما ادركته من الابهة وتعدد الفنون حتى أصبحت اليوم أسعد بلاد العالم وأغناها

ولما كانت بلاد البربر من أخصب بلاد الدنيا، وكانت مملكتا فاس ومراكش أجمل هذه البلاد وألطفها وأغناها بحيث يمكن أن تقام فيهما التجارة بكيفية أحسن. فاني أظن أن السلم الذي أنعم به عاهلنا العظيم المظفر على تلك

الشعوب الافريقية، وصادقوا عليه، يمنح لنا حرية الذهاب الى بلادهم لاخذ ما سينفعنا أكثر، واعطائهم ما هو فائض عندنا. لذلك فاني لا أثقل على القارىء اذا بينت له في هذا الفصل الاشياء التي تهم التجارة، بل بالعكس، سيكون ممتنا لي لكوني لم أهمل شيئا مفيدا وفي غاية الاهمية .

لكن، قبل التعرض الى البضائع التي تستورد من هذه الممالك أو تصدر اليها، لن نخرج عن الموضوع اذا ذكرنا المدن البحرية التي ترسو فيها السفن ويقيم بها تجارنا، وبينا الاحتياطات التي ينبغي مراعاتها، سواء إزاء العمال، أو ازاء سكان المدن أنفسهم .

تطــوان

وسأبدأ بمدينة تطوان الواقعة على البحر المتوسط على بعد سبعة فراسخ من مضيق جبل طارق. ويتم الدخول اليها بواسطة نهر صغير يسمى مارتين[1] ويسده في الخارج جرف رملي صعب جدا، لاسيما وانه يلزم الزوارق والسفن الصغيرة التي تاتي للاتجار ان تفرغ جميع حمولتها عند الدخول والخروج. أما السفن الكبيرة فانها تبقى في المرسى، وغالبا ما ترغمها الريح الشرقية على الانسحاب الى جبل طارق أو طنجة حتى تكون في مأمن من عنفها

أصيــلا[2]

أصيلا مدينة صغيرة مشيدة على صخرة بجانب البحر، ويوجد عند قدمها جوين يستعمل كميناء لها يؤوي سفنا للصيادين، وبعض السفن الصغيرةالتي تتعاطى التجارة هناك.

القـصـر[3]

يبعد القصر (الكبير) عن أصيلا بسبعة فراسخ. وهو مشيد بجانب نهر

(1) اسم قرية كذلك تبعد عن تطوان بنحو عشرة كيلومترات

(2) في الاصل : أرزيلا .

(3) يقصد القصر الكبير المعروف على بعد 127 كلم جنوبي طنجة، ويسمى ايضا قصر صنهاجة، وقصر كتامة، وقصر عبد الكريم.

اللكوس، على مسافة خمسة فراسخ من عالية مدينة العرائش التي تحمى مصبه، لانها محتلة من طرف الاسبانيين. يستعمل نهر تاگدارت الواقع على مسافة اثني عشر فرسخا الى الشمال من طرف الزوارق الاقليمية والسفن الصغيرة الاخرى التي تأتي للاتجار، ومن هناك تنقل الى القصر على الجمال والبغال جميع بضائع التجار الذين يتخذون فيها متاجرهم

المعمـورة

تقع المعمورة في مدخل واد سبو، وهي مشيدة على مرتفع. استرجعها مولاي اسماعيل عام 1681 (4) من أيدي الاسبان الذين لم يريدوا الدفاع عنها (5) وهذا أفضل ثغر لتجارة مملكة فاس. لان النهر عميق جدا، ويمكن أن يستقبل سفنا محملة من الميناء بـ 300 برميل. ولكي يسها ملك فاس التجارة بالمعمورة حسب ما أفادنيه رجال حاشية السفير الحاج محمد تميم، فانه امر ببناء مدينتين على جانبي النهر، وليأوى اليهما أيضا قراصنته، اذ سيكونون على مقربة من غابة جميلة كبيرة، ومن اقليم الغرب الذي يزخر بجميع الاشياء الضرورية للحياة .

ســـــلا

ان سلا هي مقر اقامة القنصل الفرنسي والانجليزي، والهولاندي، مع التجار المسيحيين واليهود القادمين من أوربا. وفي هذه المدينة تمت لحد الآن أهم تجارة هذه البلاد. ان مدخل نهر كرو (6) المشيدة عليه، لابأس به، رغم وجود جرف رملي غالبا ما يغير مكانه، لاسيما عندما تهب بشدة الرياح الغربية والشمالية الغربية .

ان القناصلة والتجار الذين ذكرتهم آنفا يستغني معظمهم من الغنائم التي يحصل عليها القراصنة من أيدي المسيحيين، فيشترونها منهم بأبخس الاثمان ويرسلونها الى أوربا مرة أخرى محققين من الارباح أربعة أضعاف. أقصد بالغنيمة مالا رغبة لاهل البلاد فيه، مثل جل البضائع المصدرة الى امريكا

---

(4) في زوال الجمعة 15 ربيع الثاني عام 2/1092 ماي 1681

(5) مغالطة مكشوفة، بل استمر حصار المعمورة مدة غير قصيرة من طرف المجاهدين السلويين والريفيين تحت امرة القائد عمر بن حدو البطوئي وأسر فيها نحو الثلاثمائة من المسيحيين .

(6) هكذا يسمى المؤلف وادي ابي رقراق

كالخمور وماء الحياة، والجعة، والبرتقال والزيوت واللحوم والسمك المملح، ومواد اخرى عديدة من هذا النوع

يتفاوض جل هؤلاء التجار في عمليات الفدية التي ترسل إليهم لافتكاك الاسرى. وهذا صحيح محقق. فقد رأيت إسلاميين اكدوا لي ان مثل هؤلاء التجار كانوا قد توصلوا بفدياتهم قبل إسلامهم بثلاث سنوات، ولم يصرحوا لهم بها الا بعد أن أسلموا. وأنهم كانوا مضطرين الى اللجوء إلى العدالة لاسترجاع مالهم الذي تحرروا به منذئذ. اذ ان هؤلاء التجار الاشرار يفضلون أن يرغموا بهذه الطريقة، من أن يردوا المال لمن سلمه إليهم، مجتنبين بذلك أداء الفائدة عن المدة التي احتفظوا فيها بالمال، إضافة الى أنهم يطالبون بالنسبة المائوية التي وعدوا بها لتأميناتهم. ثم يدعون لآباء أولئك الاسلاميين أنهم إنما أسلموا من أجل الاستيلاء على فدياتهم .

وحيث إنهم ما يزالون يعاملون كل يوم بنفس الطريقة الاسرى المساكين، الذين لم أقم بكل هذا العمل الا للتخفيف من آلامهم، وأعرف جيدا كيف يتصرف اولئك التجار الخبثاء معهم، فانني مغتبط بذكرها هنا، لان ذلك يتكرر كثيرا ويجلب العار للاسم المسيحي، وليتنبه من لهم أقارب أسرى في بلاد البربر استقبالا فيستعملوا الوسائل التي سأبينها لهم ويتخذوا الاحتياطات التي يجب مراعاتها من اجل أن تتم فديتهم عاجلا

احتيالات بعض التجار في بلاد البربر

اذا سقط بعض ابناء الاسر الكبرى أو أشخاص أثرياء في حالة الاسر المؤسفة، كتبوا في الحين الى أهلهم ليتوصلوا من آبائهم أو أصدقائهم أو من ما لهم بالاغاثة التي يطمعون فيها، ولا يفوت هؤلاء أن يعطوا الامر فورا الى تجار لهم مراسلون او شركاء في عين المكان. ويزودوهم بالمبالغ اللازمة لفدياتهم

يحوّل هؤلاء التجار المال الذي توصلوا به إلى بضائع يرسلونها إلى بلاد البربر لدى وسطائهم المقيمين بسلا أو تطوان أو الجزائر، أو سائر الشعور البحرية التي يوجد فيها الاسرى، فيبيع هؤلاء الوسطاء، وجلهم معدمون أو مفلسون، تلك السلع ويشترون بثمنها أخرى يرسلونها إلى إسبانيا أو البرتغال. وبينما هم يقومون بهذه التجارة المربحة يكتبون ويكررون الى شركائهم بفرنسا

أنهم مجدون في افتداء الاسرى، ولكن لابد من شيء من الصبر وعدم التسرع خشية أن طالب سادتهم بمبلغ اكبر.

يقوم التجار الفرنسيون المقيمون بمرسيليا، او لاروشيل، أو بوردو، أو بايون، والمتآمرون مع وسطائهم الذين يقتسمون معهم الربح، بإطلاع أولياء الاسرى على هذه الرسائل، ليبينوا لهم أنهم يعملون بحسن نية لفك أغلالهم

وهكذا يكتب الآباء المخدوعون مرارا الى الاسرى لتشجيعهم وإخبارهم في نفس الوقت بأنهم بعثوا بفدياتهم على يد فلان وفلان من التجار الذين يسمونهم. ولكن بما أنهم يسلمون رسائلهم الى هؤلاء التجار أنفسهم ليبعثوا بها فان هؤلاء الخونة يحتجزونها، حتى لا يعلم الاسرى أي شيء عن الفديات التي بين أيديهم ويأمرون أيضا باتخاذ نفس الاجراءات بالنسبة لجميع الرسائل التي يوجهها الاسرى الى ذويهم ليخفوا مكرهم ومعاملتهم الدنيئة

وبينما يكون الوسطاء قائمين بهذه التجارة، فان الاسرى المساكين الذين يرسفون في الحديد والآلام، يصيبهم اليأس في أغلب الاحيان ويعتنقون الاسلام، لانهم لم يعودوا يستطيعون تحمل معاملات سادتهم السيئة للابد ظانين أنهم أهملوا من طرف أولئك الذين كانوا يأملون منهم اغاثة سريعة تساعدهم على الخلاص

تلك هي المعاملة المعتادة لجل التجار الذين يعملون اليوم في بلاد البربر. وحيث إنهم متفقون جميعا فيما بينهم، ويُعلم بعضهم بعضا بالفديات التي تُسلم اليهم حتى يحتجزوا الرسائل التي قد تفضح خيانتهم فإني أبيتُ إلا أن أذكر ذلك هنا لابين علاجه. لقد عرفت العديد ممن قاموا بنفس العمل أيام كنت هناك، ومن جملتهم القنصل الذي ما زال بسلا. فانه لم يستغن إلا بهذه الوسيلة، وبعوائد الغنيمة. بل ذهب الى أن احتفظ أزيد من سنتين بفديتي ابن عمي كلود لوابي، من لاكارد، والسيور بول لوفاسور، من بونطواز، دون أن يصرح بذلك، بالرغم على أن الاب لارتيك، راهب لاميرسي ورئيس دير مارسيليا، الذي كان قد أرسل الفدية، أخبر بذلك أسرى آخرين أفرج غنهم وأطلعوهما على ذلك بمراسلتهما عن طريق طنجة وسبتة. لهذا سيكون من اللائق اتباع نفس الكيفية في مناسبات اخرى والكتابة الى الاسرى عن نفس الطريق أو ما يماثلها حتى لا يخدعوا استقبالا.

انه من الضروري للحيلولة دون تلك التجارة الدنيئة، ان يكون جميع الذين يعطون المال للتجار من اجل افتداء الاسرى على علم بأنهم إن أرادوا ان يحصلوا

عن افراج سريع، يجب أن يحددوا معهم سلفا اجل ستة اشهر يزيد أو ينقص حسب مسافة الاماكن، يكون التجار خلاله ملزمين بافتداء الاسرى، وارجاعهم الى المدن التي أعطتهم المال، وأن يشترطوا عليهم أنهم، ان لم يفعلوا ذلك في الاجل المحدد، يكونون ملزمين بأداء فائدة المبلغ، إلا إذا أثبتوا بواسطة رسائل الاسرى أنفسهم أنهم بذلوا الجهد لافتكاكهم، وأن تاخير تحريرهم غير ناتج عن خطئهم. تلك هي الوسيلة الوحيدة لمنع الاتجار بفديات الاسرى. ومن الانصاف أن تتخذ مثل هذه الاحتيالاطات معهم، لانهم يأخذون أموالا كثيرة لتأميناتهم. إن ما قلته آنفا ليس القصد منه الاساءة الى سمعة الناس الطيبين الذين يتجرون في هذه البلاد، ولكن فضح خيانة الشريرين، والارشاد الى كيفية الاحتراز منهم

أزمـــور

تبعد أزمور عن سلا بثلاثين فرسخا الى الجنوب، وتقع على مصب نهر أم الربيع، وليست لها تجارة كبيرة، بسبب جرف رملي يكاد يسدها تماما من الخارج، بحيث لا تتمكن من الدخول إليها الا الزوارق الصغيرة

أسفـــي

أما أسفي، البعيدة أيضا بثلاثين فرسخا جنوب أزمور والواقعة مباشرة على شاطىء البحر عند مصب نهر كوديت، (كذا) فان لها نفس الاهمية التي لسلا في التجارة.

أگادير إغير

لكن أگادير إغير، او سانت كروا، التابعة لامارة سوس، والخاضعة لاميرها مولاي أحمد بن محرز، فانها تفوق جميع هذه المدن، لان البضائع المستوردة منها أطيب من غيرها وأكثر رواجا في أوربا

تلك هي الموانىء التي يقيم بها تجارنا، ويتخذون فيها متاجر لبيع سلعهم بالجملة للمسلمين واليهود، الذين يبعثونها إلى شركائهم بفاس ومكناس ومراكش وتارودانت وإليغ، التي هي العواصم. وينقل هؤلاء التجار قسطا كبيرا من البضائع الى أقاليم مملكة تافيلالت، مثل سارت ودرعة، وتوات، التي

يجليون منها التمر وريش النعام والنيلة وتراب الذهب الذي يسمونه التبر. إن أعراب هذه الاقاليم، الذين يتجرون في ممالك السودان غينيا وتمبوكتو، يستعملون الجمال، وهي دواب ذات سرعة وخفة غريبتين، يحملون عليها الملح الابيض الذي يتقابضون به مع السود للحصول على التبر. ولكن نظرا الى ان طريقة مقايضتهم مثيرة جدا، يمنع فيها استعمال الكلام فسأقص ذلك هنا، كما علمته من عدد من مغاربة درعة وتافيلالت، الذين زاروا السودان عدة مرات

تجارة تنبكتو وبلاد السود الاخرى

اذا تجاوز الاعراب بحار الرمال أو صحارها الفاصلة بين الممالك التي ذكرتها آنفا ووصلوا الى تخوم بلاد السود، فإنهم يسيرون دائما بجانب الساحل، الى ان يصلوا الى أحد المواقع التي يتجمعون فيها قصد الاتجار. ويبعد هذا الموضع عادة بقدر مرمى مدفع من المسكن الذي يقيم فيه حاكم تلك الحدود. ويصادفون هناك أعرابيا يعوله ذلك الحاكم، وله وحده الامتياز في مكالمته، ليخبرهم عند الوصول بما يجب عليهم أن يفعلوه، وكيف ينبغي ان يتقاضوا مع السود دون مخاطبتهم. يسجل الاعرابي أسماء جميع الوافدين الجدد وكمية الملح التي حملوها حتى يبيعوا بالترتيب، الاولون قبل الاخيرين

يتم تبادل الملح مرتين في اليوم، في الصباح وفي المساء، بسبب حرارة الشمس المفرطة في وسط النهار. واذا وصلت الساعة التي يجب انجاز المقايضة فيها، أرسل الحاكم بعض حراسه، الذين يسيرون على طول حصر الاسل الممدودة على الارض ليوضع عليها الملح. ومن لهم ملح سيبيعونه يضعونه عليها أكداسا كثيرة متباينة الكيل، ثم يبتعدون شيئا ما عنها ليروا تجارهم يفدون. يقترب السود المحتاجون للملح من هذه الحصر، ويتفحصون الاكداس التي عليها. فاذا أعجبهم أحدها وقدروا أن لهم ما يكفي لقيمته، وضعوا بجانبه ما لديهم من التبر، وانسحبوا بدورهم. وان لم يرقهم شيء منها تركوا كذلك ذهبهم بجانب أحد أكداس الملح. وياتي الاعرابي صاحب ذلك الكدس ليزيد أو ينقص وفق ارادته. فاذا اتفقا تناول الاعرابي حفنة ملح ووضعها قرب الذهب. ويشيرون بعد ذلك الى الحرس أن يقبلوا لكيل الملح، فيأخذوا للحاكم جزءا من اثني عشر، وأوقية عن كل رطل ذهب. ان هذه التجارة تتم بدون كلام ولا أي اضطراب من هذا الجانب أو ذاك. واذا حدث أن اعتدى السود على التجار

عاقبهم الحاكم في الحين : يعلقون من تحت أدقانهم على عصيّ طويلة مدببة، فتبقى أجسادهم معلقة الى أن تسقط اعضاؤهم اربا اربا ليتعظ بها الآخرون، أما اذا اعتدى الاعراب فإنهم يفقدون ملحهم ودوابهم التي تحتجز لفائدة الحاكم ويجلدون من قبل الشيخ خمسمائة جلدة على أردافهم حسب عادة البلاد. واذا عاد أولئك الاعراب الى بلادهم باعوا ذلك التبر الى تجار مسلمين ويهود، يبعثون به مع مواد أخرى الى سكان مراكش وتارودانت، فينقلونه الى اكادير وأسفي وسلا

البضائع المستوردة من بلاد البربر

وفضلا عن هذه البضائع من التبر وريش النعام والتمر والنيلة، ترسل أيضا إلى موانيء البحر كمية من الجلود المدبوغة وغير المدبوغة، والعنب الدمشقي، وسبائك النحاس المصنوعة على شكل الآجر، والشمع والقصدير والصوف، مع جلود الماعز لصنع الحقائب الوزارية، ويمنع في هذه الممالك بيع الحبوب والخيول وسائر الدواب، ما عدا إن أعطي في المقابل السلاح والبارود وغير ذلك من العتاد الحربي

البضائع المصدرة من أوربا الى بلاد البربر

هذه هي اصناف السلع التي تخرج من تطوان والقصر وأصيلا وسلا وأزمور وأسفي وأكادير، والتي يحمل من اجلها تجارنا من أوربا نقود اسبانيا، والاقمشة الرفيعة من الحرير والصوف المختلفة الالوان والاشكال، كالديباج والقطيف و«التفتة» المخططة وذات اللون الواحد، والقماش القرمزي، مع وشاحات من حرير، وأقمشة رفيعة من انجلترا وسيكوفية، وأنسجة من هولاندا وبروطاني وروان، وثياب موصلية (موسلين) لصنع العمائم، وقلنسوات رقيقة حمراء وسوداء للمسلمين واليهود، والحرير المعد للاستعمال، وبهارات وعقاقير مختلفة الانواع، مع القطن وتبغ البرازيل وجزر الانتيي وبوردو، والسكر، وشجر البقم، والدردي، والشب، والكبريت، وأصباغ مختلفة الالوان، من قرمزية وطلاءات اخرى، والورق بجميع أصنافه، والفولاذ والحديد والرصاص، اضافة الى الخردوات والبزازات، كالسكاكين والمقصات، والدبابيس، والابر، والاقفال، والمرايا، ومشط البقس والعاج ذات الاسنان الدقيقة .

وهناك أيضا عدة أنواع أخرى من السلع الرفيعة، يطول تعدادها ويمل من ذكر تفصيلها، وكلها يؤدى عنها (باستثناء النقود التي لا يوخذ منها الا اثنان بالمائة) عشرة بالمائة للدخول والخروج وكواجبات للملك، واثنان بالمائة كواجبات للقنصل. ولن اتحدث عن الاسلحة الهجومية والدفاعية ولا عن آلات الحرب الاخرى الصالحة لتسليح القراصنة وتجهيزهم، التي تستورد يوميا، رغما عن مراقبة الكنيسة وحظر ملوكنا، لان التجار، كمعظم الناس اليوم، لا غرض لهم سوى في المال، ولا يهمهم من أي طريق، شريطة الا يظهروا أقل استقامة بين الجمهور

وبعد أن تعرضت بشيء من الاسهاب للمدن والبضائع، سأقول كذلك شيئا عن مقام التجار، حتى يتعلم الذين يريدون الذهاب للاتجار هناك، ويعرفوا عادات البلاد وما عليهم أن يراعوه، كي لا يفاجؤوا أو يزعجوا من طرف العمال وأفراد الشعب، وحتى لا يكون لهم أي خصام معهم فيما يخص أداء ثمن بضائعهم، وفي سائر المناسبات الاخرى

أول ما يجب عليهم أن يفعلوه في نفس اليوم الذي يصلون فيه أو في الغد، هو زيارة عامل المدينة، واتحافه بهدية ملائمة حسب العادة، والتردد بعد ذلك لزيارته لاجتلاب مودته، لان المغاربة معجبون بأنفسهم يحبون المجد والفخر، خاصة اذا كانوا في مناصب سامية كمنصب العامل

ويجب أن يوجهوا اليه الشكاوى لادنى نزاع يكون لهم مع المسلمين أو اليهود، لاسيما وأن ذلك يعود عليه بالنفع لاستخلاصه الغرامة منهم، وحتى لا تعطى فرصة للعوام ليحتقروهم أو يسيؤوا إليهم، لان هؤلاء القوم إذا لاحظوا أن للتجار عند العامل بعض التقدير والاهتمام بمصالحهم، كانوا أكثر استقامة في عملهم، ولم يجسروا على إهانتهم

واذا انذرهم العامل بالمثول أمامه، أو دعاهم أحد الى المحكمة فعليهم أن يحضروا في الوقت المحدد لهم شفويا، لاسيما أنهم اذا اعطوا العامل وقتا ليستدعيهم مرة ثانية، سيتحملون عقوبة قانونية، وهي مائتا جلدة، أو السجن، أو أداء غرامة ضخمة، لاجل الاستخفاف بأوامر العدل

يجب أن يحرصوا على ان يتخذوا اصدقاء من أقارب العامل وخلصائه، الذين قد يفيدونهم في مناسبات كثيرة، لاسيما للحصول على بعض المنن الخصوصية منه. وعليهم الاحتراز من السباب أو توجيه كلمات جارحة

للمسلمين بمحضر شهود، وبالاحرى رفع اليد لضربهم، او البصق على وجوههم، أو حتى أمامهم، اذا غضبوا، إذ الافضل التظلم لدى العامل من أن يأخذوا الحق بأنفسهم. يجب ألا ينخدعوا بافراط بما قد يظهره لهم العامل من مجاملة، فهو متمسك الى حد كبير بسلطته، وكلهم يعضون وهم يلاطفون، وبخلاء يفلسون بكثرة ما يعدون، ويستغنون بمنع اي شيء، قليلو الميل الى الوفاء بالعهد وانجاز ما وعدوا به، محبون جدا لتقبل الخير وعدم فعله. يقولون عندما يُشتكى اليهم من قلة أمانتهم إنهم ليسوا مسيحيين مثلنا حتى لا تنقض أمانتهم بذلك يعرفون ومن اجل ذلك يؤمنون

وعلى التجار ألا يذهبوا من مدينة الى أخرى دون اذن العامل، وإلا جعلوا منه عدوا لدودا لهم؛ والا يبيعوا سلعهم بالسلف لا للمسلمين ولا لليهود إلا بثلاثة أو أربعة ضمانات، لانهم معرضون كثيرا للافلاس، واذا أفلسوا فليس لهم اموال خاصة يمكن اقتضاء الدين منها، اذ لا يملكون تراثا غير المنازل التي يسكنونها وبضعة بساتين لا تساوي كثيرا

كما يجب عليهم ألا يأخذوا أية بضاعة بالسلف من اليهود، او أن يتخذوا معهم أي دفتر يومي، لانهم يضيفون دائما أكثر من ربع أو ثلث ما دفعوا، متبعين في ذلك بعض أمثالهم القائل إنهم لن يصبحوا ابدا أغنياء ان لم يخلطوا مال الغير بمالهم، وهذا الغير عند اليهود هم المسيحيون والاتراك والمغاربة والوثنيون الذين يمكن لهم ان يسرقوا مالهم اذا أتيحت لهم الفرصة بدون عقاب، شريطة ان يعطوا قسطا منه لتنمية ثروة من لم يساعدهم الحظ منهم، واغناء مساكينهم عن السؤال. حقا ان صدقتهم عجيبة بهذا الصدد لانه اذا فقد احدهم جميع ما يملك، أعطوه الى ثلاثة اضعاف ما فقد، ليتمكن من الرجوع الى حالته الاولى. وإن عاكسه الحظ مرة أخرى أعيل كسائر الفقراء. لكن الطرق الجائرة التي يعولونه بها تبين كيف تكون الثقة بادعاء حكمتهم السامية .

اذا أراد اليهود أن يستخلصوا ما قيدوه في دفاترهم، التمسوا محاباة القاضي الذي هو عادة عامل المدينة فقدموا اليه بعض الهدايا أو وعدوه بنصف السرقة إذا اعطاهم الحق. واتفق في أيامي ان عدة تجار كانوا بسلا وتطوان، سقطوا في نهاية العوز، لمغالاتهم في حسن الظن باستقامة اليهود وثقتهم بدفاترهم. ان المسلمين أكثر امانة شيئا ما من اليهود، لكن الاحوط ان يعتقد بأنهم نبهاء سيئوا النية كالآخرين

وحتى يحتفظ العمال بالنعمة ويزدادوا منها اكثر ويحتفظوا برضى أميرهم،

فانهم غالبا ما يقدمون له هدايا من الجوخ والقماش الرفيع، يقترضونها من التجار، ولكن بما أنهم غالبا ما يعزلون أو يحطمون وليس لهم أي تراث، فينبغي ألا يعاروا إلا أقل ما يمكن، وإن رغبوا في اقتناء شيء من تلك البضائع، اطلعوا على أسوئها، حتى يأخذوا منها الاقل، لان جلهم معوزون، ليس عندهم ما يسدون به رمقهم الا بقدر ما تدوم مدة ولايتهم.

واجب التجار نحو الاسرى

ينبغي للتجار أن يجتنبوا كثرة مخالطة الاسرى، لان ذلك يسيء إليهم بالنسبة لحريتهم، ويجعل الناس يظنون أنهم أنفسهم تجار وأغنى مما هم عليه، كما انه إذا فر أحدهم، ونجا، اتهم هؤلاء التجار بأنهم أرشدوه ورشوا بعض المغاربة بكثرة المال ليكسبوه حريته فيلزمون بأداء ثلاثة أضعاف الثمن الذي اشتري به. ولكن ينبغي كذلك، حتى لا يشتكي الاسرى بأنهم يحتقرونهم بسبب نكبتهم، أن يتصدقوا عليهم، ويعينوهم في أمراضهم وضرورياتهم الاخرى، كما لو كان غذاؤهم سيئا عند سادتهم، ويحضروهم عندهم للابتهاج بأعياد السنة الرئيسية، على غرار ما يفعله السيور انطوان ريموند من مارسيليا، القنصل السابق بسلا، الذي لم يكن يكتفى بالاحتفال بهم ذلك اليوم، ولكنه يعطيهم أيضا مالا، وكما ما يزال يفعل اليوم السيور توسانت بوايي من كاسيس، المقيم بتطوان. فانه يتصدق كثيرا على المسيحيين الاسرى هناك، حتى إنه يؤوي عنده عددا كثيرا منهم يكون مسؤولا عنهم ازاء سادتهم. إن المقام هنا يقتضي التنويه بذلك المسيحي الحقيقي الذي ولد نبيلا واضطر الى احتراف التجارة لتنمية ثروته. ويبدو أن القدر ساقه الى تطوان ليكون الاب المشترك للاسرى المساكين. فيجب أن يضرب به المثل لجميع الذين سيسلكون بعده تلك الدروب، حتى يقتدوا به في العمل السريع لتحرير الاسرى، الذين سيبعث اليهم المال من اجلهم، وألا يقلدوا السياسة السيئة للذين تحدثت عنهم آنفا . واذا هم فعلوا، فان الله سيبارك أعمالهم وتجارتهم، ويحفظهم وأموالهم من جميع الاخطار والآفات البحرية

أرجو ان لا تكون متعة قراءة هذه الرحلة أقل من سابقتها تآريخ مراكش، لاسيما وان الحديث عن الاسرى الذين وقعت لهم أحداث شتى، رغم كونها أقل شهرة من أحداث الملوك، فانها مع ذلك ليست أقل متعة وتسلية، هذا ما ينبئني بأن القارىء الذي سبق أن أطلعته في المقدمة، على الموضوع الذي اخرجتها من اجله، لن يستقبح أن أكرر له في هذا المقام الذي يتممها، بأن صدقاته لن

تكون أبدا أحسن من استعمالها في افتكاك اربعمائة بائس من اخواننا مازالوا بفاس ومكناس وسلا والقصر وتطوان، ومن بينهم خمسون طفلا صغيرا يتراوح سنهم بين خمسة عشر وثمانية عشر عاما، معرضون كل يوم الى التنكر الى دينهم بسبب التعسفات اليومية لسادتهم القساة لارغامهم على ذلك. فحاولت أن أصف له الآلام، لالزمه بالتذكر أنه يجب عليه أن يغيثهم كلما منحه الله الوسائل لذلك .

إن آباء لا ميرسي، الذين يستعدون في القريب العاجل لايفاد بعثة ثالثة الى مملكتي فاس ومراكش، انتدبوا الاب دي شيلّي، الراهب الشهير لجماعتهم في دير باريس، ليكون رئيس هذه البعثة بمجرد ما ستوفر لهم صدقاتكم المال الضروري لتحمل النفقات الباهظة اللازمة في هذه الرحلة الشاقة، سواء لافتداء الاسرى الذين تفوق فدية كل واحد منهم مبلغ مائتي ريال، أو لاقتناء الهدايا التي تقدم لملك مراكش وعمال المدن، للحصول على الاسرى، أو للاهانات التي يلزمون فيها بالاداء لاتفه الاسباب.

فهرس الموضوعات

رحلة مويط ـ تقديم بقلم الدكتور محمد حجي 5
مقدمة المؤلف 11

خبر أسر السيور مويط
في مملكتي فاس ومراكش

الفصل الاول ركوبي البحر في دييب للتوجه
الى أنتي الامريكية واختطافي
من طرف قرصانين من سلا 13

الفصل الثاني كيفية بيع الاسرى المسيحيين بسلا
ووصف هذه المدينة 17
ـ قصة مسيح مزعوم 24

الفصل الثالث في أمور اكثر خطورة وقعت بفاس الجديد
الى ان نقلت الى مكناس مع باقي الاسرى 27
ـ وصف دور المغاربة 27
ـ تهييء الكسكسو 29

الفصل الرابع في الشدائد التي حدثت في
عهد مولاي رشيد 30
ـ محنة دون فرانسيسكو كريون 31
ـ كيف همّ مولاي رشيد باحراق عبيده 32
ـ موت دون بيدرو لوبيس في يناير 1671 33
ـ رحلة الملك الى فاس 35

الفصل الخامس في المحن والاشغال التي قاسيناها بمكناس
التي جدد الملك بناءها ليقيم بها بلاطه 37
ـ طاعون سنة 1679 39

- إنشاء جمعية لاسعاف المرضى.............................. 40
- هدية الى مولاي رشيد من الرهبان
المتأملين بمراكش.. 41
- استيلاء الملك على اسرى الخواص
بسلا وتطوان.. 42
- وصف مراكش.. 43
- وصف سوس.. 44
- كيفية اصطياد الاسد.. 45

الفصل السادس اضطهاد القصر.. 45
- قدوم مبعوثي فارس شاطو - رونو.......................... 47
- وصف مدينة القصر الكبير.................................. 49

الفصل السابع قصة بير ناروبوصي الذي القى بنفسه
بين 14 أسدا جائعا.. 51
- حديقة الاسود بمكناس...................................... 52

الفصل الثامن في محن الاسر بصفة عامة.................................. 54
- فرار اسلاميين.. 57
- في المطامير.. 60
- تطبيب مضحك يقدم للاسرى.................................. 61
- الاسرى في وليمة الزفاف.................................... 62

الفصل التاسع طعام الاسرى ولباسهم.. 63
- الفرش.. 64
- مدح جوزيف كاسطيل.. 64

الفصل العاشر في قدوم الاباء رهبان لاميرسي
وافتدائهم للمؤلف.. 68
- وصف مدينة مكناس.. 72
- وصف مولاي اسماعيل.. 74
- وصف تطوان.. 76

الفصل الحادي عشر قصة اسير فرنسي فر من طرابلس
متنكر في زي مرابط.. 79
- الوصول الى مالطة.. 82
- وصف لامبادوز.. 84
- في القاهرة العظمى.. 85
- وصف القاهرة العظمى.. 87

- معركة مع سبع سفن من طرابلس 88
- فرار الاسير على اثر حجاج مكة
متنكرا كمرابط 91
- وصول المرابط الى تافيلالت ومرضه 92
- اسره الثاني في مراكش 95
- فراره الى طنجة وموته 96

الفصل الثاني عشر قصة دن لويس كونزاليس البرتغالي
الذي بقي في الاسر ثلاثين سنة 96
- وصف تافيلالت 99

الفصل الثالث عشر في العلاقات الغزلية لاسير فرنسي
مع سيدة من سلا 102

الفصل الرابع عشر قصة نبيل اسباني اسير يدعى دن رفائيل
دي فرايس 105
- نفي دون رفايل 109
- اقتحام العرائش 111
- اسر دن رفائل ووصوله الى فاس 113
- الفرار الاول 115
- كيف قدم الى الشيخ عمار 116

الفصل الخامس عشر مغامرات نبيل نورماندي يدعى
السيور دولا بلاس 121
- القضاء عند المغاربة 126

الفصل السادس عشر قصة اسلاميين احرق احدهما حيا بتطوان
والاخر باشبيلية 130

الفصل السابع عشر معاهدة تجارة 137
- تطوان أصيلا - القصر 138
- المعمورة - سلا 139
- احتيالات بعض التجار في بلاد البربر 140
- ازمور - اسفي - اكدير اغير 142
- تجارة تنبكتو وبلاد السودان الاخرى 143
- البضائع المستوردة من بلاد البربر 144
- البضائع المصدرة من اوربا الى بلاد البربر 144
- واجب التجار نحو الاسرى 147

وزارة الثقافة
دار المناهل للطباعة والنشر

الايداع القانوني 1022 / 1990

وزارة الثقافة
دار المناهل للطباعة والنشر